الوثاق

رواية: الوثاق
اسم الكاتبة: رحاب عمر
تدقيق لغوي وإخراج فني: عبد الله أسامة
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
رقم الإيداع: 16588 / 2018

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية،
أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذنٍ كتابيٍ من الناشر؛
يُعرِّضُ فاعله للمساءلة القانونية.

المكتبة العربية للنشر والتوزيع

١١١ عمارات جنوب الأحياء - مدينة السادس من أكتوبر
موبايل وواتس: ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

الوثاق

(رواية)

رحاب عمر

الإهداء

إلى قلبها الجازع...

ضعي أطباقه فارغةً على المائدة،

لا تعتدي بقولهم «جُنّت لفراقه»

هو حولك «حيٌّ يُرزق».

فُتقت روحك.. لكنك حين تعلمين أن عصافير الجنة

تجلب لكِ روحه تُقبِّلك صباحًا..

ستنبت لك روحٌ جديدة.

إليه...

كان بيدي أن أُولي قلبي وجهةً يرضاها..

لكن روحي راودتني عن بقائك، لأن تجتثني من فوق

الأرض، أو تبقى فيّ خالدًا..

وبَقيتْ ناسكةً في محراب عشقك دون زادٍ لا تلتفت.

مقدمة

في الظلام كان مُلقى في ركن حالك، أَشفقتْ عليه يمامة سائحة في ملكوت الله تغني، نادته:

- يا أنت! من أوثقك هكذا، وكيف ابتليت في هذا النور بالمكوث قيد الظلمة؟

- أوثقتني الأعراف وأعتقتني -في الظلمة- الطبيعة.

- وأين عقلك؟

- كان عقلي يرتجف يخشى أن يكون خارج السرب، خارج سياق العقيدة.

- العقيدة في القلب، والوصول انفراد وتفرُّد، العقل خلق ليحلق في فضاء الروح، دعني أحررك.. دعني أفك وثاقك، لكن... من أين أبدأ؟

- من الذاكرة، ليتك تتمكنين من الذاكرة!

غاصت في عينيه الدامعتين وقالت:

- لكنها أين؟ أين الذاكرة؟ تُراها في القلب أم في الروح، أم في العقل؟ أين تقبع؟ وعلام تقتات؟

قال:

- لا أعلم، تشد أزر وَثاقي، فتقوي القيد، وتقتات من نبضي!

قالت وهي تطير بعيدًا:

- حين تعلم أخبرني.. سأصطحب في رحلتي القادمة قلمًا، ربما يُفك وثاقها حين نكتبها!

حلقت بعيدًا ووقفت في الفضاء ترف بجناحيها وتردد: «وطالما قيدتك الذاكرة فأي حرية تنتظر! مسكين من ألقى مفتاح الذاكرة في جب روح تسلمتها ريح شك فأرجحتها عبر قلب وعقل، ومصير غير مسموح فيه بيقظة».

الفصل الأول

رحيل

في الطريق الطويل، عبر مساحات شاسعة من سيادة اللون الأصفر، وتداخلات قليلة لأخضر تتجاذبه الحياة فلا يلبث أن يرتطم بجبال يكسوها الذهب، نخلات غريبات بين تراب وطن قديم، تتمايلن بوهن، ويطأطئن بحسرة، يُسقطن تمرًا أسودَ جافًا، خلا من الحلو وتلظى بمر وعلقم، الجرذان تعبث بنقاء الأرض، تتلاعب بالتراب وتتقاذف التمرات، تبول فتدنس طهارة البقعة الطيبة، تسبقها رائحة خسة وحقارة، جرذان توغلت في أمعاء الشهداء وخرقت أحشاءهم، دنست الغاية وتحالفت مع الشيطان حتى لا يبقى من أجسادهم شيء.

لكن رائحة الانتصار تخترق أشجار المانجو والبرتقال، وتداعب أغصان التين، سرب من النوارس هرب من ضوضاء البحار وإزعاج السفن، لاح لي من بعيد وهو يشهد طرح الرمان لعام جديد، رائحة الزيتون أيضًا معبأٌ بها الطريق وأخضره يتلألأ مُناورًا أشعة الشمس التي ترمي بذهبها في فضائها الرحيب.

لحظات السكينة قليلة جدًّا، لون أحمر ودمعات واقفات في الأحداق تغير لون الحياة، وتُزيل الصحاري بشجن، حسرتي ملقاة فوق كرسي الأتوبيس الذي استقلني من الوسط إلى أقصى الشمال، أشعر أني أفتقد معنى البقاء، كأني في عالم آخر بعد رحلة موت عصية، أفتقد في عالمي هذا أبسط معاني القوة، بل أضعف

درجـات المقاومـة.

لا أريـد أن أتذكـر مـن أكـون، ولا كيـف كنـت، بلهـاء أنـا أنظـر للطريـق بعمـق محاولـةً اسـتجداء الحيـاة لحـين أنتهـي مـن ترتيبـي، ذاك الـذي تركـت بيتـي الريفـي الصغـير -الراقـد جـواره قـبر بـه روحـي- لأجلـه، أو ربمـا لأجـل اسـترداد بعـض مـن سـكينتي المغـادرة بـلا عـودة، في اسـتراحة جـوار الطريـق الطويلـة طلبـت القهـوة، نظـر النـادل إليّ بتمعـن وقـال: أنـا أعرفـك.

قلت: لا أتذكرك. من تكون؟

واقـف أمامـي يدقـق فيّ قائـلًا: لكنـكِ يبـدو عليـكِ التعـب، أهـو الطريـق أم أصابـك مكـروه؟ لقـد تغـيرتِ كثـيرًا، أنـا لم ألقـكِ منـذ ثـلاث سـنوات، لكنـي لـن أنسـاك أبـدًا.

نظرت باستغراب قائلة: لا أتذكر!

ضحـك ثـم قـال: كنـت صغـيرًا بعـض الـشيء. أنـا مصطفـى، أنـا الطفـل ذو الاثنـي عـشر عامًـا، انتزعتِنـي مـن يـد زوج أمـي بعـد أن كاد يميتنـي ضربًـا، أتذكريـن؟ كانـت أمـي واقفـة تشـاهدني ولا تفعـل شـيئًا، أتذكـر ثورتـك يومهـا حتـى إنـك هجمـتِ عليـه وأنـت تنعتينـه بالأحمـق، وأخـذتِ تعطينـه صفعـات قويـة عـلى وجهـه وكاد هـو أن يقتلـك لـولا تدخـل النـاس...

قلت بتعجب واندهاش: نعم، تذكرت! كيف حالك مصطفى؟ لقد كبرت.

مصطفـى: لم أنسـك سـت ليـلى، لم أشـهد في حيـاتي حنانًـا مثـل حنانـك. كل مـا فعلتـهِ هـذا اليـوم أحملـه لـك في قلبـي إلى الأبـد.

قلت: اجلس يا مصطفى تحدث.. كيف حالك ووالدتك وزوجها؟

مصطفى: والدتي معي وأنا تسلمت الكافتيريا بعد موت زوجها العام الماضي، كان في العريش، توفي في حادث إرهابي هناك.

أكمل ضاحكًا: ليس الإرهاب كله شر؛ فلقد منحني الحياة بموت هذا الوغد.

ارتعدت... فور سماعي تلك الكلمة.

قال: ماذا بكِ؟

قلت: لا شيء..

قال: لن أنسى فضلك مهما حييت، الأموال التي أعطيتِني إياها ساعدتني كثيرًا، أين «ياسين» لقد اشتقت إليه.

نظرت له ودمع عيني يرد نيابةً عني قائلة: مات... ياسين مات!

تفاجأ الفتى ثم نظر للأرض قائلًا: «إنا لله وإنا إليه راجعون». آسف ست ليلى، الله معك، أعجز عن الكلام. لكن كيف؟ أكان مريضًا؟

قلت: ما يُفرحك قد يسوؤني، ليس في الإرهاب خير! قد ترى في موت زوج أمك غمة وانزاحت، لكن في الحقيقة ليس هناك أسوأ من نفوسٍ تُقطف قبل أوانها، على يد مدعٍ أرعن؛ فيظل نبضها يتأوه نافخًا في أبواق الحياة ظلمًا وظلامًا. نفوس لم تكمل بعد قصة توبتها، أو استمرار معاصيها، لم تكمل أنفاسها المقدرة في الحياة، فتنحر كما البهائم دون تقديس لإنسانية ولا احترام لعقيدة، فتكمل في التراب أعمارها وتخالف جبرًا سنة الله في الكون. فترف روحها جزعًا في فضاء أسود.

قمت بإزالة دمعي الغزير محاولة الثبات، قائلة: لكني سأحتاجك، أتساعدني مصطفى، تعدني أن تبقى جواري لو احتجتك؟

مصطفى: أنا كُلي لكِ، حتى لو عمري ثمن، فقط اطلبي، أنت كأمي تمامًا.

قلت وأنا أقف أربت على ظهره: أعلم، فقط أعطني رقم هاتفك.

تبادلنا أرقام الهاتف وقمت إلى الأتوبيس الذي سينقلني وسط سيناء.

كان الطريق لا يزال بعيدًا، ودمعات ثقيلات ما زلن يعبثن بخلدي، ومتى هدأت الدمعات ومتى سكن الخاطر؟ القلب يتقلّى في فقدٍ مزمع، روحي بين الحياة والبرزخ تروح وتأتي، تغفو وتصحو، لكنها لا تبقى ولا تستكين، الثأر يثأر مني أنا، وكأنني من يستحق الانتقام.

أنا الصريعة والقتيلة، أنا الضحية والمجرمة...

أنا البقية الباقية من عائلة كبيرة، كنت سببًا مباشرًا وصريحًا لأول ارتطام لها، ثم توالت النكبات، وهلت المصائب، وانتهت بانشطاري لأشلاء لا قيمة لها ولا معنى، وفقدته، فقدته سلوى العمر، وفرحته المؤجلة، بعض روحي، وريدي وشرياني، وحيدي «ياسين».

فقدته دون قصد، من ذات مقصد، عطية مني لبعض دمي، لا أدري أسوء نوايا، أم بساطة عقل لا تغتفر! قرب العريش بدأت أعد حقيبتي وأتهيأ للنزول، عليّ ركوب سيارة أجرة للتوغل في الوسط كما اتفقنا، قرب «الحسنة» سأبقى، وسيرسل لي سيارة خاصة تأخذني عنده، ساعات تمر وما زال الطريق بعيدًا، وحدة وأرض جرداء قاحلة، هدوء غريب، حذر قرب الكمائن... تفتيش... أسئلة غريبة...

«إلى أيـن أنـت ذاهبـة؟» قالهـا بخجـل ذاك الشـاب الجميـل ذو اللـون الأسـمر، عيناه سـوداوان وعميقتـان، أدبـه وهـو يتحـدث يشـعرك أنـك أمـام رجـل، نظـرت إليـه مـرددة ذاك الحديـث الـذي حفظتـه عـن ظهـر قلـب: أنـا ذاهبـة إلى عـرس بنـت قريبتي وصديقتـي القديمـة، لقـد اسـتحلفتني للحضـور، لقـد انقطعـتْ عـن زيـارتي وانقطعـتُ عـن زيارتهـا بسـبب الأحـداث المؤلمـة التـي تعيشـها المنطقـة، لكنـي لا أسـتطيع ألا آتي عـرس ابنتهـا الوحيـدة أيًـا كانـت الخسـائر.

قال: في عائلة مَن العرس وفي أي منطقة؟

قلت: عائلة الراوي.

قال بأدب جم: تفضلي ومعذرة فنحن نعيش ظروفًا صعبة.

قلت: بارك الله في عمرك وعمر زملائك، لا تنس، أنتظر أن تدعوني لعرسك.

قال: أنا متزوج منذ عام وأنتظر طفلي الأول.

قلت: بارك الله لك وقر عينك بطفلك.

شـكرته وأثنيـت عـلى جهـوده هـو وأقرانـه وغـادرت وأنـا أرمقـه بنظـرة كلهـا حنـان واحترام.

وأكملـت الطريـق الطويـل، تبعـد الحسـنة عـن العريـش ٨٦ كيلومـترًا جنوبًـا؛ سـفر طويـل، وبعدهـا لا أدري إلى أيـن أنـا ذاهبـة، فقـط سـأنتظر هنـاك.

غلبنـي النـوم والتعـب، رأيـت ياسـين يضاحكنـي كـما كان يفعـل دائمًـا، أعـاد عـليّ كل كلامـه القديـم، عـن سـذاجتي وبسـاطتي «يـا ماما شـغلي عقلـك... الحيـاة مـش

بالسـهولة دي احـذري النـاس شـوية».

صـدى صـوتي وأنـا أرد عليـه ردي المعتـاد يـرن في أعماقـي: لمـا الملايكـة قالـت لربنـا: «أتخلـق فيهـا مـن يفسـد فيهـا ويسـفك الدمـاء ونحـن نسـبح بحمـدك ونقـدس لـك، قـال سـبحانه «إني أعلـم مـا لا تعلمـون» حسـن الظـن مـن علامـات حيـاة القلـب يـا حبيبـي، وسـوء الظـن أولى درجـات موتـه.

اسـتيقظت عـلى خيبتـي... وسـعة عقـل صغـيري «ياسـين». ذاك الحلـم المتبقـي مـن أسـطورة البقـاء السرمـدي، تلـك الأسـطورة التـي وضعـت أولى حروفهـا عنـد مولـد ياسـين واندثـرت معانيهـا في رحلـة الشـقاء التـي اخترقـت سـعادتنا، ثـم مـا لبثـت أن عـادت ونحـن نقهـر العمـر ونبعـثر الأمـل كالعسـل في زوايـا المـر، لكـن العسـل تمـرر حلـوه، ودام العلقـم واختفـى الحلـو برحيـل وحيـدي.

توقفـت بي السـيارة في موقـف ينـم عـن بسـاطة المـكان، وكأن المـاضي توقـف هنـا ولم يرحـل ولم يمـر عليـه جديـد، سـيارات أجـرة قديمـة جـدًّا، بهـا صنـدوق خلفـي محـاط بسـدة مـن البلاسـتيك السـميك، تحـرك النـاس داخـل المدينـة، كان عـليّ الانتظـار قليـلًا، قـال أنـه سيرسـل لي سـيارة تناسـبني لتصطحبنـي إليـه، كان يتحـدث عـن سـيارة بيضـاء ربـع نقـل، لكنهـا مريحـة.

النـاس ينظـرون إليّ بشـكل مخيـف، كل مـن يمـر أمامـي يتفحـص وجهـي بشـكل غريـب، وكأنهـم يدركـون أننـي غريبـة عـن المـكان، بـدأت أرتجـف وأشـعر بالخـوف، حتـى جـاء أحدهـم، رجـل طويـل القامـة أسـود البـشرة يتطـوح كالمعتـوه أو السـكران، يقـول لي: «أي خدمـة يـا سـت؟»

نظرت إليه بخوف وقلت: شكرًا، أنا أنتظر أخي.

فابتعد رامقًا لي، كانت لحظات صعبة، صرت أتصبب عرقًا رغم أن الجو لطيف في نيسان.

مرت نصف ساعة وكأنها الدهر، حتى وجدت عربة بيضاء ذات «كابينتين» تتوقف أمامي وتخرج منها امرأة خمسينية، تلتحف عباءة سوداء وبرقعًا من الخيط السميك تظهر منه جليًا شامة على خدها الأيسر، تتحدث اللهجة السيناوية بطلاقة، تحتضنني وتربت على ظهري بقوة قائلة: «مرحى مرحى يا هلا بالحبايب، كيفك ست ليلى؟»

نظرت إليها وأنا أرسم على وجهي ضحكة مصطنعة لا تخفي ارتجافي، قلت: بخير.

ركبت إلى جوارها السيارة وهي ترحب وأنا لا أفهم من حديثها شيئًا.

مضى الطريق وأنا أرد على حديثها غير الواضح بالنسبة لي بابتسامة وقولة «شكرًا»، بدأت أشعر بإرهاق شديد بعدما مرت الساعة ولم نصل بعد، سألتها: متى سنصل، لقد تعبت؟

قالت بصوت واضح ومفهوم وحدة: «لا تسألي»، تعجبت، لقد تغيرت لهجتها تمامًا، وكأنها تبدلت، صارت أكثر حدة وخشونة معي، تنظر لي بغيظ، ثم تغمض عينيها، ثم تعاود النظر لي بغيظ، صرت أرتجف وأخشى كل ما أنتويه بداخلي، شعرت أن الأمر أكبر مني، وأن الثأر شيمة الرجال وليس لضعيفة مثلي..

لا أدري فجأةً انتابني إحساس بالخوف والتوتر، رحت أعبث في خاطري

واستوقفتني نفسي التي لم تسألني ولو مرة، كيف سألقاه بعد كل هذا العمر... أو كيف سيلقاني هو؟

كل الظواهر تزيد من قلقي، أنا الضعيفة الراكنة كل العمر جوار حائط القدر، لم أحاول مرة تسلق المقادير، ولا الكتابة على جدار الظروف، استسلمت لأسلم، لكن ثمن الاستسلام كان روح آخر تعيش فيّ وأعيش بها، ثم يقسو الزمان ويتجبر، ويقتلني ساكني...

توغلت بنا السيارة داخل الحسنة... كيلومترات.. البيوت بدائية جدًّا، خِلتُ أني قبل قرن من الزمن، الأطفال في الشوارع يرتدون ملابس بالية، لم أشاهد أي ملمح يوحي بالتقدم، في الطريق يلتف الناس في تجمع غير مريح، أدقق النظر أكثر لأجد أغلبهم يتقاتلون على الماء.

ألهذا الحد بقي هؤلاء على حافة الحياة؟ مر التقدم جوارهم ولم يلحظوه، لم تترك السنين آثارًا إلا على تجاعيد الدهر المحفورة في أرواحهم، مساكين هؤلاء، رغم الحاجة راضون، ساكنون وكأنهم يتلقون في الخيال أرزاقهم... فلا حكومة لهم، ولا منصف ولا معين.

الحياة بدائية جدًّا، وكأنك في عصر حجري، أو في بقعة خارج الكون، النساء يرتدين الملاءة أو العباءة والبرقع، والبعض يرتدي جلابيب سوداء واسعة، المرأة بسيطة إلى الحد الذي جعلني أتصور أنها عاملة مثل الرجل تمامًا، بل في تلك المنطقة، الرجل منمق عن المرأة بكثير، وعلى امتداد النظر صدق حدسي، هناك في قلب الصحراء، امرأة تقود قطيعًا من الإبل، وتجري خلف الشارد منهم، تفتقد أي معلم من معالم الأنوثة، لذا يدققن في السيارة وهي تمر سريعًا، وكأني من عالم آخر.

طلبت من السائق أن يتوقف عبر الطريق، أمام هذا الجمع من النساء، فنظر للمرأة التي تجلس جواري وكأنه يتلقى منها التعليمات فأومأت بالموافقة، وقفت السيارة وادعيت أني أريد أن أحرك قدمي بعض الشيء، لكني كُلي شغف للتحدث مع هؤلاء النساء الملتفات حول الخيمة.

نزلت من السيارة، فقابلتني رياح الصحراء ولفحتها القوية الحارقة؛ فارتديت نظارتي السوداء، وذهبت للنسوة اللاتي يفترشن الرمال، قلت السلام عليكم، نظروا لي بتعجب، ردت إحداهن: عليكم السلام «إيش بتريدي؟»

- أحتاج ماء من فضلك.

قامت إحداهن وجلبت لي جرة ماء موضوعة في خيش سميك، ونظرت لي بتعجب، مسكت الجرة بيدي. قلت لها عفوًا: أحتاج كوبًا.. من فضلك.

نظرت لي ممتعضة وذهبت على مضض وأتت لي بكوب بلاستيكي، أخذته منها، وأنا أداوم النظر للمكان وأتعجب كيف يعيش هؤلاء؟

الماء مخزن في أوانٍ كبيرة، وزجاجات بلاستيكية كثيرة، وجرات من الفخار ومواقد بدائية جدًّا، شربت وأنا مضطرة؛ فمنظر البعوض والحشرات أتعبني. قلت لها ما اسمك، قالت: هند.

- كم عمرك يا هند؟

- تسعة عشر.

- متزوجة؟

- نعم، وأم لثلاثة أولاد ذكور.

كـدت أسـترجع المـاء الـذي شربـت، ولكنهـا كانـت تتحـدث بقلـق؛ فشـعرت أنهـا لـن تتقبـل منـي نقـدًا ولا سـؤالًا.. الفضـول كاد يقتلنـي، فسـألتها عـلى مضـض: مـن هـؤلاء النسـاء يـا هنـد؟

- أم زوجي وأختها وابنتاها.

- جميعكم تنامون هنا؟

- نعم.

- وزوجك؟

- زوجي قُتل.

- قُتل! مَن قتله ولماذا؟

- قالوا إنه خائن، خارج عن القانون، ومن يخرج عن القانون يُقتل.

- ماذا فعل؟

نظرت للمرأة العجوز التي تنظر لنا بغيظ وقالت: لا أعلم، لا أعلم.

- أهذا بيتكم؟

- لا، لنـا بيـت في الحسـنة، نحـن هنـا لرعـي الإبـل، هـذا عملنـا، لا نبقـى في مـكان واحـد أكـثر مـن شـهر. لكننـا لـن نعـود لدارنـا مـرة أخـرى.

- لماذا؟

- لم يعد لنا مكان، الكل ينكرنا! يقولون عنا خونة!

- لماذا؟

- زوجي كان رجلًا مهذبًا، عاملًا بسيطًا، وكان يرعى الإبل حين ينقطع رزقه، تعب الحياة وقسوتها وغلاء المعيشة جعلوه لا يفكر في أي شيء غير إطعام الصغار، يومًا ما وجد شيخًا كبيرًا بالسن مصابًا بطلقٍ ناري، وهو يرعى الإبل في الصحراء، فأتى به إلى البيت ليساعده، وقمنا باستخراج الطلق الناري من ذراعه، يومًا فقط وجدنا قوات تهاجمنا وتأخذ زوجي والشيخ، وقالوا على زوجي إرهابي وخائن، وحُوكم محاكمة عسكرية وتم إعدامه دون أن نعلم. علمنا بوفاته بعد شهور، حتى لم يعطوا لنا جثته للصلاة عليه ولا لدفنه.. خربوا البيت وطردونا منه، قسا الجميع، الأهل والجيران، لم يرحمنا أحد. وأصبحنا مطاردين كما رأيتِ، «موت وخراب ديار زي ما بيقولوا».

قمت بدس بعض المال في يدها، نظرت لي ولم تنطق.

لا أدري شعرت بحسرة على تلك الصغيرة، ولم أعد في حاجة لأسألها أكثر، فكآبتها تتحدث نيابة عنها. ربت على كتفها، والنساء ينظرن لي بقلق وتعجب، وغادرت إلى السيارة وصورة هند في ذهني لا تغيب. حديثها يرن في قلبي، كسرتها تقهرني، ولست أنا المقهورة الأولى في الحياة، كل السواد الذي تراه هذه الشابة تكدس في صدري.

بعد مرور أكثر من ساعة من الحسرة والتوجع، توقفت السيارة أمام البيت الأبيض الكبير، طلبت مني المرأة التي تجلس جواري النزول، طلبت بحدة كعادتها.

أمـام البيـت الكبـير توقفـت أنفـاسي، لا أدري مـاذا ينتظـرني بالداخـل.

بـاب خشـبي كبـير قديـم بقايـا عـصر التوقـف، عـبر نظـرة حائـرة منـي وجـدت متسـعًا كأنـه فضـاء رحـب، وكأن مدخـل البيـت وحـدوده شـكل هلامـي غـير حقيقـي، بالداخـل حجـرات مغلقـة والبيـت ممتـد طوليًـا إلى حيـث لا أسـتطيع أن أدرك.

جـواري تلـك المـرأة التـي اسـتقبلتني، توقفـت فيـما يشـبه الـسرداب. قالـت لي: سـيري مـن هنـا بمفـردك حتـى تصـلي إلى غرفتـك. سـتعرفينها دون دليـل أو مسـاعدة.

كلامهـا غامـض، وأنـا مـا زلـت أرتعـد، قدمـي تتحـرك عـلى الأرض بصعوبـة. أنظـر بترقـب وتمعـن في كل شيء، مختلـف هـذا الجـزء عـن بقيـة المـكان كلـما أتوغـل فيـه أجـد مكانًـا أرقـى، أبـواب حديثـة لكنهـا مغلقـة... تدريجيًـا يظهـر جـمال المـكان، يتسـع الـسرداب.. أدخـل فيـما يشـبه القاعـة الأثريـة الكبـيرة... حجـرة مكتـب ضخمـة عاليـة الجـودة والقيمـة، بهـا زخـارف كقاعـة اسـتقبال ملكيـة، حتـى المقاعـد والتحـف لم أر مثلهـا في حيـاتي.

«وهل هذه حجرتي؟»: حدثت نفسي في تعجب.

لفت نظري حجرة جانبية في القاعة الكبيرة، قلت: ربما هي.

قربـت منهـا وأنـا أحمـل حقيبتـي الصغـيرة، وحقيبـة أخـرى بهـا بعـض أغـراضي، طرقـت البـاب، ولا أحـد يـرد.

قمـت بفتـح البـاب بعصبيـة وحالـة مـن الحـيرة والقلـق، ارتفعـت عينـي عـن الأرض في تصـادم غـير متوقـع، بشـخصه وكامـل هيئتـه أمامـي في تجـلٍ عهدتـه بـه قديمًـا، صـورة احتفظـت روحـي بهـا ثلاثـين عامًـا، هـو كـما هـو، فقـط بعـض مـن علامـات

الزمـن البسـيطة جـدًّا، شـعرات رماديـة زادتـه جـمالًا، تجاعيـد بسـيطة حـول عينيـه لكنهـما مـا زالتـا تحمـلان نفـس الروعـة، نفـس السـحر، نفـس الحـزن القديـم.

بقينـا هكـذا لحظـات، لا أدري سـاعات أم سـنوات، عندمـا غصـت في عينيـه وجـدت دمعـات حائـرات يتأرجحـن بـين اللـين والقسـوة، بـين ذاك القديـم الرقيـق، والسـيد الصلـد الخشـن، بـين مـن ينـثر كفـه عبـق حـروف تحيـي القلـب الميـت وبـين ذاك الـذي تتقاطـر أصابعـه دمًـا.

قال: تعالي.

دخلـت بعـد أن أفرغـت كثـيرًا مـن ضيقـي وتوتـري عـلى بـاب الغرفـة. غرفـة كبـيرة، تذكـرني بالغـرف الملكيـة التـي قرأنـا عنهـا في كتـب ألـف ليلـة وليلـة. نظـر لي بلهفـة قائـلًا: أنـرتِ قلبـي المظلـم منـذ عقـود.

قـال: اجلـسي، أنـت متعبـة أعلـم، لا قـدرة لـك عـلى السـفر، أتذكـر ذلـك جيـدًا ليـلى. ليـلى... أنـت ليـلى؟! أهـلًا بـك في بيتـك.

جالسـة أنـا وهـو واقـف ولا أكـف عـن النظـر إلى عينيـه، عينـاه براحـي القديـم، وهـما قيـدي الأبـدي، عينـاه سـكن افتقدتـه فضاقـت بي الأرض بمـا رحبـت، عينـاه ثـأري وجرحـي العميـق... عينـاه واقفتـان عـلى أعتـاب الكـون تتلقفـاني مـن حـيرتي وتـشردي الأزلي، عينـاه مغروسـتان في ثقـب في صـدر صغـيري الغائـب... عينـاه آخـر طريقـي وأول مواقفـي.

جلس جواري قائلًا: اشتاقت سنيني إلى رائحتك ليلى، تكلمي أحتاج صوتك..

قلت: «ياسين»... وبكيت، غلبني الحزن وقد عاهدني أن يصغر أمام خططي..

اقـترب قائـلًا: جرحـك هـو جرحـي، وصدقينـي الخطـأ ليـس خطئـي، ياسـين كان كابنـي، وسـأعطيك فرصـة تسـألين الجميـع... كيـف يـا ليـلى تصـورتِ أن أفـرط في جـزء منـك؟!

استكمل الحديث قائلًا: أنا موجوع لفقده أكثر منك يا أغلى الناس.

ارتعـدت يـدي وبكيـت أكـثر عندمـا قبـض عليهـا وكأنـه يودعنـي شـوق العمـر كلـه. فابتعـد متألمًـا لحـالي، ثـم وقـف قائـلًا: سـأتركك، أعلـم أنـك متعبـة.

خـرج مـن الغـرف ووقفـت ثـم اسـتلقيت عـلى سريـر ذهبـي كبـير، بعدمـا تأكـدت مـن غلـق البـاب بمفاتيحـه الخاصـة داخليًـا، ولم أدر بنفـسي إلا صبـاح اليـوم التـالي.

اسـتيقظت عـلى صوتـه المسـجل بخاطـري: «اصحـي يـا ماما». قمـت متوتـرة أبحث عنـه جـواري، النـار السـاكنة بقلبـي لم تنطفـئ «سـأنتقم لياسـين»... «سـأثأر لنفسي».

راوغـت دموعـي لكنهـا هزمتنـي، وأيقظـت صـوت بـكائي السـاكن حلقـي دقائـق، سـمعت صـوت طـرق عـلى البـاب، اسـتجمعت قـواي المبعـثرة وقمـت وأنـا أسـتجدي كل جنـود التحـدي الراكـدة في أعماقـي منـذ أن وعيـت.

هي امرأة منقبة تقول: يدعوك سيدي لتناول الإفطار معه.

قلت: سيدك! أين هو؟

قالت: سأبقى هنا لأصطحبك.

قلت: لحظات فقط، لحظات.

ثم قلت عفوًا وأغلقت الباب.

الآن تبدأ أولى مهامي، عليّ الحذر، لقد اختلف تمامًا، صار «سيدًا» يتولى ولاية الأغبياء... وأمر الرعناء، يقود العامة إلى جهنم، هكذا كان يفكر في الممنوع والمستحيل، يريد أن يتخطى الممكن ويقهر الواقع..

نعم هو.. هو «خالد العوضي» رئيس اتحاد الطلاب في الثمانينات، أربع سنوات متتالية... هو المعادي للسادات، الساخط على «كامب ديفيد». محارب سياسة الانفتاح، هو الوسيم الجريء، الثوري الشارد، كان يخبئ لي المنشورات في أغلفة الحلوى، كان يقول لي: زوجتي ستكون زوجة زعيم وقائدة وطن، ستكون «سيدة الوطن الأولى».

أفقت من هذياني على صوت طرق الباب. قُلت: حالًا، انتظري قليلًا.

ارتديت ملابسي، رتبت نفسي، علّه يتذكر غرامه القديم فأنتقم أنا منه بسهولة، خرجت معها، أخذتني في سرداب آخر، لكنه هذه المرة خروج من المكان.

بدت لي من بعيد حديقة مرتبة بها أشجار ليست عالية، أزهار جميلة، رائحة الريحان والنعناع تتداخل بشكل كبير. لكني عندما تعمقت بنظري للأمام، وجدت أنها آخر ما يظهر من علامات الحياة، بعدها جدب الصحراء وخواؤها يكاد ينطق.

جوار أشجار الزيتون وقريبًا من تكعيبات العنب، كان يجلس خالد مبتسمًا كسابق عهده، ينظر لي كما كان قديمًا، وكأننا ما افترقنا.

قلت: صباح الخير.

قال: إنه أسعد صباح عليّ منذ أن ولدت.

قلت: كما أنت لم تتغير، تبالغ في كل شيء..

قال: تفضلي.

قلت: هذا الإفطار الشهي لأجلي؟

قال: لأجلنا.

جلست أمامه أنظر للطعام، تخاطرني نفسي: من أي جثثٍ سنقتات؟ وعلى أي دماءٍ سنثمل؟ وفوق أي رفات تتراقص قلوبنا؟

قال: ماذا بك؟ أنسيتِ الطعام؟

ابتسمت بامتعاض وبدأت أتناول الطعام بقلق ورفض. وهو يأكل ثم ينظر لي، وأنا أبادله النظرات، عيناه تمتلئان حنانًا وعيناي يخفيان الغل، قلبه مشتاق مذاب بفقد يبكي الحجر وقلبي بالحقد يكتوي.

احتسى معي القهوة، سألني عن حالي، نظرت إليه، رأى في عيني ياسين ودمعات غافلات، فتحدث في الماضي. ذكرني ببعض الأصدقاء وبدأت أستدعي ذاكرتي، مصطفى الشاب الخلوق الذي كان يُحرج أن ينظر لفتاة ويرتعش لو أعطته إحدى الزميلات شيئًا، و«علي» ذاك الذي بكينا ضحكًا من نكاته، وماجدة التي كانت تحبه كثيرًا وتفتعل المواقف لأكرهه، اندمجت معه ساعات في قصصه القديمة وكدت أموت ضحكًا، حتى قرب من علاقتنا التي استمرت سنوات طوالًا، لقاءاتنا، تناجينا، أول مرة حاول مسك يدي فلطمته صفعة لن ينساها.

تحدث وتحدثت، حتى سألني: لماذا تزوجتِ أستاذًا بالكلية وتركتِني رغم اتفاقنا؟ رغم قسمك أنك لن تكوني لغيري؟

قال: ماذا فعلت حتى تلقيني بالنار؟ أنا كنت أعمل ليل نهار لأجلك، كنت قريبًا جدًّا من تنفيذ أحلامنا، لم يكن يعوقنا شيء، أهلك يعرفونني وأنا اتفقت مع أخيك على كل شيء، قولي الآن لماذا تركتِني في نار عشقك أكتوي كل هذه السنوات؟

سكت حزينًا ثم استأنف قائلًا: أنتِ من غيرتِ مقاديري وألقيتِ بي هنا، ستتحملين ذنبي إلى الأبد.

أستمع إلى كلامه ولا أصدق، هالني ما سمعت في الجملة الأخيرة، «أنت من ألقيتِ بي هنا، ستتحملين ذنبي إلى الأبد».

ما الذي يحدث؟ سألت نفسي، ألي ذنب في قتل الأبرياء؟ ألي يد في قتل ابني؟

عيناه تلمع فيهما دموع، يخفيهما كبرياء رجل، تجاعيده البسيطة تطوي خلف خطوطها ألف رحلة وجع. لم أرد بكلمة، فقط استأذنته في الرحيل بحجة أني متعبة من السفر.

قال: عاهديني أن تردي على جميع تساؤلاتي.

أومأت رأسي بالموافقة. وغادرت إلى غرفتي وأنا أرتعد، كنت ما بين الماضي والحاضر أجول، إلى هذا الحد نحن أقرب إلى البدايات. أأكون فعلًا سببًا في تدمير إنسان كما وصف؟ أنا المذنبة أم أنه كان شاذًا فكريًا، ذا اتجاهات غريبة وآراء تقلق!

من فينا القاتل أنا أم هو، أكان ينتقم مني حينما تسبب في موت ابني الوحيد في عملية إرهابية حقيرة؟ تراه ما زال يملك قلبًا ينبض، أهذا له قلب؟

مـن دمـر عائلتـي... قتـل ولـدي وتسـبب في حكـم إعـدام لأخـي وتسـبب مَـن معـه في قتـل أخـي في هجمـة دمويـة شرسـة، إلى هـذا الحـد يصـير الحـق باطـلًا، والباطـل حقًـا، القاتـل يصبـح مقتـولًا، والمقتـول ملعونًـا! ينقلـب ميـزان الصـدق حينـما ترتـد الأنفـس وتكفـر بالحقيقـة!

خشـيت أن أثـور عليـه، فهربـت أرتعـد مـن هـذا الظـالم القـاسي، الـذي لفظنـي بـلا رحمـة، والآن يسـألني؟ كـم هـو مضحـك ومبـكٍ حـال البـشر!

هـذا مـن اضطرتنـي الحيـاة للجلـوس معـه، نتقاسـم اللقيـمات ونحتـسي القهـوة، ونتشـارك الحديـث وننتـزع مـن بـين همومنـا ضحـكات. وأنـا أحمـل لـه في قلبـي كرهًـا، يُظلـم هـذا الكـون الرحيـب إذا أُتيـح لـه متنفـس.

شـعرت بالـبرودة رغـم الربيـع الجميـل.. فتلحفـت غطـاءً ثقيـلًا وتهـت في نـوم عميـق.. لا أدري أيـن أنـا.

الفصل الثاني

استدعاء

بيت صغير في بقعة ريفية وارفة، تلتف حوله الأشجار المثمرة، خلف البيت أشجار النخيل تسقط ثمارها في الفناء الواسع الكبير الذي يتصدر جزءًا كبيرًا منه أعشاش للطيور التي تربيها أمي بحب وشغف.

على الجانب المقابل لها فرن بلدي متوسط الحجم أكلنا من خبزه حتى شبعنا واستقمنا، هناك أرى الطفلة الصغيرة التي تجمع البلح الساقط من النخلات المائلات على المتسع الرحيب من المنزل الصغير.

معها الطفل الوديع ذو الأشهر القليلة.. الذي جاءهم على حين غرة بعد أن بلغ جمال سبع سنوات ودخلت ليلى عامها الثاني عشر، صوت الأم يجلجل المكان، وهي تصرخ «تعالي يا ليلى، هاتي حمزة وتعالي».

تدخل ليلى بعدما تجذب حمزة وهو يصرخ يريد أن يبقى جوار الطيور؛ فهو لم يمل بعدُ من رميهم بالبلح. على المائدة الخشبية الصغيرة التي تتوسط قلب الدار يجلس الأب الودود يضرب على الأرض قائلًا: «تعالي جواري يا حبيبتي». فتجلس ليلى فيربت الأب عليها قائلًا: «أنت أغلى الناس».

يزوم يحيى: ابتعدي عني «أخدتِ مكاني»..

يقول الأب: لا تحدث أختك بهذا الشكل، أنت الأكبر عليك التحمل.

يرد جمال: «دايمًا يحيى بيعمل مشاكل».

يرد الأب: «احترم يحيى يا جمال دا أخوك الكبير».

يتناول الجميع الطعام، ويقوم كلٌّ إلى عمله، يحيى يذاكر دروسه، فهو طفل مجتهد يحلم بالتفوق. جمال يذهب مع والده إلى الحقل لمساعدته في إطعام الماشية مدعيًا أنه انتهى من واجباته باكرًا.. تصعد ليلى على سريرها وتحمل رواية صغيرة، ما زالت في الصف الأول الإعدادي، لكنها شغوفة بالقراءة، وبالأفلام القديمة.

كل يوم في حياة الأسرة البسيطة كان يمر كحلم، أمام البيت الكبير يجلس الأب في إحدى ليالي الصيف الطويلة يتحدث عن أمانيه وأحلامه في الحياة. قائلًا لزوجته: لا أريد إلا أن أرى أولادي أحسن حالًا مني. لقد تعبت في الحياة ونال مني اليأس ما نال، التعليم يا نجوى، أوصيك بتعليم الأولاد، والحمد لله أن التعليم مجاني. لولا هذا أبدًا ما كنا استطعنا الاهتمام بالأولاد.

نجوى: بارك الله في عمرك لي ولهم، وتراهم أحسن الناس، الأولاد مجتهدون ويحبون التعليم، لا تخف عليهم.

- «يحيى وليلى مش قلقان عليهم، خايف على حمزة وجمال».

- «إحنا بنعمل اللي علينا وانت بتتعب والباقي على ربنا».

- «بدعي لهم في كل صلاة ربنا يصلح أحوالهم وحال البلد».

- «لو حال البلد انصلح كله هيبقى تمام مش هنخاف على أولادنا».

- «ربنا يثبت في الأرض العدل، عارفة، لو فيه عدل، عمر ما يبقى فيه خوف من الحياة، العدل بيجر معاه كل الخير، كل الرزق، لو فيه عدل الناس هتحب بعضها، ميبقاش فيه طمع ولا سرقة طالما كل واحد راضي وقانع انه أخد حقه، لما جمال عبد الناصر وزع الأراضي على الفلاحين بالتساوي، كل اللي أخد أرض اداها روحه، الأرض بقت أغلى من أهالينا وأولادنا، بقينا نقول الولد يتعوض لكن الأرض لأ، كانت هدية غالية قوي لي عرفوا معنى العبودية، كانت الأرض زي صك العتاق، كانت حياة، عبد بقى حر، العبد لما يتحرر بيحس انه استرد حقه اللي وهبهوله ربنا، بالظبط لما استلمنا الأرض، استردينا رجولتنا وكرامتنا، الطين اللي اتخلقنا منه، استردينا بقية أجسادنا».

- «انت بتحب جمال وسميت ابنك على اسمه».

- «هاتي الشاي واحنا يعني كنا لقينا حد تاني يحس بينا غيره؟»

جوار البيت يلعب الصغار، يداعب جمال حمزة الصغير وتجلس ليلى مع يحيى كعادتها تستمع إليه، لقد كان يكبرها بعامين لكنهما كانا قريبين في العقل، وفي الأسلوب.

كانت ليلى البئر العميقة التي يخفي فيها يحيى أسراره وأحلامه، لكنه كان دومًا يقول لها أنتِ أخذتِ من مكانتي في قلب أبي.

رغم ذلك كان يحمل لها حبًا كبيرًا، كان يقول: قلبك كقلب أمي يا ليلى.

يوم نجاحه في الصف الثالث الإعدادي كان من أسعد الأيام على الأسرة الصغيرة،

أقام الأب وليمة كبيرة جمع فيها كل إخوته وأقاربه وجيرانه وأصدقاءه.

باتت الأم والنساء القليلات بالحقل يطهين الطعام طيلة الليل، ويصنعن الخبز، ويعددن لوليمة كبيرة بمناسبة النجاح الجميل الكبير المشرف ليحيى.

الأب يرحب بالضيوف والأقارب، والكل يبارك: مبارك يا شيخ حسن، ربنا يبارك فيهم.

والشيخ حسن في عالم كبير يطوف حول أحلامه فرحًا فخورًا معتزًا بابنه. وعندما يرى الصغار فرحة النجاح يبقى التفوق هدف كل منهم، تنافس داخل الأسرة، الكل يعرف طريقه، الأحلام تخط بغدها تحديًا يقهر الظروف، ويتعدى المستحيل، رغم أن الأب «الشيخ حسن» هو الفلاح الذي لا يعرف القراءة والكتابة، فإنه كان يتفهم قيمة العلم ودوره في تحديد مكانة الإنسان في المجتمع.

كانت الفرحة الأكبر، يوم نجاح يحيى في الثانوية العامة، نجاح مفرح، لقد كان الأول على المحافظة، أهل القرية جميعهم فرحوا بتفوق يحيى... حتى كانت المفاجأة، طلب يحيى دخول كلية الحقوق، صرح لوالده بأنه يريد أن يدرس القانون بل يكمل فيه الطريق، ربما يكرمه الله بالمنصب الذي يتمنى، اعترض كبار القرية وطلبوا منه الدخول إلى كلية أخرى لكنه أصر على تحقيق حلمه...

بعدها بعامين التحقت ليلى بالحقوق أيضًا، لكن يحيى دومًا كان يتفوق عليها، بل يقوم لها بدور الأستاذ، حمزة لا يزال صغيرًا، وجمال في المرحلة الإعدادية.

تتغلغل ليلى في عمق الماضي البعيد جدًّا، لترى أخاها الأكبر شعلة نشاط وتفوق، حتى اشتهر في الكلية بـ«سعادة المستشار». كان يلجأ له كل الطلاب الجدد في كل ما يتوقف أمامهم، علا شأنه حتى وصل صيته إلى الأساتذة، فنال مكانة

وقـدرًا واحترامًـا في نفـوس الجميـع.

تقـول ليـلى: إلى جـواره تعرفـت عـلى خالـد، أمـين اتحـاد الطلبـة، لم يكـن أقـل شـهرة مـن أخـي، بـل كان الاثنـان أشـهر مـن أسـاتذة الكليـة شـخصيًا.

كانـت لديـه أماكنهـم المحفوظـة دائمًـا في كل النـدوات الهامـة عـلى مسـتوى جامعـات مـصر، معسـكرات، تجمعـات ثقافيـة، وكنـت معهـم لا أفارقهـم مطلقًـا.

عندمـا وقـع السـادات «كامـب ديفيـد» كنـا في الصفـوف الأولى في المظاهـرات التـي ثـارت ضـد التمـزق العـربي والتخـلي عـن المعنـى الكبـير للعروبـة، وضيـاع الحقـوق الفلسـطينية، حتـى أن تعرضنـا لمطـاردة الشرطـة، إلى أن اختفينـا تحـت سـلالم العـمارات وفي الحـارات الجانبيـة.

قمنـا بعمـل مناقشـات سريـة، منشـورات، كل مـا يمكـن عملـه حتـى يتـم التصالـح بـين الـدول العربيـة، وكان خالـد يقـود الموقـف بجسـارة، ورغـم اضطهـاد الحكومـة لـه فإنـه فـاز باتحـاد الطـلاب أربـع سـنوات متتاليـة.

نمـا الحـب بيننـا وكـبر وتفـرع، حتـى لُوحـظ مـن الجميـع، فضقنـا بالكتـمان فأعلنّـا، وحـدّث خالـد أخـي يحيـى، وحدثتـه أيضًـا، أني ليـس لي حيلـة فيـما لا أملـك، فأثنـى عـلى خالـد، وقـررا أن يتـم ارتباطنـا بعـد حصولنـا عـلى ليسـانس الحقـوق بعـام واحـد.

علـم أبي بنشـاط أخـي السـياسي وغضـب كثـيرًا، لأنـه كان أمـل العائلـة، فتأثـر لألم والـدي وبـكاء أمـي، وقـرر التخـلي عـن أي دور سـياسي يقـوم بـه.

بقيـت أنـا وخالـد، نحـارب القـرارات غـير المسـئولة التـي تصـدر عـن القيـادة السياسـية، كنـت أسـير خلـف خالـد، نواجـه الغـول الإسرائيـلي وهـو ينتهـك ويتوغـل

ويتفرس في الحق العربي بلا رحمة ولا هوادة.

عشنا فترة شهدت كثيرًا من التطورات والمفاجآت السياسية، اغتيال السادات بعد كامب ديفيد، وتولي حسني مبارك رئاسة الجمهورية.

تخرج يحيى في كلية الحقوق بتفوق منقطع النظير، وكان الطبيعي أن يقدم للالتحاق بالنيابة، ومن ثمَّ يسلك طريق القضاء، حتى يصل إلى مبتغاه.

انقسامات بين كبار البلدة، البعض يؤكد أنه أولى الناس وأحقهم بهذا الطريق، والبعض ينصح أبي ببيع الأرض التي نقتات منها وتقديمها كرشوة، قِيلت لأبي صراحة لكن أبي ثار وبقي يصرخ فيمن يحدثه في هذا الأمر، ورفض رفضًا كبيرًا وقال: ابني متفوق ويستحق، الله معنا.

كانت فترة عصيبة جدًّا، لكن يحيى كان ينظر إلى طريقٍ آخر غير أبي وكان يعلم الواقع غير أبي، كان ينتظر التعيين بالكلية، كان يشعر أنه أقرب، جميع الأساتذة يفخرون به، ويعلمون قدراته. وكان يعقد العزم على أن يكمل دراسته في الحقوق؛ لذا لم يكن متوترًا كأبي.

وظهرت النتائج، وكانت الصدمة الكبرى، اسم يحيى خارج كشوف النيابة، الأقل منه هم من وضعوا أرجلهم داخل أروقة المنصب بثقة، هم من امتلكوا صكوكًا غير مستحقة، ومطلقًا لم يكونوا جميعهم من أبناء القادة أو المسئولين فقط، لكن منهم من رشا، هؤلاء فهموا اللعبة باكرًا جدًّا فثبتوا وجودهم على أرض المنصب بظنهم السيئ بالواقع.

بقي الأمل الأخير في التعيين بالجامعة، وبقي يحيى جوار أبي، أبي الذي أغلق

عليه حجرته أيامًا بلا طعام ولا شراب، بقي يُقوي من عزيمته، على عكس ما هو متوقع أو مفروض، يؤكد له أنه يريد التعيين بالجامعة فهو أمله.

انكسر أبي، انتهى حلمه نهاية مأساوية، في رسالة مدمّاه كُتب فيها «هكذا هي الدنيا»، وأخي يواري انكساره أيضًا، فهو لم يتصور أن يرفض الواقع من هو مثله. وبقي ينتظر تعيين الجامعة..

وكان عامي الأخير بالجامعة، وافقتْ بدايات العام مذبحة صبرا وشاتيلا، وحشية الصهاينة، وحقارة المتنطعين، الخونة المهللين للقتلة، ضياع الحق وسط بقاع نملكها، لكنا كأوساط عربية اعتدنا الخضوع حتى سار سمة.

سبتمبر ١٩٨٢، أن تصحو على كسر الإنسانية وتمزيق أوصالها، أن تشرق الشمس على رفات أطفالك تسبح في برك الدم، عشرات الجثث المتناثرة في أزقة المخيم، منازل مدمرة، أشلاء فتيات ممزوجة بطين، نساء بقرت بطونهن، رجال اغتصبت نساؤهم أمامهم، جرح في الكبرياء العربي ومحق للنخوة ولعزة الوطن، لقد كانت لميليشيات حزب الكتائب اللبناني اليد الأقوى في المجزرة، وربما ظهرت أدلة تؤكد مسئولية جهات عربية أخرى.

وهكذا سار اليهود يخترقون النظام الكوني المدعم للحياة بوقاحة وانتهاك واضح المعالم واتضحت الخيانة مبكرًا جدًّا؛ إذ خرق اليهود كالعادة الاتفاق الذي تم مع جبهة التحرير الفلسطينية الذي أفضى بخروج مقاتلي المنظمة والتعهد الكامل بحماية المخيم ونشر قوات متعددة الجنسيات، لكنهم لا عهد لهم ولا ميثاق.

كان أسبوعًا مشحونًا بغضب شعبي كبير، خرجنا في مظاهرات تندد بالموقف السلبي للدول العربية بما فيها مصر، وأيضًا بموقف الجهات الحقوقية العالمية.. لا أحد يتكلم وكأن شهداء المخيم خارج خط الإنسانية، لا حقوق لهم ولا ركائز لدعمهم، وكأن اليهود معهم صك الغفران الأعظم، أو هم أبناء الله يفعلون ما يريدون!

تصمت الإنسانية في فم العالم، وتحت التراب قلوب تتأوه، ونفوس تزدجر، ويبقى القصاص بين يدي الله تعالى يوم القيامة، لا تحقيقات في الأمر، فقط يتوج المجرم على عرش العدالة؛ فيفتح اليهود تحقيقًا في المجزرة لإحياء ماء وجههم، أو لإضافة بعض من رتوش للصورة، فتأتي النتائج، أن اليهود بريئون كبراءة الذئب من دم ابن يعقوب... والمدان «إيلي حبيقة» قائد مليشيات حزب الكتائب اللبناني..

سكنت الحسرة نفوسنا، الأحداث المتلاحقة، وضياع الحق أصاب «خالد» بالاكتئاب حتى إنه قرر ترك الجامعة والهجرة إلى عالم يحترم الإنسانية كما كان يقول.

بقيت إلى جواره أقوي من عزيمته، لكن حزنه على يحيى وحزنه على الوطن أضاعه وأضاعنا، خالد ليس كبقية البشر، حينما ينكسر تصعب لملمته، وإن حاولت يصبح هشًا، مفككًا، تضل ذاته عن الصلابة ويتوه عن روحه بلا رجعة، لكني بعشقي العميق معه لم أيأس، هرولت نحوه أستجدي فيه الأمل، وألملم شعثه، وأطيب قدر استطاعتي جرحه، كدت أيأس، كدت أموت كما هو، لولا يحيى... أخي المكسور كسرة في الكبرياء لا تجبر، بقي يقوم بعمليات إيقاظ لثورة خالد ضد الباطل.

حتى استفاق... فعادت سعادتي بعودة خالد إلى الجامعة ليكمل دراساته في القانون. كانت ضحكاته ثقيلة على عكس ما اعتدته، اهتمامه بالأشياء وبي صار باهتًا... اجتاحني اليأس رغمًا عني، ثرت لأول مرة، لكنها ليست ثورة حرية بل ثورة ضعف وتخاذل، ثورة نفسية أبحث فيها عن نفسي داخل قلبه..

صرخت في وجهه محتدة، سائلة إياه: أين أنت؟ أين خالد؟ أين الحلم؟ بل أين أنا منك؟ الأحداث والظروف السياسية، وأحداثك الخاصة، كل شيء يؤثر فيك إلا أنا؟ أتدري أنني أحايلك منذ بداية العام ولقد قربنا على نهايته. أتدرى أنني أيضًا روح، أنا إنسانة تحيا إلى جوارك لكنك لا تشعر بها. لماذا في كل الأشياء سعادتك وتعاستك إلا أنا؟!

لكنه بدا غير مهتم يتحدث بلا حماس، مطلقًا لم أكن أتوقع رد فعله على دموعي، ظننته سينهار، سيتأثر، لكن لا شيء. ساكنًا قال: الدنيا كئيبة إلى أقصاها، لا شيء فيها يفرح، بداية من منزلي الذي أفقد الراحة فيه، إلى دنياي التي تميت فيّ المحاولة.. موت أمي أشعرني بأني صغير في عالم يجهله، تائه لا قلب يأويني ولا متسع من عطف، الوحدة زادي وكان الطموح ماثلًا أمامي، إلى أن افتقدت قيمة الأشياء. أنا فقدت أمي، ثم والدي بعد أن تزوج، صرت غريبًا في بيتي، تائهًا في حجرتي، أشعر بالغربة في فراشي، قاومت كل اليأس لكنه حليف مخلص للغاية.

قلت له أين أنا؟ نظر قائلًا: أنت ثقل لا أستطيع السير به.

كانت كلماته موتًا، لم أكن أتوقع قطّ، نظرت إليه بدمعي، تذكرت كل ما مضى، استدعيت كل حديثه، كل نظراته، كل اتفاقاتنا السابقة وعهودنا المبرمة.

تذكرت حينما كان يملأ كفيه بالماء لأرتوي، حينما كان يلقاني مبتهجًا، عندما قال لي أني الحياة وأني الفرحة الوحيدة التي تهون عليه الألم. تذكرت وتذكرت وباتت الصور تجتاحني مختومًا أسفلها بختم أسود عليه توقيعه، مكتوب أسفله: «أنت ثقل».

شعرت أن الكلام يبقى كلامًا إذا فقد الإحساس به، وإذا اختل إدراكه؛ فقمت أتكئ على خيبتي، وأجر أذيال هزيمتي، ليس معي إلا بعض من ذكرى، وقلب موجوع وأمل مكسور.

رحلت وبقي ينظر لي دونما كلمة ولا توسل، تركني أتركه وأترك قلبي لديه، تركني أنقسم غير عابئ، رأى موتي ولم يهتم، كان يملك قبلة الحياة لكنه بخل بها عليّ.

إلى جانب أخي المكسور بتُّ أكثر انكسارًا... الكل يسأل لكني لا أجيب، أو أبرر.. أو أهرب. لكن يحيى بعد أكثر من شهر لاحظ غياب خالد، فجاء يسألني، وعندما ذكره بكيت، وحكيت وقلت أن ما بيننا انتهى إلى الأبد.

بدأت الاستعداد للامتحانات وأنا أقاوم الضعف والاستسلام، وأقاوم وهنًا شب وشاب في قلبي. وذهب يحيى لخالد، بقي جواره أيامًا حتى استعاد عافيته، واستنهض عزيمته، أعانه بالصبر والمقاومة، وأنهما معًا سيحرران الكون، ويجبران كسر الواقع، ويتخطيان الظروف المنتهكة.

وجاء به عصرًا إلى منزلنا، سمعت صوت يحيى يناديني، توقعت في جبه أخبارًا لي، وخارت قواي حينما رأيته.. «خالد».. لكنه غير الذي عرفت! فقد كثيرًا من

وزنـه، وكأنـه لم يهـذب ذقنـه منـذ شـهور، ذابلـة فيـه كل معـاني الحيـاة... فنسـيت، نسـيت كلمـة «أنـت ثقـل لا أقـوى عليـه».

لم أتذكـر شـيئًا.. فقـط هـو خالـد قطعـة مـن روحـي شـاردة، بقاياي التـي تتقافـز فتوقـظ فيّ المعنـى الحقيقـي للحيـاة.. وجـع ينتصـف بقلبـي فيُسـكنني دروب الحـزن الزاخـرة بغيـم. مـد يـده وكأنـه يهدهـد ذاك الحـزن الناعـس فيهـا منـذ فراقـه. نبضاتـه الهادئـة قبلتنـي في كفـي فارتجـف قلبـي...

نظرتـه لي تُضحـك أحداقـي وتغنـي لمقـلي، فضحـك لي فنسـيت ونـسي، وبـدأت أجمـع لـه كل مـا فاتـه في سـنواته المكلومـة، وألملـم لـه مـن قلبـي آمـالًا يحيـا بهـا، كان يومًـا فارقًـا في حياتنـا، وعدنـا وعـادت الحيـاة، حتـى إننـا نسـينا العتـاب.

الفصل الثالث

تسبقنا الأحلام إلى دروب نشتهيها، ونبقى قيد المحاولات والسعي طويلًا، لا نمل ارتطامنا طالما ضمنا عدلًا يختبئ خلف ستائر الضيم والإجحاف، نرتقي بنفوسنا فوق أشلاء كل اليأس العالق بالواقع المتلون بسخط، نحارب... لكنا نكتشف أنّا تلقينا كل الطعنات بقسوة، فقط نحن لم ننتبه للدم الساقط لأنه دم أسود، لون الزي الذي التصق بأجسادنا دون وعي منا ولا اختيار.. وبعد العناء نجد أن الأحلام ما زالت بعيدة وأن الأمنيات عالقة بوهم، وأننا رغم المحاولات نخرج بنقص لا باكتمال.

هكذا تلقى يحيى بعد انتظار طويل خبر عدم تعيينه بالجامعة، إحباط واستسلام، كان جرحه غائرًا، لو كان لا يستحق لما سعى، لكنه واجه حقيقة واحدة، أن الوطن ليس لنا، الأرض لمن يقتنصون لا لمن يعملون، الفرص تحت أقدام الأضعف لا الأفضل، المجتمع يقتل فينا الحياة ويبعثر منا الأحلام، وكيف يبني وطن بلا حلم، بلا عقيدة بلا عدالة؟

النكسة الكبرى كانت لأبي، وصل به الأمر أنه لم يعد يقوى على الحركة، ولا على الحديث، وأمي تنظر للأمنيات الممددة على الجباه بحزن ووجع، بقي أبي مطأطئ الرأس، وبقي أخي الذي علقنا عليه الآمال مكسورًا تائه العقل.

كان إقناع يحيى بالعودة إلى الحياة صعبًا جدًّا، بل يكاد يكون مستحيلًا، بقي جوار والدى في البيت والحقل، يساعده في أعمال الزراعة، وقلب أبي يتقطع عندما

يـرى نهايـة حلمـه ممـددة أمامـه، يـصرخ في وجـه يحيـى عندمـا يقـوم بمسـاعدته، فيجلـس تحـت شـجرة «الجميـز» جـوار الأرض.

حاولـت وحـاول جـمال وحتـى حمـزة الصغـير، لكـن لا أمـل. فقـط يقـول أنـا بخـير ويدعـي أمامنـا الثبـات، أمـي لا تتكلـم، تنظـر وتخفـي دموعهـا، تدّخرهـا لتسـكبها أمـام الفـرن أو عنـد حظائـر البهائـم، ذبلنـا جميعًـا، حتـى الصغـار احتـال عليهـم الهـم وأرقهـم الوجـع.

لجـأت لخالـد، طالمـا سـاعده أخـي، لا أدري أيـن هـو مـن همومنـا، لِمَ هـو بعيـد؟ قـررت أن أسـأل.

كان موعدنـا في الصبـاح، خرجـت بحجـة سـحب أوراق مـن الجامعـة وكان هنـاك، يقـدم أوراق الماجسـتير، رأيتـه، كان يفتقـد روحـه القديمـة، يفتقـد ضحكاتـه، تمـلأه الحسرة، الآن يظهـر لي الشـبه الكبـير بينـه وبـين يحيـى، إنهـا الحسرة وفقـدان الهـدف، شيء مـا انكـسر بيننـا. لم يعـد شـغوفا بي، لا أشـعره سـعيدًا جـواري كـما كان.

الكلام قليل، والضحكات ممنوعة أو ربما محرمة لست أدري.

قال: كيف أنت؟

قلت: بخير.

قال: ويحيى؟

قلت: همًا أثقل كاهلنا.

استكملت: جئتك أطلب العون، لكني أظن أنك بحاجة إليه.

قال: أبدًا يا ليلى، فقط أنا مهزوم لكني سأستعيد نفسي عن قريب.

استكمل: سأقوم بتأجير مكان بعيد عن بيت أبي، لقد مللت زوجته وأبناءها، مقيد أنا طول الوقت ومُلام، سأقدم أوراق استكمال دراستي، وأقوم بالبحث عن أي عمل مناسب حتى لا أحتاج لأحد، لا شيء يكفي، أعتقد أن عليّ دورًا وجب القيام به، نائل وهدى، أنا أخوهم الأكبر، حتى لو لم نكن أشقاء، سأساعدهما ردًا لجميل أبي رحمه الله، لقد ساعدني كثيرًا.

قلت: وأنا؟

نظر لي بدهشة قائلًا: لا أدري!

أرتجف كلما تصورت فراقه، وأشعر بالحرارة تسري في جسدي، كلما تصورته يستخف بما كان بيننا.

لحظتها تخوفت أن أكمل كلامي، شعرت أنه سيتخلى عني كما فعل من قبل، فنظر لي قائلًا: اليأس ابتلعني.

قلت: قاوم عهدتك قويًا، أين أنت من الأمس، لم أتصورك بهذا الضعف!

قال: أبدًا هو ليس ضعفًا، لكني بعدت قليلًا عن الحلم، أحاول أن أعيش الواقع، ظروف الحياة صعبة، لم أعد أجد متسعًا لأرى فيه نفسي، حماسي نشاطي طموحي. أين أنا يا ليلى؟ أين أنا؟ هل كنتِ تظنين يومًا هذا الوضع لي وليحيى، أتتذكرين من نكون، بعد كل هذا التفوق والتميز نصبح لا شيء؟

تلمست يده لأول مرة وجذبتها نحو قلبي قائلة: أنت هنا. تنبض بداخلي، لا تجعل اليأس حائط صد يهزمنا. أنا معك، لا أتعجل شيئًا، معك إلى أن تمد يدك

تتلقفني فأستكين عندك.

تعجب من جرأتي التي لم يلحظها يومًا وابتسم كما كان في الماضي حتى عيناه نطقت «أحبك». وكأنه كان ينتظر مني أن أقاتل معه اليأس، فقاتلت حتى عاد.

قلت له: هيا، هيا نقدم معًا أوراق استكمال الدراسة.

تعجب وقال: ما هذا القرار المباغت، أخبرت والدك؟

قلت: لا، أخبرت نفسي أني لن أتركك، سأبقى أحارب إلى جوارك إلى أن تلين الدنيا. وتفتح لنا ذراعيها.

بدا خالد متعجبًا، ثم ضاحكًا، ثم جاذبًا ليدي متخطيًا كل الصعاب. وعدني يومها ألا يترك يحيى، وعدت إلى بيتنا بأمل جديد لي وللعائلة، تحدثت إليهم بقرار أني سأكمل دراستي مع يحيى، وبخطب حماسية استنهضت ضحكاته المقهورة، وبشقاوتي ضحك أبي وتناول الطعام معنا.

بعد أيام قليلة، قابلنا يحيى ونحن في الجامعة في طريقنا للكلية لتقديم الأوراق المطلوبة، حاول كلٌّ منا أن يلملم شعثه ويَقوى، استجديت أيامنا الجميلة حتى أُقوي من هزائمهما فينهضا، وعند بوابة الجامعة سمعنا صوتًا ينادي «يحيى».

وكانت المفاجأة إنها «نجوى»، تلك الزميلة التي تصغرني بأعوام، هي في السنة الثالثة في كلية الحقوق، تتقرب منا منذ عامها الأول في الكلية، وتحديدًا تترقب يحيى، لكنه لا ينتبه كثيرًا لها.

نجوى فتاة مهذبة خلوقة، ترتدي حجابًا كبيرًا، ينم أنها تربت في وسط إسلامي ملتزم، تعشق يحيى لكنها لم تعلن، يمنعها الخجل لا أدري، لكنها متحفظة،

لا تتحدث عن نفسها كثيرًا، تترقب أخي عن بعد، وطالما لفتُّ نظره لها أنا وخالد كثيرًا، لكنه لم يستجب.

كان يومًا غريبًا، زادت حيرتي أنا وخالد معي، فلقد سلم عليها يحيى بحرارة واستقل معها بالسير بعيدًا عنا. حتى بعدما انتهينا من أوراقنا، طلب منها على غير العادة أن تبقى معنا، وافقت نجوى بفرحة عارمة وكأنها لم تكن تتصور.

قضينا يومًا لطيفًا، وكانت بداية جديدة في حياة أخي؛ فما لبثت نجوى أن تتقرب منه باتصالات يومية، ومواعيد دائمة، مما شكل تغيرًا في حياة أخي. تغيرت الأمور وبدأنا ننسى المأساة، أنشأ يحيى وخالد مكتبة صغيرة جوار الجامعة، واستأجرا مكانًا هناك. وبعد يحيى عني لأول مرة، لكني بقيت ألتقي به وخالد أيام محاضراتي في الجامعة...

كان جمال في السنة الثالثة في كلية الحقوق، وكان هذا الثقل الثالث لأبي؛ فلقد رفض في بدء الأمر دخول أخي جمال هذه الكلية بعد كم العثرات التي أرقتنا، لكنه أصر، وأيضا غالبته الظروف، كان مجموعه صغيرًا والخيارات أمامه غير متاحة.

حمزة، لم يكن يهتم لشأن التعليم، وكان بالكاد يتنقل في الابتدائية.

نجح خالد ويحيى في إدارة المكتبة، ساعدتهما شهرتهما في الجامعة وتفوقهما وعلاقاتهما، في البداية كانت محلًا صغيرًا جانبيًا لكنه في موقع مميز، يعج بكل مستلزمات المكتبة العصرية، لما وفقهما الله استأجرا مكانًا آخر يلتصق بالمكتبة، ونسقت بشكل أجمل، وخُصِّص جزء كبير منها للكتب، كان نجاحهما سريعًا وكبيرًا لمكانتهما القديمة. وقبل أن ينتهي العام أصبحا فقط يديران المكان ويجلبان

المستلزمات، جمعهما الحب والصدق والصداقة الراقية.

كنت ألتقي بخالد معظم أيام الأسبوع، أجلب لهما الطعام، وكانت تعده أمي فردًا معنا، تهتم لطعامه وشرابه، حتى ملابسه المتسخة، فتقربنا أكثر، وعاد يحيى وخالد لنفس الجماهيرية العريضة القديمة، تربطهما علاقات قوية مع الطلاب، حتى زاد وضعهما داخل وخارج الجامعة، وأصبحا شركاء في كل الأحداث السياسية والتفاعلية الحادثة.

ولم يقصرا قطُّ في الدراسة فانتهى يحيى وخالد من الماجستير، وأنا كنت ما أزال في بداية الدرب، وحتى تكتمل سعادتنا مَنَّ الله علينا بقبول أخي جمال في النيابة على عكس توقعنا جميعًا، وكانت المفاجأة التي شدت وصلبت ظهر أبي من جديد، لكنا كنا عرفنا من أين تؤكل الكتف هذه المرة، فسلكنا دروب من سبقونا ولجأ يحيى لإدخال جمال النيابة بالوساطة، والتقرب من أولي الأمر، أيضًا ضحى أبي بفدان كامل لأجل مساعدة جمال؛ فتم لأبي ما تمنى.

كانت بشائر السعادة ترفرف على روحي وأنا أجد «خالد» مشاركًا لكل أحداثي، كأنه مني وأنا منه، أصبح قريبًا من أبي وإخوتي، كنت أبرقه يجلس على مائدتنا وكأنا كنا العمر معًا، مكانه في روحي يتعمق إلى أبعد مدى، بت لا أرى في الدنيا سواه، بت أنتظر فرحًا يخفيه لي بين كفيه، بات نبضي يئن كلما رحل عن عيني وفارقني حتى لو لحظات.

أمام الكلية بدا فرحًا، متألقًا، كل من يمر بنا يسلم عليه، ويستوقفه لخدمة أو طلب أو مشكلة، بدا نشيطًا ومتحفزًا على غير عادته. وأنا أنظر في عينيه أقول له: ابق معي قليلًا.

قال: عمري كله لك.

قلت: أعرف ليس أمامك حل آخر. إلى أين تهرب؟

قال: سأهرب إلى عينيك أختبئ فيهما منك.

أنظر إليه أبث في قلبه ألف قبلة ود وألف ألف عناق، أقول له بِوَلَه: عشقي يليق بك.

فجأة لقيته ينظر خلفي منفعلًا باسمًا ويقول: أهلًا ومرحبًا دكتور.

نظرت فإذا به أستاذ ناجي عز الدين، أستاذ «الجنائي». كان يعرف «خالد» ويعرفني ويحيى معرفة شخصية. تحدثنا إليه وسألنا عن حالنا وغادر. لا أدري، نظر إليّ خالد بتمعن وامتعاض كأنه يُكن له كرهًا، لكنه لم يقل شيئًا.

قلت: ما بك؟

قال: لا شيء، فقط يخيفني هذا الرجل.

قلت: بالعكس، أحبه جدًّا، هو لطيف معي دائمًا.

اشتد ضيق خالد وتصرف بغضب غير واضح لي وقتها، بدأت في القلق، فهو ما زال لا يحدثني عن الارتباط الرسمي، لا يقول لي متى سيحدث أبي، في هذا التوقيت كانت والدتي تلح عليّ طول الوقت أن أوافق على الارتباط ممن يتقدمون لي..

رغم خاطرها الذي أعلمه جيدًا، فهي تحب «خالد» وتتمناه زوجًا لي، لكنها تتعجب صمته حتى الآن.. رغم نجاحه في العمل مع يحيى، لكني كنت مقتنعة جدًّا أن أمامهما مسئوليات أقصى وعليّ أن أنتظر.

فاجأنا يحيى في هذا الوقت برغبته في الارتباط بنجوى، كانت سعادتي غامرة، وسعادة الأسرة كلها، لكن طلب يحيى جعلني أفكر لماذا لا يأخذ خالد موقفًا معي؟

وفي حفل عائلي بسيط تمت خطبة نجوى ويحيى، عائلة نجوى يبدو عليها الثراء والالتزام، ويبدو إعجاب شديد بأخي وتقدير لنا، هكذا التحفنا الأمل وجاورتنا السعادة، ورف غصن الرضا على حياتنا الصغيرة، وبقيت أنتظر سعادتي مع مَن أتمنى.

الفصل الرابع

بـين براثـن الحـسرة والوجـع تائهـة حائـرة، فاقـدة كل شيء، فقـط ظـل يتحـرك، يجـوب المـاضي ويـدور في حلقـات حـاضر مفـرط الوقاحـة، كل خطوبـه يـأس، وكل دروبـه سـوء.

قلبـي بـين الأنـين والحنـين يمـوت ويحيـا، بـين أول آهـة عشـق وأول آهـة وجـع يـئن، بـين فقـده واكتمالـه يتـوه، وعنـد ثـأره يتوقـف، عـلى قلبـي أن يثـأر مـن نفسـه، أن يقطـع خلايـاه ويشـق أوردتـه، عليـه أن يشـعل النـار في غرفـه المشـبعة بالعجـز، ويفقـد آخـر زهـو لـه في الحيـاة.

لا أدري أيـن أنـا، فقـط أنـا بالقـرب مـن أغـلى مَـن عرفـت، ومـن أكـثر مَـن كرهـت، أنـا الصريعـة القتيلـة التـي تتشـبث بوهـم البقـاء، كأني في معسـكر إعـداد وتأهيـل، لا أدري مسـماه الحقيقـي، مـكان كبـير لا هـو بمنـزل ولا هـو بقـصر، غـير مسـموح لي بالمـضي قدمًـا فيـه ولا تخطـي حواجـزي، كأني في بحـر لجـي عميـق، كل أموجـه تختلـف، لكنهـا تتفـق في كونهـا مرعبـة تثـير الهلـع، أسـمع صباحًـا أصواتًـا كأني في حـرب أو مسـتعمرة تدريبـات عسـكرية أو حربيـة، مـا عـدت أدري غـير أني أحيـا خوفًـا وقلقًـا، ينتابنـي طالمـا بقيـت دونـه، دون خالـد، أشـعر أني في آمـنِ مـكانٍ في الكـون حينـما يقـترب منـي مبتسـمًا.

مـر أسـبوع عـلى مجيئـي، لم أصـل لمعلومـات حقيقيـة إلى الآن، تحدثنـا قليـلًا؛ فهـو معظـم الوقـت مشـغول، لم يـصرح لي بطبيعـة انشـغاله، لكنـه وفـر لي كل وسـائل

الراحـة والهـدوء. كنـت أتجـول معظـم الوقـت في حديقتـه الكبـيرة جـدًّا، المنمقـة إلى أبعـد مـدى، فيهـا أنـواع نباتـات لم أرهـا مـن قبـل، بـل لم أسـمع بهـا.

شـدتني المسـاحة الواسـعة للحديقـة، وكأنهـا مجموعـة حدائـق، أو مزرعـة كبـيرة، فيهـا كل مـا يحتـاج الإنسـان، منطقـة خاصـة بالخـضروات، وأخـرى بالفواكـه، ونباتـات الظـل، والنباتـات العطريـة، وتلـك تحتـل أكـبر مـكان في المزرعـة إن صـح القـول، الحديقـة أو المزرعـة كأنهـا عـالم مسـتقل تمامًـا كأنهـا جنـة، خيـل لي أن هـذا المـكان الشاسـع قـد تقـوم عليـه صناعـات عـدة، يعمـل بـه الكثـيرون طـول اليـوم، أسـبوع كامـل وأنـا أطـوف بـين أروقتهـا الخارقـة الجـمال، وإلى الآن لم أبلـغ منتهاهـا، فالحديقـة فقـط هـي المـكان المسـموح لي بالتجـول فيـه.

في نهايـة ممـر لمحـت حظائـر للخيـل، سـمعت صوتهـا فمشـيت إلى هنـاك، وقفـت جـوار الخيـل مبهـورة بروعتهـا، لكنـي خشـيت طريـق الرجـوع، ربمـا تلتبـس عـليّ الطـرق والممـرات ولا أسـتطيع العـودة.

إلا أننـي بقيـت أسـيرة مسـتمتعة بجـمال الخيـل وهـدوء المـكان، وشـدني ذاك الصغـير، فـرس جميـل، ناعـم رقيـق يلعـب وينظـر لي، قربـت منـه ودخلـت أتلمـس روعتـه وجمالـه فزعنـي صـوت حينـما قـال: كنـت أعلـم أنـك سـتأتين إلى هنـا.

قلت مرتجفة: خالد!

قال: اهدئي، ألهذا الحد أفزعك صوتي!

قلت: لا، أبدًا، فقط كيف عرفت أنني هنا؟

قال: توقعت.

قلت: لم تتغير كثيرًا، غالبًا يغلب عليك الغموض.

قال: لا أريد أن أخرجك من حالتك تلك، لكن هذا الفرس كان لياسين.

انشطرت نصفين، ونظرت صوب الفرس أتلمسه وأشم فيه رائحة فقيدي، ألقيت رأسي عليه باكية أستجدي روح ياسين؛ فجذبني خالد بين ذراعيه، باكيًا، وقرب قلبه وجدت دفئي واستكانتي، واهتدى قلبي بعيدًا عن الفزع لحظات، لكني تذكرت فرجعت للخلف؛ لأرى دموع خالد التي تحمل صدقًا عهدته دائمًا.

قال: ياسين كان الفرحة الجميلة التي دخلت حياتي بعد سنوات الوحدة والألم، عندما علمت بحضوره إلى يحيى، كنا وقتها في سوريا، قطعت مسافة كبيرة إليه، كنت فرحًا وكأني أسترد بعد فراق، رأيته يجلس على المائدة يتناول إفطاره صباحًا مع يحيى، نظر لي نظرة عميقة ولم يتكلم، ابتسمت له وقلت: سأسلم عليك بعد أن أتناول فطوري معك. وجلست في مواجهته أنظر له وينظر لي، من يومها لم أتركه ولم يتركني، أكد لي حينها أنه أتى ليعمل دراسة عن الثورة السورية ويرى الأحداث عن قرب، وأيضًا لينضم «للمسعفين فإن لديه دراية طبية لا بأس بها» حتى يتسنى له عمل شيء في هذا الوضع المزري.

نظرت له وكل ما فيّ تائه في هذا العالم البعيد الذي بقي فيه ولدي بعيدًا عني، عن هذه اللحظات التي تنسم الكون فيها أنفاسه دوني. جذبني خالد من يدي، دعاني للجلوس تحت شجرة «السنديان».

كان مكانًا هادئًا وشاجنًا كما نفسي، الشجرة دائرية عريضة ومورقة، ظلالها تمتد حولنا حتى كادت تصدر موسيقى رقراقة، عندما تداعبها رياح نيسان، أو

ربما روح فقيدي، ربما حولي! علها حولي! ذائبة أنا في الوجد أشتهي ياسين، أفتقد إطلالته، تؤلمني غريزتي، الأمومة تتوه داخلي.

جلس خالد «القائد» كما كان يناديه الجميع، أمامي، كان متأثرًا جدًّا، مطلقًا لم يكن مدعيًا، كان مكلومًا مثلي، يتحدث عن ياسين بأسى ووجع.

قال: انتهينا من الطعام فقام وقمت، أتى إليّ، يحتضنني ويقول أعرفك، أسمع اسمك دائمًا من خالي يحيى ومن جدتي رحمها الله، ضمني بحب، وضممته بحنين عمر إليك، نفس رائحتك، وطريقتك في الكلام، مثقف عاقل، يعلم المستجدات في الأحداث السياسية، له روحك، متسامح فياض المشاعر، قوي متفائل، الغريب أني تركت كل مسئولياتي وبقيت معه أسبوعًا كاملًا، نتحدث ونلهو ونناقش القضايا الشائكة، وعند الطعام، تصوري أدخلني ابنك المطبخ أعد الطعام لنفسي. قال مبتسمًا: طالما نستطيع.. طالما نقدر فنحن أولى بخدمة أنفسنا، السيد هو من يقدر على خدمة نفسه وموالاة الجميع، كان يتحدث كأنك أمامي، نفس أفكارك وعقلك، وعندما هممت بالرحيل استأذن خاله وعاد معي، ما ربطني به، ربطه بي، لا تتخيلين العام الذي ظل فيه معي كأني أنا من أنجبته.

قلت وأنا أتلعثم: ولهذا صنته وحفظته لي!

قال: ما أنا به أكثر مما أنت فيه.

قلت: حدثني عنه أكثر.

قال: رغم سرية دوري ورغم خطورة مكانتي لكنه بقي معي في كل شيء أقوم به، يتابع أعمالي ويناقش القضايا، حتى تعرف عليه كل من انضم لنا وأصبح

الجميع حوله يدللونه كما أدلّله، كانت مكانته تفوق مكانتي، كان عاقلًا وهادئ الطبع، تغيرت الحياة معي بوجوده، كانت تغار منه نسائي.

قلت: نساؤك... ماذا تقول؟

ضحك قائلًا: نعم، كنت أتزوج في كل مكان أذهب إليه، لكني لم أنجب.

قلت: ألهذا الحد تتلاعبون بالدين والشرع؟!

نظر متضايقًا قائلًا: أنا لم أتعدّ الشرع قطُّ.

قلت: كيف وأنت تتحدث عن نساء بلا عدد؟

قال: نساء في إطار الشرع.

قلت: كيف والشرع قيد أمثالك بعدد؟!

نظر نظرة ضيق وامتعاض قائلًا: ماذا تقصدين بأمثالي؟

تلعثمت وقلت: أبدًا لا أقصد شيئًا أو تقليلًا، فقط أقصد قائدًا رحالًا مثلك يتحمل هم الأمة، له أهداف عظمى ليس كأي بشر!

نظر لي باسمًا وقال: أنت لم تتغيري، أنت كما أنت، أنا لا أستطيع أن أغضب منك أبدًا، وأعلم أنك لا تدركين وضعي ولا تعرفين غايتي.

قلت: ومَن يعرفك إن لم أعرفك أنا! منذ خلقت لا تبحث إلا عن القيادة، قيادة الأمة، ألا تذكر، حينما قلت لي زوجتي ستكون السيدة الأولى زوجة الزعيم، أتذكر؟

قال: نعم أذكر، لم أنس أي شيء كان بيننا، حتى إني أتذكر جيدًا كيف ارتبطتِ

بالأستاذ صاحب المنصب والسلطة والمال وتركتِني بلا رحمة.

ارتجفت وقلت: لمَ الحديث عن هذا الآن؟

قال: وعدتِني أن تردي على تساؤلاتي، عشت عمري كله أبحث عن إجابة لسؤالي، حتى إني حاولت أن أبحث عن إجابة لسؤالي عند ياسين.

نظرت متفاجئة قائلة: ماذا تقول؟ ياسين! أكان ياسين يعلم ما بيننا؟

قال: نعم، لم أستطع منع نفسي من التحدث إليه، كان صديقي وابني وأقرب الناس إلى نفسي، كنت أعد كل شيء حتى أهبه كل ما أملك، حتى مكانتي.

صرخت قائلة: كفى، اصمت، أنت من قتلته وأوقعته في شراك الفتنة، ابني كان أعقل من أن يموت في عملية إرهابية، كيف غيرت عقله، أفكاره الراقية، سموه الإنساني، كيف أقنعته أن يشارك في عملية حقيرة؟

قال: ماذا تقولين؟ من قال لك هذه الأفكار؟ هذه ليست الحقيقة!

قلت: وأين الحقيقة؟ كيف فقدت ابني إذن؟

استطردت قائلة: مطلقًا ابني ليس إرهابيًا، ابني أنقى البشر وأسمى العقول.

قال: اهدئي، واضح أنهم سمموا أفكارك، ياسين لم يشترك قطّ في أي عملية، وكان يقنعني بالتخلي عن دوري ومشاركتي لجيش النصرة الذي يحارب داعش والنظام، كان يقول إننا مسلمون، يجمعنا أسمى الأديان السماوية، نعود لمائدة التفاوض، بعيدًا عن الحرب والدمار، كان يدعو كل من حولي للعدول عن الحرب، كان يقول أي شيء إلا الحرب، لكنه بعد عام من محاولته تغير فكر كل مَن يراه

ومساعدته المكلومين في سوريا، قضى آخر لحظات في عمره في أسمى ما يمكن أن تنتهي به حياة التوفيق بين البشر وازدراء الفتن، تقريب الفكر ومساعدة المحتاج والرأفة بالمكلوم والمشرد، لا تتخيلين، أحتاج أعوامًا حتى أحكي لك تفاصيل الخير الذي قدمه للبشرية، كان وسط الخطر لا يخشى شيئًا، في عمليات الإغاثة الممتدة في كل أماكن الحرب.

وفي النهاية علم من مصادر سرية أن عملية كبيرة ستحدث في سيناء، لقد كان قريبًا في هذا الوقت من المصادر السرية فقد حظي على ثقة الجميع بسبب قربه مني، كان قد بدأ مناقشات موسعة، وجمع كتبًا في السيرة والفقه، وحصل على أبحاث في الإنسانية، كان نشيطًا وله صداقات على النت من كل أنحاء العالم، ساعدوه في العصور على ما أراد، كان يحدثني عن لقاءاته الفكرية والمجموعات المنتقاة التي تتبني نفس أفكاره، كان يطرح القضية للرأي والرأي الآخر، حتى يصل إلى أبعاد عميقة للفكرة أو القضية، كنت مبهورًا به، وبدأ بالفعل في تغيير رأيي في بعض المسائل الفقهية، بدأت أتحرر على يديه من قيود كانت تخنقني، وكنت أذكرك سرًا كيف ربيت هذا الشاب، هذا الخلوق، كنت أندم كل يوم أني لم أحاربك حتى أحظى بك، ربما كانت الحياة تسير في اتجاه آخر، ربما كنت اهتممت بأمر الإنجاب وسعيت له، خسارتك خسارة عمر يا ليلي.

نظرت إليه وقد أخذني الحديث حول ياسين إلى عوالم أخرى، رفت روحه على قلبي وكأنه عاد لتوه من رحلة، يقتلع أشياءه بخاطري ويتنمق ليأتي لنجلس معًا، أشم عطره الآن، أرى ألوان ملابسه وذاك «اللاب توب» المحمول في حقيبته والمعلق في رقبته طوال الوقت، أحذيته، كوب النسكافيه الذي يمسكه في يده أينما

حـل، ابتسـامته، حتـى نحافتـه والخفـة في منطقـه، وفي سـطوته، أوراقـه تتطايـر أمامـي الآن، وهـو يجـري وراءهـا، هـو هكـذا، هنـاك في الجنـة يقـرأ..

نظـر لي خالـد بعـد وقـت مـن الصمـت، قائـلًا: لا أحـد في الكـون يشـعر ألمـك مثـلي، ولا يقـدر حجـم خسـارتك إلا أنـا؛ فأنـا أحيـا نفـس الفقـد وأعـاني هـول الخسـارة.

قلت له: لو أمكن أكمل لي.

قال: نكمل غدا فأنا مرتبط بمواعيد، أعدك بوقت كل يوم

قلت: تذكر أنك وعدت.

وكان الغـروب قـد اجتـاح الكـون، وخيمـت حمـرة الشـمس عـلى المـكان حتـى كادت تحـترق. ضـم الفضـاء الفسـيح، أجنحـة سـوداء، كادت توقـف أنفـاس الكـون لحظـات، لكـن مـا لبثـت أن عـاد النسـيم مـن جديـد يحـرك أوراق الشـجر الغضـة، ويسـاوم السـكون الموحـش، ليبعـث في الكـون رحمـة تذكـرني أنـه لي، ياسـين لي، عندمـا أفـارق الكـون الموحـش إلى دار أبقـى.

وجـدت عربـة صغـيرة تتوقـف أمامنـا، كيـف وصلـت إلى هنـا لسـت أدري، الملفـت أن «خالـد» لم يبـد أي إشـارة لاسـتقدامها، ركبـت إلى جـواره متعجبـة حتـى خيـل لي أنـه ينهـي حديثـه معـي بالثانيـة في الوقـت المحـدد مسـبقًا، أصابنـي الأمـر بذهـول وقلـق، سـألني مـا بـك، التفـت قائلـة: لا أبـدًا، فقـط كنـت أحمـل هـم الوصـول.

قال: وأنت معي لا تحملي هم شيء أبدًا.

في المسـاء كنـت في حجـرتي التـي تشـبه الحجـرات الملكيـة، السريـر ينتصـف الحجـرة أصعـد لـه بدرجتـين مـن الرخـام، سريـر أثـري لـه أعمـدة، عليـه أغطيـة وملاءات قيمـة

جـدًّا، أمامـه مقعـد طويـل، «شـيزلونج» ذهبـي اللـون والفـرش، في مقابـل السريـر مـرآة مـن الخشـب، ذات لـون ذهبـي مزخرفـة بزخـارف مـن أروع الزخـارف الإسـلامية.. في الحائـط خزينـة الملابـس، قـد لا تجدهـا بسـهولة فعـلى الجـدران رسـومات متشـابهة.

حجـرة مصممـة لملكـة ليسـت لامـرأة مثـلي، في الوسـط صالـون فخـم، لونـه بـين درجـات الذهبـي والأحمـر القـاني، هـي تـروق لي جـدًّا وكأني سـكنتها قبـل أن أبعـث في هـذا الكـون، لسـت أدري، أعيـش منـذ مجيئـي إلى هـذا القـصر وكأني في حلـم، أو أتنـزه في سـماوات لم تطأهـا قـدم، لا حقيقـة ثابتـة ولا أمـر واضـح، مـن المـدان ومـن الدائـن، مـن المخطـئ ومـن الصائـب؟ ومـاذا هـذا الشـغف الـذي يحـرك فيّ المـاضي... ومـاذا عـن التفاصيـل التـي لم أعرفهـا بعـد؟!

طرق الباب، قلت: من الطارق؟

سمعت صوتًا نسائيًا يقول: افتحي الباب أريدك في أمر هام.

إنهـا هـي، تلـك المـرأة التـي اصطحبتنـي إلى هنـا، نعـم أنـا أعـرف عينيهـا جـدًّا وصوتهـا القـوي، خلعـت عباءتهـا إذ هـي بكامـل زينتهـا، لا أدري لمـاذا؟

قلـت: تفضـلي. جلسـنا في الصالـون في منتصـف الحجـرة، بقيـت أنظـر لهـا بخـوف، هـي أكـثر منـي طـولًا، ملامحهـا ليسـت رقيقـة، شـعرها أسـود طويـل يبـدو أنهـا صبغـت بعـض خصـلات أماميـة بالأصفـر الفاتـح فـزادت نشـازًا، تنظـر لي بامتعـاض قائلـة: بقـاؤك هنـا أكـثر لـه شروط!

تعجبت وقلت: من أنت حتى تحدثيني هكذا؟

قالت: أنا من أدير هذا المكان، لا تتخطي حدودك!

قلت: ماذا تريدين؟

قالت: تجلسين مع القائد فترات طويلة وقد تسبب هذا في كلام وأحاديث لم تُقل لكني لاحظتها في عيون الجميع، لكن اطمئني لا يجرؤ أحد على التفوه بحرف. لكني معك نبحث عن حل.

قلت: لا أفهم، ماذا تريدين؟

قالت: بالأمس طلق القائد إحدى زوجاته، وهذا من حسن حظك، أقترح أن تتزوجا.

لا أدري غير أني نظرت أمامي وأنا في قمة الانفعال، لم أجد إلا كوب ماء على المنضدة الصغيرة فمسكته بغضب وسكبته في وجهها، ويا ليتني ما فعلت! نظرت لي كأن عينًا من جهنم فتحت في وجهي، وقفت مقتربة مني، كادت تؤذيني، يبدو أنها أدركت شيئًا جعلها تتراجع، وأنا أبتعد للوراء بخوف، تتصاعد أنفاسي وتهبط، أدارت وجهها وهمت بالخروج، لكنها عادت تنظر إليّ وأنا كالقرفصاء في جانب المقعد الكبير أرتعد.

قالت: في عرف هذا المكان هذا الوضع لا يصح، بقاؤك هنا مستحيل، القائد ليس بمفرده، إنها منظمة، مؤسسة لها منطق ومبدأ لن تغيره مثلك أبدًا. أنصحك، القائد نفسه لا يستطيع حمايتك، أنتظر ردك غدًا في نفس الموعد.

وخرجت، وتركتني لا أستطيع التفكير، كلمتها الأخيرة ترن في أذني، «القائد لا يستطيع حمايتك». كيف وهو القائد؟

تعجبت وسألت نفسي، أين أنا؟ ومع مَن؟ وماذا أفعل؟ ماذا أفعل وسط كل

هـذا الحشـد المتـواري خلـف القائـد، مَـن هـؤلاء الذيـن يحتلـون الظـلام ويجتاحـون الغيـوم؛ فتبـدو وجوههـم سـوداء، كأنهـم خلـق آخـر!

نعـم إنهـم كذلـك، وحتـى يذوبـون في واقعنـا يضعـون أمامهـم صـورًا أقـرب إلى أذهاننـا مـن مجهولهـم، يضغطـون عـلى أوتـار قلوبنـا بهـم. يتوغلـون أكـثر في دروب السياسـة وعقـول الساسـة وتدابـير الأوطـان، يقومـون بتغليـف المصائـر بشـهادات القـدر المـزورة، يسـحبون مـن أرواح قرنائنـا ودائـع، ظنًـا منهـم أنهـم يتقنـون تحويـل أنفسـهم إذا احتـدم الأمـر. يظنـون خطـأً أنهـم يسـتطيعون خـداع الكـون!

الفصل الخامس

ليـلًا كنـت أخطـف مـن السـماء نجـمات أعتـق بهـا ثـوب زفـافي اللامـع في حلمـي، السـواد الحالـك لا يقهـرني طالمـا بـتُّ في اطمئنـاني. أنتظـر، اقـتراب خالـد مـن أخـي جعلنـي لا أقلـق، أعـد أشـيائي كـما لـو كنـت أعيـش فـترة مؤقتـة مـن حيـاتي، فـترة اجتيـاز، فـترة انتقاليـة..

وحتـى أبقـى عـلى قيـد الأمـل أكـثر اشـترى خالـد ويحيـى شـقتين جـوار المكتبـة، دفعـا جـزءًا كبـيرًا مـن ثمنهـا ثـم تـم تقسـيط الباقـي عـلى فـترة بسـيطة، طلـب خالـد مـن يحيـى أن أذهـب لأختـار مـا يناسـبني، تزينـت.. ارتديـت أجمـل ثيـابي، وذهبـت مـع يحيـى وكانـت نجـوى معنـا.

يومهـا لقيتـه بشـوق واحتيـاج وهـو أيضًـا كانـت نظراتـه مختلفـة تمامًـا، بـين يديـه نعسـت يـدي وفي عينيـه سـكنت عينـي، لم أعـد ولم يعـد يطيـق أن يخفـي، كنـت لأول مـرة أشـعر نـار شـوقه وأعلـم أنهـا وصلـت لهـذا الحـد، اسـتأذن مـن أخـي وأخـذني إلى الطابـق الخامـس، قـال أنـه يحـب أن يكـون قريبًـا مـن السـحب، قلـت لـه وأنـا أيضًـا أحـب أن أكـون قريبـة مـن الفـراغ الكـوني الكبـير؛ لأني أرى فيـه انشـغالًا آخـر، نظـر إليّ متعجبًـا:

- كيف في الفراغ تنشغلين؟

- أرواحنا فراغ كبير وكل ما هو فراغ ممتلئ!

- ممتلئ! كيف؟

- نحـن كقطـع الشـطرنج نحيـا حالـة وتنتهـي ولا يبقـى إلا الفـراغ، ومـا يحـوي مـن غمـوض وحقائـق لـن تكتشـف بعـد، بسـطاء نحـن حتـى ننشـغل بالزائـل، بالقشـور، والفـراغ حولنـا يحـوي الدسـم كلـه.

- الدسم! ما هذه التشبيهات الغريبة يا ليلى!

- صدقنـي هـي الحقيقـة التـي نتغافـل عنهـا، الكـون مسـار جـذب للعقـلاء، جبلـت أرواحنـا عـلى الحبـو، نسـكن الشـغف الـذي يجرنـا إلى مـا خلقنـا لـه، ونتحسـس اللوعـة لأنّـا بـشر مقيـدون بطبائـع قـاصرة وغرائـز فجـة، الخـروج عـن المألـوف وصمـة عـار، إذا مـا تداولتـه الأعـراف وقيدتـه العقائـد.

- ليلى، منذ متى وأنت تعبثين في الفلسفة؟

- أبدًا، هي ليست فلسفة، هي قناعة خاصة!

- وأنا، هل تريننني في الفراغ الكوني الذي تعشقين؟

- بل أنت البراح الكبير الذي يسكنني.

- وأنا أحبك.

- غريبة، منذ كثير لم أسمع منك تلك الحروف!

- أقولها في كل لحظة لكني كنت أخشى أن أكون أقل منها.

- كيـف تجـرأت عـلى قـول مـا تقـول، أنـا بعـض مـن روحـك خـارج إطـارك، ولا أملـك إلا البقـاء في دربـك.

- عديني ألا نفترق!

- أعدك أن أبقى طالما أردت، أنت تبتعد كثيرًا، تشغلك الحياة أكثر مني.

- بل تشغلني الحياة لأجلك.

اقترب مني لأول مرة واضعًا كفه الدافئ على خدي المرتعد؛ فأغمضت عيني تائهة في رحلة كونية أخرى بين أحضانه، كنت أتساقط من فوق سماوات أخشى ارتطامي وتمزقي بين أذرعه. كادت أنفاسي تتوقف وأنا أعبر تلك المسافات بين الواقع والحقيقة.

في الرحلة.. كنت أشم عبق أنفاسه وطيب روحه، وأخبئ وجهي عميقًا بين جوانحه، وألوذ ببردي فوق ساعديه، وألتحف عشقه الدافئ جدًّا. ونسيت أني في الدنيا، لولا رنة الهاتف التي أيقظتني. ابتعدت ونظر لي كأنه استنكر ابتعادي، قال مرتجفًا: إنه يحيى، ربما يتعجلنا.

لم أتكلم فأنا ما زلت أرتجف، دقاتي تحاربني وتعلو أكثر فأكثر. اقترب مرة أخرى فابتعدت أنا، هاربة من أجمل رحلات عمري تلك التي أخشى لو أني أخسر فيها كل أسلحتي، أدرت ظهري أحاول الهروب فجذبني إليه.. نظرت إليه مستنكرة! قال: أحبك، أنت لي، ابقي جواري.

- سأبقى... فقط اتركني الآن.

قبلني فوق جبيني وقبلته عيني ورحلت مسرعة. كنت ألقي نفسي فوق الدرج بسرعة فائقة، وهو يقول لي: انتظري.

نظرت إليه وهو ضاحك من سوء حالي، قابلنا يحيى ونجوى أسفل البرج، وذهبنا إلى مكان هادئ جوار النيل، بقينا اليوم هناك، الكل يتعجب صمتي

وأتعلل بالصداع المفاجئ. بقي ينظر لي بلطف وحنان وأنا أقتنص نظرات شوق خجلة.

عدت إلى فراشي، أحدث نفسي، كيف قالوا إن الجنة ليست على الأرض؟ كيف؟ وأنا طوفت في رحابها، وتذوقت حلوها، ونعست فوق فراشها الوثير. بكيت على فراشي؛ فالقدر عاد بي أدراجي دون صدره، وكأني عدت دون غطائي، أشعر بالبرد، فأنام كالقرفصاء أتدثر بلحظاتي معه، أتعجب لِمَ نفترق!

وأنا أقصى ما أتمناه روحه معي، كيف أستطيع تمرير الأيام دونه؟! بالخارج أمي تنادي: يا ليلى... ليلى، ارفعي سماعة الهاتف، خالد على التليفون.

أقوم أجري لاهثة، يأتي صوته رخيمًا جميلًا شاجنًا يقول: اشتقتك... كيف حالك؟

بدمعي الساقط بلا توقف أرد فلا يسمع سوى ارتطام الدمع بخدي، وتفضحني أنفاسي المتواترة.

- ماذا بك ليلى؟ ربما تسببت لك بضيق؟

- لا، أبدًا، تسببت لي بصحوة.. إفاقة على حقيقتي المرة.

- ماذا؟

- كنت أعلم أني بدونك ينقصني الكثير، لكني الآن علمت أني بدونك لا شيء.

- حبيبتي... أعلم أننا شيء واحد وهذا ما يمزقني.

- لماذا تتمزق، لماذا تحمل نفسك أكثر ما تحتمل، لماذا لا نبقى معًا، ولِمَ أنا

الآن بمفـردي دونـك؟ ومـاذا تنتظـر؟

- لا شيء، فقط أعد الحياة لأجلك.

- لا أريد شيئًا، أريدك، أنت وفقط.

- أنت فرحتهم الوحيدة يا ليلى، أريد أن أليق بك.

- بل أنت أكثر مما أتمنى.

- أعدك قريبًا جدًّا سنكون معًا.

ابتسمت... وعدت أكمل في الأحلام فرحتي. صباحًا، جاء صوت أمي كحلم:

- ليلى، أفيقي لِمَ كل هذا الكسل؟!

- كم الساعة؟

- العـاشرة، قومـي لتعـدي لي الإفطـار، خـرج والـدك باكـرًا في زيـارة سريعـة لـشراء قطعـة أرض هـو وجـمال.

- لا أدري لمـاذا تـصرون عـلى شراء الأرض؟ لقـد تعـب أبي، لم يعـد حمـل الحقـل، وخالـد بالمكتبـة، وجـمال في عملـه وحمـزة بالمدرسـة.

- يقـول والـدك أنـه سـيترك زمـام الحقـل لحمـزة؛ لأنـه لا يبـدي اسـتعدادًا ولا تقدمًـا دراسيًا.

- ربما، لا أحد يعلم الغيب.

- ما صوت هذا التكسير، ماذا بك اليوم؟

- أبدًا، فقط سقط الكوب.

قربت مني، قائلة: ماذا بك؟ ما الذي حدث أمس مع خالد؟

رددت مرتعدة: لا شيء.

- منذ الأمس وأنا ألحظك، اخترتِ الشقة؟

أومأت برأسي قائلة: نعم.. شقة جميلة في الدور الخامس، هادئة «منها للسما، كل أجزاءها بتبص للسما»

قبلتني وقالت منتشية: «ألف مبروك حبيبتي». ثم قالت: يا رب!

قلت سترتاحين قريبًا يا أمي لا تقلقي، سيأتي قريبًا.

- هيا سريعًا، «فطار حلو من إيدك الجميلة عشان الأخبار الحلوة دي».

- حالًا سأعد فطيرًا فلاحيًا طازجًا.

وصنعنا الفطائر، واتصلت أمي بيحيى تدعوه لتناول الفطير معنا، وأكدت عليه أن يحضر معه «خالد».

عند العصر أقبلا وأبي وإخوتي تجمعوا جميعًا، نضحك ونأكل، وأسرق من حبيبي نظرات خلسة، ويقذف لي بقبل سرية جدًّا، أتقبلها بخجل، ويعود وأعود إلى حجرتي أنتظر.

يبدو خالد لي كأنه أحد أفراد أسرتي، فهو منذ الأزل بيننا، منذ أن تعرف على يحيى في إحدى مسابقات المحافظ أثناء المدرسة الابتدائية، من يومها لم ينفصلا، كل أسرتي تقدره وتحبه، وجوده بيننا ليس غريبًا، بل من الطبيعي جدًّا أن يكون

بيننا.

دق الباب، قلت: من الطارق؟ أريد أن أنام.

وكعادته حمزة أخي الصغير المدلل، في الصف الثالث الإعدادي، جاءني يزوم.. عراك جمال الدائم معه، قلت له: تعال يا حمزة، ماذا حدث؟

- كالعادة جمال لا يتركني بحالي أبدًا. كل يوم ذاكر ذاكر، أنا حر في حياتي.

- اهدأ، كلنا نتمنى لك الخير.

- أنا لا أحب المذاكرة، اتركوني وشأني.

- كيف نتركك وشأنك؟ أنت جزء مهم فينا، نريدك أفضل منا.. لا تتضايق من جمال أبدًا.. جمال يحبك.

- جمال يحب نفسه، يحب منصبه، يحترم الشكل الاجتماعي جدًّا، صدقيني يا ليلى بالضبط هذه هي أسباب ثورته.

- لا تظلم أخاك، هو يريدك في أحسن الأحوال.

- قولي له يدعني وشأني.. دعوني وشأني، كلٌّ منا يعيش الحياة كما يحب ويتمنى.

مرت الشهور سريعًا، لكنها كانت أجمل سنين عمري، بقيت أتحدث إلى خالد يوميًا، ونلتقي كلما سمحت الظروف، تغيرت حالته النفسية إلى الأحسن بعد تحسن وضعه المادي، وقفته إلى جوار إخوته أشعرته بوجوده وقيمته، أيضًا هو أصبح يمتلك وضعًا معقولًا لا يحتاج فيه لأحد.

بـدأ يشـعر بذاتـه أكـثر ويقـترب مـن اللـه أكـثر، فرحًـا بمـا أخلفتـه عليـه الأيـام، وجـودي إلى جانبـه وحديثنـا اليومـي جعلـه منفتحًـا عـلى الحيـاة، لكنـه لا يكـف عـن قـراءة الكتـب السياسـية، حتـى صـار كل حديثـه في السياسـة والأنظمـة العربيـة، والواقـع الـدولي والأعـراف والمواثيـق، حتـى إن المكتبـة كانـت تشـبه الوكـر السـياسي.

وكان التفـاف الجميـع خاصـةً شـباب الجامعـة حـول يحيـى وخالـد قـد جعـل المكتبـة في أوج ازدهارهـا. ثـم جـاء نجـاح حمـزة في الشـهادة الإعداديـة، بمجمـوع ضئيـل لكـن «جـمال» أصر أن يكمـل في التعليـم الثانـوي، وكأن حمـزة يتحـدى «جـمال»، حدثـت مشـاجرات كثـيرة بينهـما، وفي النهايـة اسـتطعت التدخـل وإقنـاع حمـزة بدخول المرحلـة الثانويـة، رغـم تبريـره الدائـم أنـه لا يحـب المذاكـرة ولا يقـوى عليهـا.

بقـي أبي مسـالمًا لا يقبـل أن يضغـط عـلى حمـزة فقـد كان شـديد التعلـق بـه وحمـزة أيضًـا، لكـن سـطوة جـمال وعصبيتـه الشـديدة كانـت سـببًا هامًـا جـدًّا في أن يفعـل مـا أراد.

حتـى يحيـى كان ينشـغل بالإعـداد لزواجـه فلقـد تـم عقـد قرانـه، وتـم تحديـد موعـد الزفـاف بعـد أشـهر قليلـة حينـما ينتهـي مـن التشـطيبات النهائيـة للشـقة.

نجـوى إنسـانة عطوفـة ومحترمـة، متدينـة، تحبهـا أمـي جـدًّا، تـأتي نجـوى لزيارتنـا كل فـترة، تبقـى معـي اليـوم بأكملـه، تعـرف كل تفاصيـل قصتـي مـع خالـد، وتتحـدث مـع أخـي عنـا، تحـكي لي التعلـق الشـديد الـذي يربـط «خالـد» بيحيـى، تقـول: أحيانًـا أغـار منـه!

والدهـا رجـل محـترم، أسـتاذ في كليـة الزراعـة، يهتـم بشـأن النباتـات الطبيـة

والعطرية، عندها حديقة كبيرة، أسرتني جدًّا في المرات القلائل التي ذهبت فيها لزيارتها، طول الوقت أقضيه في الحديقة، النباتات الموجودة بالحديقة أول مرة أراها، أسماؤها غريبة، يقول والدها إنها بذور مستوردة نادرة لا أحد يستطيع الحصول عليها بسهولة.

ولقيت هناك بعض النباتات التي أعشقها مثل الياسمين والورد البلدي والريحان، قال لي والدها على أسماء بعض من النباتات العطرية والطبية المميزة، لم تحتفظ ذاكرتي منها سوى بالقليل مثل الديجيتالس، والدفلة، وهي نباتات منشطة للقلب.

أيضًا الخردل الأسود، والكراوية والنعناع والزعتر والكافور، وهذه نباتات طبية وعطرية في نفس الوقت، أشار لي على الزنبق، كم هو جميل! ورد الحديقة.. والجاردينيا، وسمى بعض النباتات الرائعة لكنها غريبة هنا مثل الفاوانيا والبورونيا، وتحدث كثيرًا عن العملية الطبية والجمالية لهذه النباتات.

تعجبت من هذا الرجل، سألته عن أهمية التعمق في هذا المجال، أهي موهبة أم شغف؟

تحدث أن قدماء المصريين كانوا ينقعون الأعشاب ذات الروائح الزكية والرّانتج في مزيج من الماء والزيت، ثم يدهنون أجسامهم به، وعكفوا على حفظ جثث موتاهم وتحنيطهم بهذا المزيج، وكان الناس قديمًا يحرقون الرّانتج بوصفه بخورًا، في الاحتفالات والطقوس الدينية، وقد تعلم الإغريق والرومان صناعة تحضير العطور من المصريين، وظلت هذه الصناعة لمئات السنين فنًا شرفيًا خالصًا.

الفصل السادس

حد الحلم

وحينـما ارتـدى الفـرح ثوبًـا أبيـض، وقدمـوه ليتزيـن حتـى يُحتفـى بـه، أسـقطت السـماء كل غيماتهـا، وتهاطلـت في الأفـق كل مـآسي الحيـاة، وتلحـف الفـراغ الكـوني بعتمـة، وكلـما اخترقـت روحـي بقـاع البقـاء المعتمـة، اشـتد صـدري اختناقًـا، واحتالـت عـلى نفـسي كل معانـاة ذاك «الحـي في قـبر مغلـق».

فبـتُّ أتضـور ألمًـا، وأحتـسي بقايـا صـبرٍ لا تمكننـي مـن صلـب ظهـري. عينـاي لا تريـان إلا الأسـود وحـول جفـوني قبـع اليـأس واستسـلم، الشـمس مـن شرفتـي لم تعـد تـشرق، فـودع الـدفء فـراشي، وانتَحلـتُ مـن كثـف الفـرش دفئًـا مسـتعارًا لا يكفـي.

انعـكاس الظـل الدائـم عـلى أسـقف منـزلي، صـدع مـا تبقـى مـن خلايـا جسـد نهـل منـه العمـر مـا نهـل، وبقينـا ننتعـل الرطوبـة والعفـن حتـى وهنّـا فـردًا فـردًا.

قالـوا ربمـا في هـدم البيـت. حـل منطقـي معقـول، تُعقـد عـلى الهـدم آمـال فـكأن كل بقـاع الكـون هاجرتهـا الشـمس، وجفاهـا النـور، وعاداهـا الفجـر، بعـد هـذا اليـوم الكئيـب الـذي اجتاحـت فيـه قـوات الأمـن المكتبـة، وألقـوا كل مـا فيهـا عـلى الأرض بـين مـا هـو مقطـع ومتهالـك، وبـين مـا تدنـس تحـت أقدامهـم القـذرة، وبعـد أن دمـروا المـكان وخربـوا المخـازن، اصطحبـوا أخـي و«خالـد» معهـم لا نـدري إلى أيـن.

كل مـا يمكـن فعلـه فعلنـاه، طرقنـا كل الأبـواب، لعقنـا الأقـدام، وطأطأنـا الـرأس،

لـكل مـن لا يسـتحق، الـكل يتعـالى حينـما يعـرف أن التهمـة سياسـية، منهـم مـن قـال ليتـه كان سـارقًا أو قاتـلًا ربمـا كنـا نسـتطيع مسـاعدته.

وصـل أخـي جـمال لأعـلى المسـتويات القياديـة، بحكـم مكانتـه، لكـن لا سـبيل للوصـول حتـى لمعرفـة مكانـه، والأصعـب مـن ذلـك هـو مـا حـدث لجـمال، جـاء قـرار بإيقافـه عـن العمـل لحـين الانتهـاء مـن التحقيقـات. كان الخـبر فاجعـة أخـرى لنـا، ثـار جـمال ثـورة لا مثيـل لهـا سـابًّا «يحيـى وخالـد»، وأفكارهـما التـي سـممت الشـباب عـلى حـد قولـه.

وكنـت مـع أمـي طـول الوقـت، أتقاسـم معهـا الدمـع، وأحمـل معهـا مـا يثقـل كاهـلي، ويدمـر الباقـي منـي. عـلى قيـد انهيـاري بقيـت أنتظـر وأتذكـر مقتـل الأمـل في قلبـي، أسـد بيـدي ذاك النـزف الـذي يعـبر أجـزائي، أرمـم انكسـاراتي حتـى أسـتطيع تقديـم المسـاعدة لهـم.

واكتشـفت مـدى ضعفـي، وأني وإن كنـت قويـة فقـط كنـت قويـة بهـما، بأخـي وحبيبـي.. الدنيـا خـارج إطارهـما نـار لا تكـف اشـتعالًا، ضوضـاء لا تكـف ضجيجًـا، وذهبـت أتكـئ عـلى وهنـي لأبقـى جـوار زوجـة أخـي التـي أخـذوا زوجهـا اليـوم الرابـع لعرسـها، في الطريـق كأن الهـواء يلسـعني والذكـرى أمـام البيـت تصفعنـي بشـدة فأبـكي بصـوتٍ عـالٍ لا أبـالي البـشر حـولي، وأصعـد السـلم فيأخـذني الحنـين إلى شـقتي، بيـت أحلامـي؛ فصعـدت الخامـس، وعندمـا لمسـت البـاب تذكـرت الخطـاب الأخـير، والمفتـاح الصغـير بداخلـه، جذبـت المفتـاح، وقمـت بفتـح البـاب.

قُبضـت روحـي عندمـا لم أجـده، فقـط بعـض مـن الأواني وأدوات الطـلاء التـي تمـلأ المـكان، وأخرجـت خطابـه الأخـير لي، قبـل أيـام قلائـل مـن إلقـاء القبـض عليـه،

أعـدت قـراءة الخطـاب مـرات هنـاك جـوار الشرفـة التـي احتضننـي خلفهـا، حدثنـي في الخطـاب عـن أنـه اختـار أفضـل مهنـدسي الديكـور والأثـاث المنـزلي وأنـه سـيعد لي شـقة تليـق بي، وتكـون مفاجـأة للجميـع، حـكى لي أنـه قـال لزوجـة أبيـه وإخوتـه عنـي، واتصـل بخالتـه في المنيـا حتـى تـأتي معـه لخطبتـي..

أذكـر أن الخطـاب أخرسـني سـاعتها، وزغـردت أمـي وضحكـت مـن قلبهـا. وبعدهـا لقيتـه في القاعـة في حفـل زفـاف أخـي، كان يرتـدي بدلـة سـوداء وقميصًـا أبيـض، بـدا كأنـه العريـس، في يـده اليـسرى يرتـدي سـاعتي السـوداء هديتـي لـه، عطـره أنسـاني أنـه زفـاف أخـي.

أقبـل عـليّ، أخـذ بيـدي أمـام الجميـع لم يخـش أحـدًا قـطّ؛ فلقـد كان الجميـع يعـي أنهـا أيـام وتتـم خطبتنـا، حتـى إننـي نظـرت في وجـه أبي مرتجفـة، وجدتـه يضحـك لي، ونظـر خالـد لأبي وهـز لـه رأسـه فابتسـم أبي، ووضعـت يـدي تحـت ذراع خالـد أمـام الجميـع وأنـا أرتعـد وأخـشى السـقوط، لقـد كنـت أرتـدي ثوبًـا عنبريًـا مـن الحريـر المزركـش، وحـذاءً عاليًـا، وأحمـل حقيبـة مـن اللـون البنفسـجي اللامـع. عندمـا دخلـت القاعـة نظـر الجميـع لي كأننـي العـروس.

أجلسـني خالـد جـوار والـدتي وسـلم عليهـا، وجدتـه بعدهـا واقفًـا جـوار أبي، كان حفـل العمـر، السـعادة تهتـف باسـمي طـول الوقـت. وأمـي تراقـص العـروس والعريس، حمـزة بقـي يغنـي طـول الحفـل والجميـع يصفـق لـه، والـدة العـروس قربـت جـوار أذني تقـول مـبروك. نظـر ت لهـا باسـمة، عينـي طـول الحفلـة عليـه، وهـو أيضًـا لم ينتبـه سـوى لي...

وكان هـذا آخـر عهـدي بـه، وكأني سـقطت مـن السـماء إلى الأرض دون تنبيـه أو

إنـذار، ففقـدت في السـقطة نفـسي، وتجولـت في الشـقة، وكانـت روحـه معـي، صوتـه وهـو يصـف لي كل حجـرة كان في أذني ولا أدري مـن أيـن ينبـع الدمـع الـذي لا يجـف مـن يـوم فراقـه..

كان عـليّ النـزول إلى شـقة أخـي، هزيمـة عمـري بأكملهـا، أخـي ذاك الـذي عنـد كل فـرح يُقهـر، وعنـد كل عطـاء يخـسر، يتحايـل عـلى السـعادة فتضـن عليـه الحيـاة بهـا. فتحـت نجـوى البـاب، لقـد كانـت تنتظـرني، احتضنتنـي باكيـة، وأكملـت أنـا نحيبهـا، عندمـا شـاهدت الشـقة وقـد حـرم أخـي منهـا في أول أيـام لـه فيهـا.

باتـت نجـوى تصـبرني وتشـد مـن عضـدي، وأنـا مـن جئـت لأبقـى جوارهـا، خاصـةً بعـد أن أصابنـي الجـزع فـور أن رأيـت شـقة أخـي.. بقيـت معهـا أسـبوعًا كامـلًا ننتظـر أي خـبر ولا شيء يـأتي، كنتـت أصحـو مـن نومـي أحيانًـا عـلى صـوت نحيبهـا، وكنـت أحبـس دمعـي وأدّعـي القـوة.. لكنهـا عندمـا تلمـح أدمعـي تبـكي وتبكينـي.

نجـوى جميلـة سـمراء، قصـيرة بعـض الـشيء، عينهـا سـوداء.. شـعرها ناعـم وطويـل، ليسـت كأي فتـاة، صبـورة محتسـبة، تُرجـع الأمـر برمتـه للابتـلاء، تقـاوم حرمانهـا مـن زوجهـا في أسـبوعها الأول.

ورغـم كل مـا هـي فيـه فإنهـا كانـت تصـبرني عـلى مصـابي، كانـت تعلـم أني خـسرت أخـي، بعـض روحـي، وحبيبـي ذاك الـذي مـا التقينـا إلا عـلى فـراق، ولا اقتربنـا إلا عـلى بعـاد.

بـتُّ أحـكي لهـا عـن لقائنـا في الشـقة وعـن تقربـه لي في العـام الأخـير، حكيـت لهـا عـن ثـوب خطبتـي الـذي أبحـث عنـه في كل الأماكـن، كنـت أحـكي لهـا وهـي تكمـل

لي؛ فلقد كانت تعلم جيدًا كل تفاصيلي، بعد أسبوع لملمت أشيائي وغادرت؛ فلقد قرر والدها أن يأتي ليأخذها معه، قال إن بيتها أولى بها.

عدت إلى والدتي، وجدتها طريحة الفراش ولم يريدوا أن يقلقوني عليها فأخفوا عليّ خبر سقوطها أول أمس. على صدرها الطيب بكيت، ملّست على شعري وهي تقول بصوت هزيل: «فرج الله قريب يا ليلى».

نظرت لها وأمعنت... قبلتها من جبينها وحاولت أن أقوي من نفسي حتى تشفى أمي، ورغم انهياري فإنني قررت الصمود، وذهبت أغدو وأروح في البيت أعد الأشياء وأقوم بما كانت تقوم به أمي.

جمال في غرفته، لا يقبل مشاركتنا الطعام، استأذنته في الدخول وسمح لي فهو منذ أن أوقف عن العمل، لم يتعامل مع أحد منا، يغلق على نفسه باب الحجرة، يخرج فقط قرب المغيب، علمت من حمزة أنه يتوغل داخل الحقل بمفرده كل يوم ويعود قرب منتصف الليل، وضعت الطعام على مكتبه، وجدته على فراشه يضع يديه أسفل رأسه، وجهه عبوس، لحيته طويلة، وقد كان يحلقها يوميًا تقريبًا. كل منافذ الحجرة مغلقة، ذهبت أجلس جواره، نظر لي نظرة عميقة. قلت له:

- نحن في أزمة، نحتاجك قويًا، لا أحد لنا الآن.

- أنتم من أضعتم مستقبلي.

- لم يضع مستقبلك، هي أزمة وتنتهي.

- لن تنتهي طالما بقي يحيى بهذا العقل وطالما بقي مع خالد، كلاهما يستحق، لكن ما ذنبي أنا؟

- كيف تتحدث هكذا؟ أنت تعرف أخاك جيدًا... معقول؟ أهذا رأيك؟ أيعجبك النظام؟ أترضى بالظلم المتفشي؟ ألا ترى أحوال الناس؟!

- بل أرى.. الناس بخير.. تعيش بلا حروب وبلا دمار، الكل آمن.. احتياجاتهم الأساسية مؤمنة، أعلم تمامًا أن هناك سرقة وظلمًا لكن الحياة تسير.

- الحياة تسير... تسير والطغاة يتلونون، يمارسون الزيف على الشعب الفقير، عاد عصر الإقطاع، السادة والعبيد، يحتالون على القانون، يمارسون العهر السياسي في أكثر مفاهيمه، إعلام متواطئ يخدم رأس المال ورجال السلطة، فساد في كل القطاعات، حتى القيم والمبادئ تدنست ببث بذور الانحلال في كل جنبات المجتمع، ومن يتكلم يعترض، يُجر إلى أمن الدولة، وتلفق له القضايا، قد يقضي عمره كله داخل السجون، وقد يخرج سريعًا لكنه يخرج شبحًا من التعذيب واللاآدمية التي يتعامل بها.

- لكن الحياة تسير.. لو تغيرت القيادة السياسية لن تقوم لهذه الدولة قائمة.

- مثل هذه الآراء هي مَن ضيعت حقوق الناس.. الرضوخ والجبن عقيدة الضعفاء.. والمجتمع يؤمن للضعفاء أفكارهم.. والأقوياء صرعى بين عقائد زائفة، يخطها المسيسون ويرفعها أصحاب المنطق الملوث متى تتحررون من أنانيتكم؟ لن أتمادى في الحديث أكثر... عليك النهوض الآن، عليك البحث عن أخيك والوقوف معه وإخراجه من أزمته، عليك أن تفكر في والدك ووالدتك، دع التفكير في نفسك الآن، انهض الآن انهض، قم تناول غداءك واعمل اتصالاتك، قف جوارنا في أزمتنا... دع الاختلافات السياسية بيننا الآن، أنت رجلنا الآن.. والدك بالخارج يموت قهرًا.

قام جمال، ذهب إلى الحمام حلق ذقنه واغتسل وتناول غداءه، وقبّل يد والده ووجه أمه وغادر، استبشرت يومها خيرًا وانشرح صدري أني استطعت إقناع أخي، تصورت خيرًا أتى بقدومه ليلًا... مر اليوم سريعًا... كنت منهكة فأنا أقوم على خدمة مريضين وبيت بأكمله، أعطيت لأمي حقنة الأنسولين ولأبي أدوية الضغط، وتركتهما يتقلبان في فراشهما، يكتويان بنار فراق يحيى، تغالبهما الظنون، ويهزمهما الخوف، ويُحَلق في ليلهما الجزع ليشق صدريهما بقسوة.

ارتديت شالي الأسود وخرجت أمام البيت الكبير، انتفضت دموعي تسأل لِمَ هذا الضيق الكاتم على صدري، والكون ما زال على اتساعه! يشق السماء برق «تشرين» ورعد يمزق أوصالي المفككة أصلًا، أقترب من المقاعد أسفل تكعيبة العنب جوار الزرع الغض وأنظر للسماء وهي تمطر وللزرع وهو يغتسل، أتطيب بمطر من الجنة ونسمات صافيات تمن على الجرح بلطف وتلطف.. لم أعد أفرق كثيرًا بين المطر ودمعي المتهاطل، غير أني لكثافته أتذوق. فأعلم دمعي، هو ذاك الأكثر ملوحة.

سندت رأسي على المقعد لا أدري إلى أين ذهبت، عدت عندما سمعت صوت سيارة جمال، قمت مسرعة إليه أرتعد، أغلق السيارة، تعجب من وقوفي لهذا الوقت المتأخر فلقد تعدت الساعة الواحدة، والليلة كانت من أسوأ ليالي هذا الشتاء..

- لماذا أنت هنا؟!

- أخبرني، هل توصلت لشيء؟

- نعـم، اطمئنـي هـما في أمـن الدولـة، غـدًا سـأذهب لألقاهـما، جهـزي طعامًـا وملابـس.

- سآتي معك.

- لا.. أنـا فقـط، وتحـت إجـراءات مشـددة، لقـد اسـتخدمت علاقـاتي.. هـذه الزيـارة ليسـت قانونيـة... بـل هـي سريـة للغايـة، وغـدًا سـأعرف أبعـاد الموضـوع.

تنفست الصعداء وقلت الحمد لله.

- هيا ادخلي يا ليلى، المطر شديد.

بالداخـل جـاء صـوت أبي يدعـو «جـمال» إلى غرفتـه، تركتـه وذهبـت أتخلـص مـن ملابـسي المبتلـة، اسـتلقيت عـلى سريـري، وبقلبـي نبتـة أمـل جديـدة عتقتهـا مـن مطـر تشريـن وأودعتهـا ربي؛ فنِمـتُ مطمئنـة لأول ليلـة منـذ أكـثر مـن أسـبوعين.

الفصل السابع

رق الشوق على جذور العشق القديمة، فأينعت الجذور حلمًا مورقًا غفا على جبين الفقد العتيق أملًا، واستيقظ التمني، أفاقت من مراقد اليأس كل معاني الحنين، لتسرق من الزمن لحظات في غفوة من عقل وفي زيف من انتقام، كل القصور المتواري خلف صدر يتقن الإخفاء والتصنع، قد يكتمل الآن، أمامي فرصة العمر، فرصة لتسكين الوجع، وتهيئة الروح لاستعادة الحياة.

قالت لي ستأتي غدًا، عليّ أن أهذب قراراتي، إما أن أرحل دون ثأري، أو أن أبقى وألملم كل شعثي، اكتفائي القديم، وانتقامي الحالي. غفوت من الصدمة التي ألقتها تلك السيدة التي لا أعلم لها اسمًا حتى الآن، لكني استيقظت مبكرًا، وفي صدري تعجب وتحير وشيء لا أعلمه، هي قبضة ربما... جزع ربما... غبطة لا أدري غير أن بنفسي شيئًا غريبًا.

قمت إلى المرآة أنظر لملامحي، لم أعد كما أنا.. مثلما قال لي خالد، ألم يلمح تلك التجاعيد التي احتلت أسفل عيني، تجاعيد أرقها السهد وأذبلتها اللوعة، أحرك يدي لأسفل، أمر بكل أجزائي، هل ستبعث الحياة في جسدي الميت مرة أخرى، هل بعد الخمسين يتبقى لي أمل، هل أقبل بزواجي بالقائد، أم أرحل دون قرار، دون معرفة، دون ثأر لعائلتي ولياسين، أنا ما زالت لا أعلم كيف توفي ياسين... ومن القاتل الحقيقي؟

أفاقتني تلك الدمعات الساخنات، التي تساقطت فلسعت خاطري الذي

مـا زال يتمنـى ويشـتهي، انتبهـت لطـرق عـلى البـاب، مـا زال الوقـت مبكـرًا، لا أحـد يأتينـي أبـدًا في مثـل هـذا الصبـاح الباكـر، ارتديـت حجـابي وفتحـت البـاب، إنهـا إحـدى العامـلات في القـصر، إنهـا مرسـال خالـد، وقبـل أن أفكـر أو أسـال قالـت لي: القائـد ينتظـرك بالحديقـة لتنـاول الإفطـار معـه.

أغلقـت البـاب وقلبـي يـدق.. وعينـي التـي كانـت تدمـع تلمـع بشـدة، وقمـت إلى دولابي أنتقـي ملابـس تناسـب دقـات قلبـي المشـتاق لـه... وشـغفي للقائـه، وتحـت ظـل شـجرة «السـنديان» قابلنـي كـما كان يقابلنـي كل مـرة بضحكـة وشـوق في عينـه يرحـب بي، جلسـت أمامـه، قـال: كيـف أنـت؟

قلت: لم يتوقف عقلي منذ أمس عن التفكير.

- تفكرين... وهل الأمر يستدعي تفكيرًا؟

- لماذا تضعني في هذا الموقف؟

- أي موقف؟

- أنت تعلم..

- حلمي قريب مني، أأبقى ناظرًا إليه أم أمد يدي وأتلقفه؟

- أتدري ماذا تقول؟ أتدري كم نحمل فوق أكتافنا من عمر؟

- ثلاثة وخمسين عامًا.

- أهذا مناسب من وجهة نظرك؟

- لو أني سأموت غدًا أريدك اليوم معي.

- وإن رفضت الطلب، ستحرمني من معرفة الحقيقة والثأر لابني.

- ترفضينني للمرة الثانية... أموت على يدك مرتين؟

- ماذا... ماذا تقول أأنا من قتلتك؟ أنت لا تتذكر أعتقد!

- بل أتذكر جيدًا أنّا خلقنا لنكون معًا، نتحمل كل المرارة حتى نبقى معًا، لكنك مللتِ اضطرابي وفررتِ إلى الأستاذ الجامعي، منصب ومال ووضع اجتماعي... علام تقبلين مثلي إذن؟!

- نعم صدقت.. أنا تلك التي كانت تبحث دومًا عن المال والمناصب ألا تتذكر؟

- لا أذكر إلا أنك كنتِ قوية لا تتحملين فراقي.. ماذا جرى حتى ترحلين وتكسرين قلبي، ماذا جرى؟

نظرت إليه وقد امتلأت عيني بالدمع وارتجفت خوافقي، قلت: من يسمعك يعتقد أني ظلمتك، تصور بتُّ أصدق ذلك! أنا أمقت استدعاء تلك الذكرى بالذات، لكني بحاجة لأن أُذكرك، بعد غيابك ويحيى أكثر من أسبوع في أمن الدولة، استطاع جمال الوصول إليكما، طمأننا، لكن رغم أنه لم يقل عنكما إلا خيرًا، كان زائغ البصر، متوترًا، دخلت غرفته لأهذب من حيرتي وأهدئ من روعي، وجدته مكتئبًا، مارست كل أنواع الضغط عليه حتى أخبرني بحالكما وأنت أدرى بحالكما مني، حكى لي فقط عن آثار الضرب المبرح الذي سبب لكما عدم الإدراك والوعي، وكأنكما في عالم آخر، وأنه لم يكن يستطيع إخبار والديّ بهذا، ولا يمكن اصطحابهما معه، ربما قُهر أبي وماتت أمي من الحسرة والرعب.

كدت أصرخ، قام واضعًا كلتا يديه على فمي، وقال: اهدئي واطمئني، أنا لن

أسـكت، أعـدك أنهـما سـيكونان بيننـا هـذا الأسـبوع.

قـال كلامـه ذلـك وأنـا في حالـة مـن الانهيـار الأقـصى، لكـن كلامـه أراحنـي بعـض الـشيء، ارتـدى ملابسـه، وعلمـت بعدهـا أنـه ذهـب إلى المستشـار عيـسى العبـد، كان أسـتاذه ويحبـه كثـيرًا، تدخـل سـيادة المستشـار وتـم إخراجكـما مـن المعتقـل، ورغـم إصرار أبي عـلى مجيئـك إلى بيتنـا حتـى تتعـافى فإنـك رفضـت، وهربـت لا أدري إلى أيـن، جـاء يحيـى وزوجتـه وبقيـا معنـا شـهرًا كامـلًا حتـى اطـمأن قلـب أمـي.

وأنـا مـن يُطمـئن قلبـي؟ لا أحـد... ذهبـت إلى زوجـة أبيـك أسـأل عنـك، أقسـمت لي هـي وأخوتـك أنهـم لم يـروك ولا يعرفـون لـك مكانًـا، وأنهـم قلقـون عليـك، خرجـت مـن بيتهـم في حالـة سـيئة جـدًّا، لا أعلـم أيـن أذهـب، تصورتـك في الشـقة، لكنـي بعدمـا صعـدت إليهـا وكـدت أضـع المفتـاح وأدخـل، تذكـرت أنهـا لا تصلـح للمعيشـة أبـدًا؛ فهـي فارغـة تمامًـا، لا أثـاث فيهـا ولا ملابـس لـك ولا طعـام ولا أي شيء؛ فنزلـت تسـبقني دموعـي.

اتصلـت عليـك مـرارًا وتكـرارًا، هاتفـك مغلـق، لا تـدري إلى أي درجـات الوجـع صعـدت روحـي، بقيـت أحـدث نفـسي، لمـاذا تفعـل بي هـذا، إذا كنـا روحًـا واحـدة كـما كنـت تقـول.

عندمـا عـدت إلى المنـزل كـسرت خجـلي وطرقـت بـاب غرفـة أخـي يحيـى وزوجتـه وأنـا أبـكي، ارتميـت في أحضـان أخـي، نظـرت في عينيـه وسـألته: أيـن خالـد؟

ضمني قائلًا: اطمئني، هو فقط لا يريد أن تريه على هذه الحالة، سيعود..

قلت: متى، أنا أموت يا أخي، أين أجده؟

شعرت بتألمه لأجلي فوعدني أن يبحث عنك فور أن يستعيد عافيته؛ فخجلت من نفسي وبقيت أبرر طلبي؛ فعفاني أخي من الحديث قائلًا: لا تبرري.

أتذكر تلك الليلة والليالي السابقة، أصابتني حمى شديدة جعلتني طريحة الفراش أسبوعين، لا أقوى على الوقوف؛ فالتفوا جميعًا حولي، حتى يحيى..

بقاء نجوى جوار يحيى جعله ينسى تمامًا ما حدث، لكنك بتّ بمفردك تتألم، تخشى أن تشاركني الحياة بكل ما لها وما عليها، كنت تخشى ماذا؟ تخشى تألمي! وما أنا فيه ماذا تسميه.. لماذا بعدت تتألم بمفردك وأنا بمفردي، ماذا لو أن تقاسمنا الألم؟ وافترشنا الوقائع وتحررنا من قيد المرار الذي يحيا بنا ونحيا فيه..

***

توقفت عن استكمال الأحداث حينما شاهدت تغير خالد، نظر لي صامتًا لحظات ثم قال: الشاي سار ثلجًا.

قلت: نملك تسخينه أو أن تجلب لي غيره، لكن هناك أشياء أخرى إن ضاعت لا تعود ولا تصلح.

- تناولي إفطارك.

بدأ ينظر للطعام وأنظر أنا له متعجبة من صمته.. بدأ يأكل غير مبالٍ وأنا أتناول كسرات خبز وأتعجب ردة فعله على كلامي. أعطاني زيتونة، قال أنه يعلم أني أحب الزيتون. قال ضاحكًا: أما زال الزيتون يقول لك سننتصر!

ضحكت بصوت عالٍ، ثم خجلت من نفسي؛ فحولي يقف الكثير من الحرس، نعم هم بعيد بعض الشيء، لكن خجلت من نفسي ومن خالد. قلت: أما زلت

تتذكر؟

قال: ما زلت تضحكين كأمس... نعم أذكر كل جنونك! وأذكر كل وقفاتك الفلسفية، أتذكر الفراغ الكوني، أما زلت تقرئين الفراغ الكوني، وتغازلين الفضاء، وتعانقين المجهول وتترددين للميتافيزيقيا؟

قلت: وأنت، أما زلت تذكر تفاصيلي بهذه الدقة؟

- ومن أذكر إذا نسيتك؟

- لماذا هربت وتركتني بعد خروجك من الأزمة رغم تبرئتك، حتى إنهم لم يستطيعوا تلفيق أي قضايا لكما، كانت أزمة ومرت.

قال: رأيت بين جدران المعتقل السياسي ما لم أره في حياتي، أتدرين جوانتانامو، أتسمعين عما يحدث فيه، ربما ما حدث لي هناك أقصى وأشد، كيف أصف لك ما حدث، مررنا بكل أنواع التعذيب، الضرب والركل والجلد.. كل شيء، الغرق والانتهاك، كل ما يتصوره عقلك وما لا يتصوره، بكيت كالأطفال، ولقد كانوا فصلوني عن يحيى منذ اليوم الأول وقالوا لي أنه غادر وأني بقيت بمفردي، تعذيب يومي بلا أدنى رحمة يتناوبون عليّ، فعلوا معي ما يصح أن أقوله لك ولا يصح، كرهت نفسي وفقدت معنى الوطن بين كل تعذيب وآخر..

بل كرهت كوني مصريًا، وأقسمت لهم لئن خرجت حيًا لن أعود إليها إلا ميتًا، طول الشهرين اللذين قضيتهما هناك وأنا يتضاعف كرهي لهذا التراب الذي طالما عشقت، وألوم نفسي لِمَ بقيت إلى الآن، داخل المعتقل أنتِ في جهنم، بالمعنى الحرفي للكلمة، وقد تتمنين الخروج للحظات لتغيير مصيرك.

خرجت مكسورًا، ليست أضلعي فقط بل كرامتي ونفسي.. لا شيء فيّ خرجت به كما دخلت، بتُّ أسأل نفسي لِمَ مصر تفعل هذا في كل الصادقين؟ على قدر حبي لها على قدر سخطي عليها، تصوري أغمضت عيني يوم خروجي لا أريد أن أراها، مجروح أنا من ترابها مذبوح أنا من سماها.

كنت في الشقة أنام على الأرض رغم جروحي وأضلعي المكسورة، لا أرد على أحد ولم أطلب عونًا من أحد، بقيت أكثر من شهر هكذا، فقط رجل عامل كان يعمل في طلاء الشقة هو من كان يجلب لي بعض الخبز وبعض المشروبات الساخنة، جلب لي مرتبة إسفنجية بعدما تقيح جسدي.

كنت أخجل أن أراكِ وأنا مهزوم الخاطر، كنت أهرب منك، أنت بالذات، كيف أراكِ وأنا منتقص الرجولة مهلهل المبدأ ممزق الروح. شعرت وقتها أنك أفضل مني وتستحقين غيري، لكني لم أستطع منع قلبي من أن يحبك فبقيتِ خيالًا يداعبني، ذكراك فقط ما تشعرني أني على قيد الحياة.

***

كنت أنظر إليه مندهشة من حديثه، قلت له أُكمل لك أنا، أعطني فرصة لأكمل...

كدت أموت، وجسدي استجاب لنفسي، فبقيت قيد المرض والإرهاق الدائم، فحوصات وتحاليل، ولا شيء ولا وصول لأسباب منطقية لحالتي، يحيى أشفق عليّ، بدأ في البحث عنك، بعدما توسطت أمي عنده، لقد أخذ موقفًا ضدك لأنك غادرت دون إخباره، لكنه لأجلي بدأ يبحث عنك، وعندما عاد إلى شقته لاحظ

هـذا العامـل الـذي يـتردد عـلى العـمارة يحمـل طعامًـا يوميًـا، راقبـه حتـى وجـدك تتكـئ عـلى عصـا وتفتـح بـاب شـقتك، حـين أقـدم عـلى دق جـرس البـاب.

قـال: أذكـر ذلـك جيـدًا، وأذكـر ألمـي حـين رأيتـه، احتضننـي وبكيـت وبـكى.. نظـر لي نظـرة بـين الغضـب والحنـين، ثـم دخـل دون حديـث. أذكـر أنـه لم يجـد أي شيء يجلـس عليـه فقلـب إنـاءً بـه مـواد طـلاء وجلـس، وأنـا اتـكأت عـلى فـراشي وكان مرتبـة إسـفنجية وغطـاءً خفيفًـا باليًـا، وملابـسي أسـتخدمها لوضـع رأسي.

بقي يحيى ينظر لي كثيرًا، قال: لماذا تفعل هذا بنفسك؟

قلت: وماذا تريدني أن أفعل، وأنت بالذات تعلم ما حدث لي.

- تقصد ما حدث لنا.

- أنت معك زوجتك وأهلك لكن لا وطن لي هنا.

- وليلى؟

تعجبـت حينـما ذكـر اسـمك ثـم أضـاف: ليـلى تمـوت يـا خالـد وعليـك أن تكـون عـلى قـدر مكانتـك في قلبهـا.

قلت محبطًا: سأهاجر.. سأبيع الشقة وأجمع المال من السوق وأهاجر.

قال: كيف تفعل هذا، أتترك وطنك؟

- لا تحدثني عن الوطن.. أين الوطن.. أين أنا الآن؟

- خالـد رئيـس اتحـاد الطلبـة أربـع سـنوات، ذلـك المثقـف المتميـز، ذلـك العاشـق للوطـن المخلـص لترابـه.

- ألا تـرى مـا فعلـوه بنـا؟ ألا تـرى؟ يـا صديقـي الوطـن للفاسـدين، للمدعـين للأفاقـين، ولـن يكـون لنـا أبـدًا...

- الصبر يا خالد.. دعنا نتصبر معًا..

- ما عدت أطيق، اعذرني يا صديقي.

بعدهـا نظـر لي نظـرة لم أعـرف معناهـا إلى الآن، وغـادر، ثـم وجدتـه بعـد سـاعات قليلـة عائـدًا بطعـام كثـير، كنـت لم أتـذوق طعـم الأكل المطبـوخ منـذ أكـثر مـن شـهر؛ فأكلـت كـما لم آكل مـن قبـل، كان معـه وسـادات وأغطيـة، وكل بضـع سـاعات يعـاودني، بـدأ يتعامـل معـي وكأننـي مريـض نفـسي...

تسـتكمل ليـلى: عندمـا سـألته عنـك وكنـت فقـدت الكثـير مـن وزني وذبلـت، كان يربـت عـلى كتفـي وأحيانًـا يضمنـي، رأيـت في عينيـه أنـه عـرف أيـن أنـت لكنـه يخفـي عنـي، حتـى بكيـت بحرقـة أمـام نجـوى فقالـت أنهـا تعـرف مكانـك وأنـه آن الأوان أن تضـع النقـط عـلى الحـروف... فتوسـطت نجـوى بينـي وبـين أخـي، محاولـة إقناعـه أنـه لا بـد أن نلتقـي لنتحـدث ويكـون القـرار الأخـير.

جـاء لي يحيـى، طلـب منـي الخـروج معـه أمـام البيـت، سرنـا إلى الحقـل.. في الطريق تحـدث إليّ عنـك.. قـال أنـه يحبـك ويعلـم أنـك الأجـدر بي وأنـه لـو بحـث بالكـون لـن يجـد مثلـك، لكنـه لاحـظ أنـك في كل أزمـة تتخـلى عنـي.. وتسـقطني مـن حسـاباتك... جرحنـي كلامـه فبكيـت..

قـال أنـه سـيعطيني فرصـة أخـيرة، وسـيدعوك للغـداء غـدًا، فرحـت وجـرت الآمـال تتعانـق مـع قلبـي مـرة أخـرى، وكان لقاءنـا الأخـير.

حاولت يومها أن أبدو أجمل، لم أستطع، كان الجرح قد أثقل عليّ، وظروف صحية ألمت بي فأذبلتني، بخطى مثقلة صعدت السلم، لا أدري لِمَ كان معظم ما أرتدي يطغى عليه الأسود، حتى ملامحي لم تستطع أدوات تجميلي أن تغيرها، ولقيتك وكلما جاءت عينك في عيني زاغت مني أحداقك وأشحت وجهك عني.. فاضطربت وبدأت أقرأ مستقبلي في رعشة يدي وتجاهلك.

أتيتك وقد استبد الشوق بي، راجية جوارك، فهربت مني للألم... جلست جوارك وتركنا كلٌّ من نجوى ويحيى بحجة إعداد الطعام.. مرت دقائق لم أستطع حصرها، فقط كنت أتمنى أن أجتذب منك الأمل، جئت لأجل الأمل... بدأت بالحديث، قلت لك: اشتقتك، سعيدة أنك بخير.

أذكر الآن ردك جيدًا، قلت: شكرًا.

- خالد، ماذا بك.. ألم يغير وجودي فيك شيئًا؟

- التمسي لي عذرًا.. أي عذر.. قريبًا سأعفيك من أعذاري المتكررة.

- كلامك موجع بل يذبح فيّ كالسكين.

- ليلى، هل تشكين في حبي لك؟

- الأهم ليس الحب لكنه التمسك، الإصرار.. أن تظن أن حياتك لا تستقيم دوني.

- حياتي لن تستقيم... أنا أشعر أني كريشة يتلاعب بها الريح، لا أملك طريقًا، كيف أتحمل مسئولية امرأة مثلك، بقيت أخشى عليكِ مني.

ارتعدت، عرفت أنك تتخلى... خشيت أن تنطقها فقربت منك، مسكت كفك

بين يدي وقبلته، واحتضنتك دموعي.. لكنك كنت كالصنم الذي لا يعي، كنت أضعف من أن أحتمي بقوتي فيك.. انهمرت دموعي واستمرت في الهطول، ولا شيء يحركك، وكأنك اتخذت قرارك وأنهيت أمري دون سماع دفاعي ولا تقديم أوراق استجدائي.

رفضت كل الطعون، حتى الشهود اتهمتهم بالجهل وعدم تصور الحقيقة، هذا ما فعلته مع نجوى وأخي عندما سمعا صوت بكائي عندما قلت كلمتك الأخيرة «أن ما بيننا انتهى».

استرجاع الوجع أوجع، واستدعاء الأحداث حارق كما لو أنك تسكب أسفل حرائق غازًا قابلًا للاشتعال، نظرت إليه وأنا أستعيد أصعب لحظات عمري والدموع تملأ وجهي، وكأن ما مر بنا أكثر من عشرين عامًا... كأن الزمن توقف عند لحظات النهاية...

وجدته مثلي يخفي دموعه خلف طلبه الشاي من الحارس... سكب لي الشاي وقد دقت الساعة السابعة.. ولم نشعر بالوقت، طلبت منه أن يكمل هو باقي القصة فهو أدرى بها مني.

ارتشف بعضًا من الشاي واستمال متكئًا على المنضدة ثم رفع عينه ناظرًا إليّ قائلًا: كنت ميتًا بي جرح كبير، أنت تعرفينني جيدًا، أحتاج دومًا إلى وقت، لكنك ويحيى. ضجرتما مني، مللتما من همومي، أنتِ لم تتذكري ماذا يحدث لي عندما أهان أو تهان مبادئي... أحتاج وقتًا قد يطول وقد يكثر لكني كنت أحتاج وقتًا.

جاءني يحيى يومها يدعوني إلى الغداء، رفضت... ألح عليّ كثيرًا، خجلت منه،

لم يخبرني أنك آتية، كنت على الأقل هذبت ذقني، أتذكر هذا اليوم جيدًا، كنت قد فقدت كثيرًا من وزني ولياقتي، حول عيني وقفت الغيمات وانحنت الهموم، وتلاعب الأرق بأحداقي، تفاجأت عندما سمعت الباب يدق، وقف قلبي فعلًا، خشيت أن تكوني أنتِ، وكنت أنتِ فعلًا، ارتجفت كل خوافقي، وشعرت بضيق أن ترينني على هذه الحالة، لا أنكر وقتها فكرت كثيرًا في الهجرة دونك؛ فلماذا أثقل عليك بهمي..

لكني قطُّ لم أستطع، فقررت أن أهاجر أولًا وأرسل في طلبك، لكن لا أدري لِمَ تكلمت بما صدر مني يومها، ربما لأني كنت أحتاج وقتًا كما قلت لك، ربما لم أملك ثقة في نفسي، وربما خشيت عليك من المستقبل الذي ينتظرني، لكن بعدما غادرتِ مسرعة علمت أنك لن تعودي، فهذه أول مرة تقررين الرحيل عني.

نزل يحيى ليلحق بك وأنت تبكين؛ فخرجت خلفه مسرعًا لألحق بكِ، فتعثرت بصديق لي على السلم وجدته يحتضنني ويقول لي: أبشر أوراق سفرك جاهزة، ستترك البلد هذا الأسبوع، استعد.

فشعرتها إشارة من الله، أخذته لنكمل الحديث في الشقة، ورحلت أنتِ.. حتى يحيى تركني حزنًا وثأرًا لك، أعددت حقائبي وقررت أن أرسل لك فور رحيلي، حاولت مقابلة أخيك قبل سفري لكنه رفض حتى الرد عليّ.

كنت أود أن آتي إلى بيتكم لأودع والدك ووالدتك وأشكرهما على ما فعلاه معي، لكني أُحرجت فقررت أن أسافر وأستقر أولًا، وأرسل أوضح لهما الأمر، وأطلبك لتأتي لنبقى معًا.

كنت شعلة نشاط عندما غادرت مطار القاهرة، وعلى أرض الكويت حالفني الحظ بصديق قديم هناك، وكان يعرفني ويعرف نشاطي وحماسي.. ساعدني في الحصول على عمل في إحدى أهم وأكبر المكتبات هناك، وبما أحمله من خبرة في المجال؛ أصبحت أنا مدير العمل الأول في شهور قليلة..

وأرسلت بخطاب ليحيى، قلت له أريد أختك على سنة الله ورسوله وحكيت له عن حالي، وأني أجهز شقة للعروس وسأوكل خالي لينهي إجراءات الزواج، كنت قبل أن أرسل لخالد أحاول مررًا الاتصال بكم، لقد كنت أعرف رقمكم جيدًا، لم يرد أحد عليّ قطُّ. سوى مرة واحدة ردت طفلة صغيرة قالت: «العروسة بتشتري الفستان».

وكان ذلك بعد إرسالي الخطاب لخالد، سعدت جدًّا وتصورت رسالتي وصلت وتم قبولها، أيام قلائل وجاءني الرد من خالد وكان مقتضبًا جدًّا: أتمنى لك حياة سعيدة يا صديقي، لقد تم زفاف ليلى أمس، على الدكتور «ناجي عز الدين». الله معك.

لا تدرين كيف كنت ساعتها، وكأن الدنيا انتهت، وقت أن بدأت تضحك لي الدنيا ويتحقق لي استقرار فقدتك... دخلت في غيبوبة ثلاثة أيام.. وبقيت شهرًا كاملًا أتعذب، أتساءل كيف استطعتِ أن تبقي مع غيري، وكان ارتباطك بالدكتور ناجي هذا؟ وما كل هذه السرعة، لِمَ لم ترحميني، لمَ لم تنتظري حتى أهدأ!

لم يكن اسمه مفاجأة؛ فلقد لاحظت منذ أن كان يدرس لنا مادة «الجنائي» في كلية الحقوق، أنه ينظر لك نظرة غير مريحة.. ساعتها شعرت أنك اخترتِ الأصح لك وأنه أفضل مني.. وأنك في وضع أفضل.. فهانت الحياة كلها.. ولم تعد تعني

لي شيئًا. وانضممت حينها لجماعات الكفاح المسلح في فلسطين... وأطلقت لحيتي.. وبدت قناعتي أن الحياة جهاد لأجل غاية وفقط.

كنت أنصت له وأدمعي تتساقط بغزارة... كل حرف منه كان وجعًا جديدًا، يذكرني بنفسي البعيدة التي لم ألقها منذ فارقته.

قال: كل أحداثنا وجع... وحياتنا سراب وحلمنا كان مستحيلًا، نملك الآن القرار... لا تبتعدي عني، ابقي.

كنت أتوجع مما قال... وأسترجع كل الأشياء والأحداث... قلت: مرهقة أنا، نكمل في وقت آخر.

وقف ووقفت إلى جانبه عائدين بعد أن قضينا أكثر من خمس ساعات نسترجع آلامنا... كانت الساعة قد قربت من العاشرة، بدأت الشمس ترسل ذهبها بين فراغات الشجر، بدا الجو لطيفًا.. نسمات طيبة تلامست ووجدٌ ألمَّ بنا.

أوصلني إلى حجرتي، مد يده مودعًا إياي... وعلى غفلة مني قبّل يدي؛ فارتجفت وقد عانق حنيني شفتيه، وكأني تلك العذراء التي تتلعثم خوافقها إذا منَّ الحبيب عليها بقبلة...

دخلت حجرتي وأظلمت ضوء النهار، واستعدت وجه أمي وصدرها فرحت بين اليقظة والغفو أتبختر.. أتذكر لفتات من الماضي وتجليات من الحاضر... حتى رحلت إلى موتي أستكين حينًا ثم أعود.

في الحلم، كل الأمنيات تتحقق، كل الطرق المسدودة تتفتح، كل الظلام ينجلي، حتى ياسين يضحك. هو ياسين جالس هناك تحت أشجار الجنة يستظل، يملك

قلـمًا وورقًـا، أقـترب منـه فيرسـم قلبـين وسـهمًا في المنتصـف، ويضـع صـورة لي وأخـرى لخالـد.. وينظـر لي مقتربًـا أكـثر واضعًـا يـده عـلى خـدي الأيـسر هامسًـا: هـذا مـا كنـت أتمنـاه لـك، فلتفرحـي.

صحـوت مخضوضـة، نظـرت بالغرفـة لم أجـد أحـدًا. جننـت، بقيـت أتلفـت حـولي، أقـول لنفـسي: لقـد كان هنـا.. لقـد كان هنـا.

وضعـت رأسي عـلى وسـادة الحـسرة أطلـب مـن ربي رحمـة تنقـذني مـما أنـا فيـه.. مشـقوق قلبـي إلى نصفـين يتنازعـان ولا أقـوى عـلى فـض الاشـتباك.

الفصل الثامن

بيارق الحرمان

أقمنا على مشارف دولة الحزن احتفالنا، تبختر الفقد على سيمفونية الوجع، تعطر نزف انقسامنا بعطور الموتى ومسك الآفلين، رقائق الورد المنثورة فوق ظلنا نبت شيطاني من وحي حدائق جدباء، في أعراف دولة الحزن، القوانين تختلف، والإجحاف شيمة العرفان...

زُفّ بمفرده دوني، وأنا دونه، وبيننا ظلمات وحجب، عوالم صعب علينا اجتيازها. في زفافنا الأسطوري هذا، نزف قلب القمر، وانقسمت النجيمات نصفين، وانشق وهج السماء زرافات، شجن أسود لطخ جبين الكون وتساقطت أوراق العمر متناثرة في أزقة الفقد.

وموسيقى الفرح، كانت سيمفونيات كلاسيكية تعلو بأصوات أشباح جنائزية، كتلك التي تعزف عند قبور الموتى، وأضرحة العارفين.

أُدخلنا عنوة إلى مواقد الضجر، وأروقة الفقد تلك التي هي مرقدنا الأزلي... في قلوبنا تقبع الأماني البكر تلك التي سارت بعد العقد غير المتكافئ، أحلام محرمة، نحاكم عليها علانية في أعراف الكون الذي يأخذ ولا يعطي...

كان هذا خيالي الآثم... نهاية رحلتي مع نصفي الآخر، حفل الزفاف الذي عشت العمر أنتظره، كابوسي المرعب، حلمي يوم زفافي، كان أصعب يوم في عمري،

بعد أن تركت شقة أخي ونزلت أبكي على سلم الوجع، وقفت أنتظر أي وسيلة مواصلات لتصلني إلى قريتي، وجدت سيارة سوداء وقفت أمامي، وأنا أبكي بشدة، لم أكن أعلم من بها، حتى نزل الزجاج، وجدته ينظر لي ويقول: تعالي يا ليلى.

إنه الدكتور ناجي عز الدين أستاذي بالجامعة. حاولت التماسك قليلًا، وأزلت بقايا دمعي العالق بمقلي، وقلت شكرًا أستاذي.

قال: سأقوم بتوصيلك، تعالي.

- عفوًا، أنتظر تاكسي.

- تعالي، قلت تعالي.

ركبت جواره السيارة، بدأ يتحدث إليّ، يسألني عن يحيى بعد خروجه من المعتقل، قلت: الحمد لله بخير.

سألني عن جمال، أخبرته أنه عاد إلى عمله، وقد تسبب هذا في تماسك أبي وانفراج الأزمة التي مررنا بها، كنت أرد باقتضاب شديد، سألني عن حالي ولِمَ يبدو عليّ التعب، قلت: إنه إرهاق وأرق نتيجة الأزمة.

بقيت طول الطريق لا أقوى على الحديث، وهو أيضًا بقي صامتًا، فهو هادئ الطبع نادرًا لو تحدث، عندما اقتربنا من البيت، قلت له: عفوًا، لقد أتعبتك.

قال: أبدًا يا ليلى، أنا ذاهب لأخي بالقرب منكم. شكرته، استأذنته في الرحيل، ودعوته سريعًا لتناول القهوة فرد ردًا غريبًا، قائلًا أنه سيتناول القهوة قريبًا معنا.

استوقفني قوله لحظات.. لكني لم أندهش.. فقد كنت كالميت الذي يدخل

لأول مـرة القـبر وينتظـر الحسـاب. دخلـت حجـرتي وأنـا أتجـاوز حديـث حمـزة ونكاتـه المعهـودة، حتـى إن أمـي تعجبـت، وجذبنـي حمـزة مـن ذراعـي فلـم أرد، ودخلـت غرفتـي، وأغلقـت البـاب جيـدًا، وعـلى فـراشي رحـت في بـكاء ونحيـب وصراع مـع قلبـي المفطـور.

تجاهلـت طرقـات أمـي وحمـزة عـلى البـاب، لم يهـدآ حتـى جـاء يحيـى، وكأنـه خـرج خلفـي، لكنـه لم يلحـق بي، سـمعته يقـول لـه، اتركوهـا، وتركـوني... لا أدري مـاذا قـال لهـم.

رحـت في حالـة مـن انعـدام الوعـي حتـى الصبـاح، الغريـب أني اسـتيقظت لا أتحـدث... لا صـوت لي، فقـط أنظـر لـكل مـن حـولي، وحتـى أمـي راحـت في إغـماءة، وبقيـت أنـا وهـي تحـت إشراف الطبيـب... لم تطمـئن إلا عندمـا أخبرهـا الطبيـب أنـه عـرض زائـل.

بقيـت في فـراشي أسـبوعًا، أتذكـر حـالي.. وكل مـا مـر بي، تذكـرت كـم مـرة تخـلى عنـي خالـد، لقـد كان إثـر كل أزمـة يتنـازل، وأنـا مـن أقـوم بالضغـط عليـه، هـو قـطُّ لم يكـن يحبنـي، أنـا مـن أهنـت نفـسي، بقيـت أمـي إلى جـواري، كنـت ألمـح الدمـع في عينيهـا، لكنهـا تحـاول أمامـي أن تخفيـه.

تحدثنـي طـول الوقـت، تحـاول طمأنتـي... تتوسـل لي أن أتكلـم، تقـول لي أريـد أن أسـمع صوتـك، كانـوا يلتفـون حـولي كل مسـاء، جـمال وحمـزة وأبي... حتـى يحيـى وزوجتـه نجـوى، يتجمعـان عـلى الطعـام حتـى آكل لكنـي لا أسـتطيع، وجودهـم حـولي هـون عـليّ بعـض الـشيء.

وفي يـوم الخميـس والجميـع ملتـف حـولي في غرفتـي يمرحـون ويأكلـون دخـل جـمال، قائـلًا عنـدي لكـم أخبـار طيبـة، نظـر الجميـع لـه، ونظـر هـو لي ثـم لأبي موجهًـا الحديـث لـه.. الأسـتاذ «ناجـي عـز الديـن» يطلـب منـك موعـدًا يـا أبي للزيـارة، تعجـب أبي وقـال: لمـاذا؟

قال جمال: يريد أن يطلب منك «ليلى».

تعجـب الجميـع وسـاد الصمـت.. رد يحيـى: كيـف؟ هـو يكبرهـا بأكـثر مـن عشريـن عامًـا. قـل لـه يـا جـمال طلبـه مرفـوض.. لا تحـرج أبـاك.

نظـرت ووجـع قلبـي يتجسـد كلـه في كلمـة، لا أدري كيـف خرجـت منـي وأنـا مـن لم تتحـدث منـذ عـشرة أيـام، قلـت.. لا تقـل لـه «لا» يـا جـمال... أنـا أوافـق عـلى الـزواج.

نظـر الجميـع لي بدهشـة وحـيرة وحـزن وفـرح، سـعدت أمـي عندمـا سـمعت صـوتي أخـيرًا بعـد صمـت دام طويـلًا، وتعجبـوا هـم مـن قـراري، وأنـا مـا زلـت قيـد الجـرح والوجـع، لم أنـس نظـرة يحيـى لي، كنـت أعتقـد أنـه سـينهرني لـو كنـت في حالتـي الطبيعيـة، أخـي يعـي تمامًـا أن هـذا الشـخص لا يصلـح لي...

لم أسـمع صـوت أحـد منهـم.. غـير أن يحيـى وقـف مضطربًـا مغـادرًا مـع زوجتـه، قبّلنـي وربـت عـلى كتفـي وغـادر.. الـكل بقـي ينظـر لي بشـفقة، فهـم يعلمـون أن جرحـي غائـر وأني ألقـي نفـسي في بحـر هائـج لـن أقـوى عـلى الغـوص فيـه ولا الوصـول عـبره إلى شـط أمـان، طلبـوا منـي أن أرتـاح، بعـد أن تناولـت دوائي... كانـت المهدئـات قويـة إلى الحـد الـذي يجعلنـي أنـام بعـد تناولهـا مبـاشرةً.

في صباح اليوم الثاني استيقظت متأخرًا. وكأني أهرب بالنوم من واقعي المرير، وجدت شيئًا غريبًا بالبيت، حركة غير عادية.. صوت عمي بالداخل وأبي كان عاليًا على غير العادة، وأصوات أخرى لم أسمعها جيدًا.

وقفت بصعوبة وقربت من الباب، أشرت لحمزة، قلت: تعال.

فجاء.. سألته: من بالبيت؟

ضحك قائلًا: إنه العريس.

تعجبت.. أبهذه السرعة: حدثتني نفسي.

عدت إلى فراشي أرتعد.. قبضة في صدري تشتد حتى تقتلع أنفاسي وتصيبني بالدوار، وهكذا بدأت أعراض انسحابي، من بين جفوات العشق إلى واقع لا أشتهيه ولا أستسيغه... حتى المُسكِّن الذي قررت تناوله كان مرًا يقطع أحشائي فور كل تعاطٍ، كنت أحتاج أدوية العالم حتى تُسكِّن أضراره القاضية.

أنا لم أُنقذ من عناء الفراق، لكني أضفت إلى وعثائي عناءً واضطرابًا.. عاندت نفسي فألقمتها قهرًا، وألقيتها في بحر غريق، لا أدري، شعرت أني أُهنت عندما تخلى عني، فبدون قصد قررت أن يعلم أن غيره يحتاجني ويرغب بي.

وبعيدًا.. في أحضان الظلمة رميت روحي بلا ثمن... وعلى صدر العتمة بدأت أترنح ثم أثمل من هول كارثتي. وقررت الفرار من مرقدي، قررت الكتمان، ومداراة وهني عن وجه أمي، اعتدت أن أبكي في العتمة، أو في قلب وسادتي. وأن أخفي أثر الدمع جيدًا حين أنهض وأزيل وجهي ببعض من ماء بارد.

يقولون لي: أكنتِ تبكين، ما بها عيناك؟

- أبدًا، كنت أنظف وجهي من غبار الجرح.

- أخبرينا لِمَ تخفين حرائقك؟

أضحك قائلة «أبدًا، لا شيء».

وكنت أعلم وتوقن نفسي أن البوح يعجز عن قراءة رسائل البكاء، وقلوب البشر تختلف على معنى الدمع كما تختلف على معنى الحسرات. وأن الحزن حين يتسيّد الروح، لن يتنازل عن مقعده لفرح مزيف. وأن الدمع حارق إذا أُسقط في النور.

أفقت فقط من غفوتي بعد جرحه لي يوم زفافي، وأنا واقفة أمام المرآة بالثوب الأبيض، كنت عروسًا جميلة رغم كل شيء، في قاعة جوار شقة يحيى تم زفافنا، وجوار حلمي المقطوع على غصنه، وفي بيت كبير في أرقى الأماكن وسط المدينة عشت حياتي مع رجل يكبرني بما يقرب من عشرين عامًا. ويسبقني عقليًا بأجيال وأجيال، وروحه تنافر روحي. ولا تماثلني في شيء.

منذ اليوم الأول أدركت حجم كارثتي وأنني على أعتاب القيامة، أنتظر تكفير ذنوبي ودفع ثمن سيئاتي..

كان الدكتور ناجي عز الدين أستاذ القانون عينه لا لون لها، لا هي سوداء ولا خضراء، ولم أر لها مثيلًا، ذا بشرة بيضاء، أصلع مستدير الرأس.. بقايا شعره تتناثر في مؤخرة رأسه.. يرتدي زيًا كلاسيكيًا طول الوقت.. لم أعامله يومًا إلا كرجل خمسيني فهو يبدو أكبر من سنه بكثير.

تفاجأت يوم العقد أنه يكبرني بأكثر من عشرين عامًا، أي أن عمره قرب من

الخمسين فعلًا، ثار يحيى ساعتها وقال إنه خدعنا، لكن والدي خشي على إحراج الدكتور، وطلب من يحيى السكوت..

منذ اليوم الأول أدركت أنه رفيق سكن لا أكثر، بقيت أتمنى منه اللطف واللين. في الشهور الأولى تعلمت كيف أعامله، يحتاج البيت هادئًا معظم الوقت، لا يحب الزيارات العائلية ويكره صوت الهاتف، يتضايق من علاقتي بأخوتي، ويكره مجيئهم، ولقد لاحظوا ذاك فامتنعوا عني وتركوني في همي.

لا يطيق تعاملي مع أحد، يريدني مثله. نهرني عندما أرسلت تحيتي لجارتي التي تقطن أمامي مباشرة، حتى أهله، لا أحد يأتي لزيارتنا ولا نحن نهتم بأحد، لم أعرف له عائلة غير أخيه القاطن في قريتنا الصغيرة ولم أره منذ الزواج لا هو ولا أبناءه.

لا يعرف متع الحياة ولا يتقبلها، مغلق على نفسه وقراءته.. يجلس طول اليوم في حجرة المكتب بعد عودته من الجامعة إلى أن يحين موعد نومه، بالكاد يتناول معي الطعام، يضحك مني ساخرًا حينما أطلب منه الخروج أو التنزه، يتهمني بالحماقة لو طلبت منه أسطوانة لمقطوعة موسيقية أو ديوان شعر.. أو رواية... ويستمر في اتهامي بالحماقة..

لا أذكر يومًا أن أثاره شكل شعري، أو أُعجب بملابسي أو حدق في عيني.. ولا أذكر مطلقًا أنه قبلني.. ومرت الأيام بي وأنا أكمل قصة موتي، يرفض دائمًا زيارتي لأهلي، أذكر أنه يوم زفاف جمال لم يسمح لي بالذهاب إلى أسرتي لأشاركهم الفرح، ورافقني إلى الحفل؛ فقط لأن عروس أخي هي ابنة مستشار صديق له، عندما رأتني أمي انهارت من البكاء واحتضنتني بشدة. وبقيت طول الوقت جواري

مكلومة لسوء حظي.

قالت لي أنها لم تكره أحدًا في حياتها مثل هذا الرجل الذي تزوجت، أخفيت قهري أمامها، وحبست دموعي بصعوبة. كنت في قمة ألمي وأنا أنظر ليحيى ونجوى وآدم طفلهما الجميل... حتى العروس الجميلة زوجة جمال هي قريبة منه في السن وفي الملامح وحتى الصفات وهي من أصرت عليه وأرغمت والدها على القبول.

في الدنيا كل النفوس راضية إلا نفسي تتقلى على بركان من الأسى لا يهدأ.. كنت ألحظ والدي يختلس مني نظرة بعد أخرى.. تأكدت حينها أنني بقيت جرح الأسرة النازف.. وقبل انتهاء الحفل بكثير. جاء يطلب مني أن نغادر فهو متعب يحتاج للنوم.. بقيت أمي تحاول إقناعه لإبقائي معها الليلة، لكنه أحرجها كالعادة... وتركها تبكي وغادرتُ معه... رفضت أن أبقى جواره في السيارة.. ركبت في الخلف.. متعجبة من هذا الرجل!

أسأل نفسي لمَ تزوجني. هو لا يحتاج أبدًا لزوجة ولا حبيبة، فقط يحتاج مرافقًا يقضي له حوائجه، لكنه لا ينتبه لي، لا لفرحي ولا لحزني، ولا يسألني أبدًا عن حالي حتى في مرضي.. هو يرسل لي طبيبًا فقط.

لم أر اثنين على الأرض أبعد بعضهما عن بعضٍ منا.. هو في وادٍ لا يشبه روحي وفي دنيا لا تشغلني... جوار مراجعه وكتبه وأبحاثه.. لا تستوقفه الدنيا، فهو لا يمتلك أيًا من مقوماتها، فقط تستهويه المادة الجافة داخل أروقة فكره، وسباق يلهث للفوز فيه واللحاق بنهايته، يتقافز فوق مواد القانون، يلاحق الزهو ويسابق الأجل، وكأن المراجع قبر وكفن،

دخلت منزعجة إلى حجرتي، تلك التي أحيا بين جدرانها فقدي، وهرول إلى مكتبه قائلًا: أسرعي بالقهوة.

لم أرد، أغلقت بابي وعلا صوت نحيبي، ولم أبذل جهدًا في خفضه، هو لا يهتم بي... ولا يسمع صوت بكائي، أتذكر أني حاولت مرارًا الاقتراب منه.. أن أتلمس شيئًا داخله.. سألته عن طفولته.. عن هواياته.. عن حبيبته.. كان يضحك لتفاهتي قائلًا: أعجبتني تفاهتك هذه وأنت طالبة في مدرجي، نظراتك البريئة الطيبة... كنت أحب ابتسامتك، رأيتك كنزًا قررت الاحتفاظ به...

مستفز.. زوجي مستفز.. قررت أن أنفصل، حدثت نفسي.. في الصباح سأهاتف يحيى، سيسعد كثيرًا عندما يسمع الخبر.. فلطالما اقترح هو فكرة الانفصال هذه...

صباحًا كان يدق بابي، قائلًا: أعدي بدلتي الرمادية، ورباط عنقي الأسود، قلت: حاضر، أعد لك الإفطار؟

- لا، لقد تأخرت.

وبقيت وحدي ولم أفعل شيئًا، وأين سأذهب ولمن؟ شهور حتى عاد الشتاء، يحمل همس الماضي البعيد، وزخات عشق لم يعبأ بنا، وهمسات شجن حائرات، وفنجان قهوة ارتعد حين أطل الصبح بعبق المطر، ويدان تتعريان حين لقاء تشرين، ومعطفه الأسود الذي ألبسني إياه ذات برد، معانقًا أشعة شمس غارت من لقائنا فلم تشرق.

كنت أتلمس من عينيه البريق، وفي العتمة هو نوري وناري وبريقي، كنت ألتحف صوته فأشعر الدفء والسكينة.. قمت من شغفي، اسمع صوت المطر،

لبست شالي الأسود وفتحت شرفتي، قابلت بابتسامي زخات اخترقت حرمة حجرتي، فنسيت نفسي وأطلقت شعري يداعبه النسيم، وغسلت بالمطر كل شجني وسهدي وذبولي، وألقيت شالي أرضًا، بللت عنقي بالماء، فهبت ريح أظهرت كل مفاتني وذكرتني أني أنثى، وأني جميلة حين تمطر السماء وتثمر الأرض، وفي الأسفل الناس تجري تختبئ من المطر، كيف هؤلاء يهرولون من هذا النعيم... كيف؟

كيف كل الشرفات والأبواب مغلقة، كل القلوب تكتفي.. وأنا وحدي من أبحث عن اكتفائي بالمطر، وماذا خلف الأبواب المغلقة، يسمع قلبي ضجيجًا، أصوات أواني ولهيب نار، أكلات تطهى.. مشروبات ساخنة، أغطية وثيرة. أطفال تلهو.. وأمهات تنهرهم أن أغلقوا النوافذ حتى لا تصابوا بالبرد.. وهناك زوجة تتوسد صدر زوجها، وتلتحف مودته، يشربان الشاي ويتبادلان القبلات الدافئة ويثملان على أسطوانة قديمة تعلموا على ألحانها العشق، وتلك الطفلة البعيدة تلتقف من ثدي أمها قطرات من لبن دافئ، فتهنأ الأم بنوم الصغيرة فتقبلها.. وتربت عليها فتُسقى غريزة الأمومة سكرًا...

فقط أنا.. زوجي يلتحف كتبه وينتشي بمراجعه، ويشرب قهوته بلا ونس.. عامان وأنا أنتظر موتًا يخرجني من قبري الضيق ويرفعني عنان السماء، ألم يأن لي أن أخرج من موتي لأتنعم في ملكوت الخالق، ألم يأن لي أن أحلق كالطيور، ألم يحِن وقت هروبي؟

أغلقت شرفتي، وأنا أرتعد ودموع وحدتي تحرقني.. أحتاج حضن أمي وصوت أبي، ودفء بيتنا القديم، ليتني ما فررت إلى مستنقع الوحدة هذا..

تحممت برفض لحالي، بوجع وقهر، وبماء ساخن، وخرجت لأقف أمام مرآتي

عاريـة إلا مـن اليـأس، تتسـاقط مـن جسـدي أوراق عمـري، ويتبقـى الذبـول قابعًـا في بـرك القهـر ومسـتنقعات الفكـر..

فتحـت خزانـة ملابـسي أبحـث عـن بديـل يبعـث الـدفء في الجسـد الواهـن، وأنـا أمـر بهـا وجـدت كل مـا اقتنيـت مـن ملابـس أنثويـة رقيقـة قيـد العفـن والوحـدة مثـلي تمامًـا، حقائبـي، أحذيتـي ذات الكعـب العـالي والبريـق اللافـت، معطفـي، قمصـان نومـي، حتـى عطـوري كـما هـي، ربمـا هـي الوحيـدة الباقيـة.. معتقـة قديمـة..

حجـرتي لا أنفـاس فيهـا ولا مواقـف، ولا أدنى درجـات القـرب، سريـري يشـكو الهجـر، أذكـر حـين قـال «حجـرتي خـط أحمـر». آن لي أن أفكـر في رحيـل، بعيـدًا عـن هـذا العقيـم، عقيـم القلـب والفكـر.

ارتديـت ملابـسي الثقيلـة جـدًّا، وذهبـت إليـه في حجـرة مكتبـه، طرقـت البـاب، قـال: أنـا مشـغول الآن عـودي بعـد سـاعة.

جننـت.. فتحـت البـاب بعنـف، نظـر إليّ بغضـب، حاولـت أن أقـاوم، ادعيـت الصلابـة والقـوة. قلـت لـه: طلقنـي!

خلع نظارته، ناظرًا لي بعمق وتعجب: أجننتِ، ماذا تقولين؟

هممـت بالحديـث فعـلا صوتـه قائـلًا: أنـا مشـغول الآن.. اكتبـي مـا تريديـن قولـه وضعيـه عـلى مكتبـي مسـاءً.

وارتـدى نظارتـه وعـاد إلى أوراقـه وعـدت أنـا إلى حجـرتي، لا حيلـة لي إلا البـكاء. لكـن مسـكت ورقـة وقلـمًا.. وكتبـت: «منـذ عرفتـك وأنـا أصبحـت أقـل، لا عـزوة لي، وحيـدة لم ألـق نفـسي معـك، أصبحـت بالنقـص أكتمـل، وبالوحـدة أحتمـي، لا أشـعر

أني زوجة، ولا حتى رفيقة عمر، ولا صاحبة سفر، أين أنت فيّ، وأين أنا من قلبك، طلقني، أريد طفلًا أعيش له. ردك يكون بصوت لا بقلم».

ووضعت الخطاب مساءً على مكتبه، وأشعلت المدفأة في حجرتي الباردة وهربت كالعادة في نوم كالموت. صباحًا نادى عليّ، قائلًا ارتدي ملابسك.

قلت: لماذا؟

لم يرد، ارتديت ملابسي وأنا سعيدة، ربما سيقوم بتوصيلي إلى أمي، معي حقيبة يدي، انتظرته يسألني عن حقيبة سفري لكنه لم يفعل، ركبت معه السيارة وأنا لا أجرؤ على سؤاله، إلى أين أنا ذاهبة؟

ومشينا باتجاه القاهرة، سألته: «إحنا رايحين فين؟»

نظر لي ولم يرد.. وضعت رأسي على مقعد السيارة وبقيت أنظر للطريق، وأمام إحدى المباني البالغة الفخامة وقفت السيارة، ليتضح لي بعد نزولي أنها مستشفى تخصصي لأطفال الأنابيب وعلاج العقم، تعجبت!

خشيت أن أسأله لا يرد، لماذا أنا هنا؟ عقلي يكاد أن يجن، وجدته يسأل عن الدكتور «تامر عبد الحي» أخصائي العقم وأطفال الأنابيب، قال في الاستقبال أن لديه موعدًا سابقًا مع الطبيب، عرّفها بنفسه بغرور كالعادة، أنا الأستاذ ناجي عز الدين بروفيسور القانون الجنائي، قامت واقفة مرحبة به وبي، اتجهت معنا إلى المصعد الكهربائي قائلة: هو ينتظركما في الدور الرابع، حجرته جوار المصعد يمينًا.

بدأ يزيد توتري وقلقي.. حتى إني فكرت أن أفر منه، هروبًا مما يفعله بي وكأني آلة يحركها كيفما يشاء. عند الطبيب الذي رحب به جدًّا، وبدأ يسأله عن

حاله وكأنه يعرفه، بدآ يتحدثان بغموض، وأنا أحاول أن أفهم لا أستطيع.. فقط طلب فحصي فلم أستطع الفكاك من الأمر.

بعدها طلب أشعات وتحاليل داخل المشفى، جاءت منار، تلك الممرضة الجميلة، اصطحبتني إلى حيث وجهها الدكتور تامر، كنت في حالة من الهلع والتوتر، لا أدري ماذا يفعلون بي.. وبعد انتهائي من كل طلبات الطبيب جلست جوار معمل التحاليل أنتظر النتائج... نتائج ماذا لا أدري...

بعد أكثر من ساعتين، عدت إلى الدكتور تامر مرة أخرى، اطلع على أوراقي، كل التحاليل والأشعات التي طلبها. ضحك وقال: خير إن شاء الله، سأكتب لك أدوية وبعض الحقن التي ستُأخذ في مواعيد محددة أكتبها لك فالتزمي بها.

قلت: لماذا؟

تعجب الطبيب.. ونظر لي ناجي نظرة غضب واحتقار أربكتني، وبدأ الطبيب ينظر لي وله، ثم قال: لا تخشي شيئًا، فقط تتناولين الأدوية وتتبعين التعليمات المكتوبة ثم تأتين في الموعد المحدد.

وأعطى زوجي روشتة لا أعلم ما بها..

ركب السيارة بعد أن اشترى بعض العصائر المثلجة، والمقرمشات من سوبر ماركت كبير جوار المبنى، لم أتحدث.. ولم يدعوني للطعام، بدأ يتناول طعامه ويلتهمه بقوة... بقيت أنظر الطريق... أخشى الكلام.. لكني قررت أن أشرك يحيى بالموضوع، لن أتحدث معه بعد اليوم، سأنفصل. لقد تأخر الأمر كثيرًا..

أيام لم أَذُق طعم النوم ولا الطعام، اتصل بي يحيى. رددت بصوتي المخنوق

ودمعـي الحائـر:

- يحيى أخي، اشتقت لك، أين أنت؟

- ما بك.. ليلى لماذا تبكين؟

- الحقني يا يحيى، هذا الرجل سيكون سبب موتي.

- ماذا حدث؟ تكلمي، هو عندك؟

- لا.

- إذن أنا في الطريق إليك.

- أنتظرك، لا تتأخر.

وكان أطـول وقـت مـر عـليّ.. وجـاء يحيـى وحكيـت لـه همـي ومعانـاتي مـع هـذا الرجـل الـذي لم أكـره أحـدًا في الكـون مثلـه، لكنـي أخفيـت مـا لا يمكـن البـوح بـه. قـال لربمـا يعـاني مـن العقـم، هـو أدرى.. ولربمـا قـرر أن يعوضـك... ليـس معنـى أنـه أخـذك إلى هـذا المستشـفى إلا هـذا..

- لكني كرهته.. لا أريد أطفالًا منه ولا عيشًا معه

- حبيبتـي، أنـت تحملـتِ عامـين وبعـد أن بـدأ يحقـق لـك حلمـك بطفـل ترحلـين.. هـو متعجـرف ومغـرور لكنـه يوفـر لـك حيـاة رغـدة.

- أي حيـاة يـا أخـي أنـا أعيـش بمفـردي.. هـو يسـتقل بغرفـة بعيـدة عـن غرفتـي، لا يتنـاول طعامًـا معـي إلا بالصدفـة، مشـغول طـول الوقـت بأبحاثـه ودراسـاته، أنـا كالأمـوات.

- تتحدثين كنجوى تمامًا، دوما تشتكي، منذ أن فتحت المكتبة واستقللت بعملي وهي تشتكي... انتظري ليلى ربما منَّ الله عليك بطفل.. لقد قربت من الثلاثين وفرص الإنجاب ستبقى قليلة بعدها.. أريد أن أرى لك طفلًا حبيبتي.

أومأت برأسي، قلت له سأفعل..

- ابعث لي أمي قل لها أني أحتاجها.. أعلم أنها سترفض فهي تكرهه وتكره بيته... طلبت منها كثيرًا وأنا أهاتفها لكنها لا تستجيب..

قال: سأفعل. وغادر بيتي وتركني بقهري أرتكن إلى حائط المرارة والحسرة، ماذا عليّ أن أفعل وكل القهر يملؤني، لم أكن أتوقع من يحيى هذا الرد، ظننته أول من يعينني على الطلاق، لكنه عندما سمع بإقبالي على الدخول في معترك إنجاب طفل.. منعني وأبدى لي أن أنتظر.. قال لو تم الأمر على خير أرضى بقدري وأربي طفلي، وإن لم أُوفّق، أُطلق.

إنها مساومة غريبة حقًا، العمر كله في حرمان، ربما في الآفاق سند، أين أنا من هذا، ولماذا أنجب من هذا الرجل، وماذا لو علم أخي أنني ما زلت عذراء، وأني أفتقد صدرًا أحتمي فيه، هل أستطيع إعلان الأمر بعد عامين من التحمل والصبر؟

لا أستطيع. بل أخجل من أن أحادث زوجي في الأمر، منذ زفافنا وأنا أعيش معه وكأن هذا هو الوضع الطبيعي.. كنت أود لو احترمني وأخبرني ما به، وأنا معه عند الطبيب، تلمست أنه صديقه وكأنه اعتاد المرور على هذا المكان.

بين الحيرة والوجع يتقافز شعوري، لا أستطيع اتخاذ قرار. لكني أعلم جيدًا

أنها مرحلة خطيرة في حياتي قد يترتب عليها قرارات مصيرية، تغير طريقي تمامًا، بدأت أولى خطوات العلاج والحقن، ولا أدري أصوابٌ ما فعلت أم خطأ، وكان الأمر شاقًا جدًّا، فلقد حدث تغير كامل في جسمي، آلام واضطرابات نفسية، وأنا لا أستطيع تحمل الوجع ولا معاناة التجارب، ذات ليلة باردة، كدت فيها أن أتقيأ أحشائي، هرولت إلى حجرة مكتبه، دفعت الباب دونما استئذان، قلت له وأنا أصرخ في وجهه: أريد الطلاق!

فنظر لي متعجبًا، وقام لأول مرة في حياتنا، وضع يده خلف ظهري وأخذني إلى سريري وألقى عليّ الغطاء، سمعته يحدث والدتي أن تأتي لي لأني أمر بظروف صحية، لم تمض ساعة، حتى دخلت والدتي بيتي، وهي التي لم تقبل بهذا منذ زمن، وبقيت أمي أيامًا معي، ورافقتني أثناء العملية وهو ما هون عليّ الأمر.

طلبت منه أن أذهب معها إلى بيتنا لترعاني لأن حمزة في السنة النهائية في معهد الكمبيوتر ويحتاجها؛ فهو يسافر يوميًا إلى معهده، ووالدي لا يستطيع الاستغناء عنها، وعلى غير العادة وافق، وذهبت إلى بيتنا عشرة أيام جوار الأرض الطيبة والزرع الأخضر والهواء النظيف، قضيت أيامًا جميلة بين الذكرى والصبا وأيامي الأجمل، دللني أبي ودعا لي كثيرًا.. كنت أبيت جوار حمزة يضحكني حتى البكاء، بقي يحكي لي عن «سها» جارتنا الجميلة التي تصغره بثلاث سنوات، أمها صديقة أمي منذ زمان، وهي آخر العنقود، تزوج أخوتها جميعًا وبقيت تخدم والدتها المريضة، قال:

- أمها تعرف أننا اتفقنا على الزواج، هي في الصف الثاني الثانوي، أذهب معها وأجيء حتى عرف أهل القرية كلهم بقصتنا.

قام وجاء بحقيبة صغيرة، وأفرغها أمامي، وجدت بها زجاجتين من العطر الفرنسي الجميل، وبعض أدوات التجميل من الماركات العالمية وبعض الإكسسوارات، وخاتمًا من الفضة مطعمًا بفصوص متلألئة براقة. ورسائل عشق ملتهبة.. قال أنه يجمع لها الهدايا منذ أول العام إلى أن يحين عيد ميلادها الذي هو بعد أيام قلائل..

بقينا نتحدث حتى الفجر... كان لا يغادر حجرتي إلا حين أدفع به خارج المنزل وأقول له: هيا اذهب للصلاة.. سأصلي وأنام هيا.

في بيتنا الكبير الحاني وجدت ما حرمت منه سنوات.. حتى إني نسيت الطفل وخرجت من سكرتي وانتشائي بأمي توقظني قائلة: قومي يا ليلى الدكتور ناجي في الخارج.

فُزعت، قلت: ماذا؟

- كما سمعتِ.. هو مع والدك يجلس على المقاعد خارج البيت.. يقول لك أعدي نفسك أنت راحلة معه.

- ماذا!

- حاولت أن أضغط عليه لتبقي لم يقبل.

وغادرت معه تسبقني دموعي إلى جحيمي، نظر لي قائلًا: ماذا بك؟

قلت: لا شيء!

وصلت منزلي وكأني أساق إلى الموت، قال: ما بك؟

قلت: مخنوقة أريد أن أرحل بيت أبي.. أريد أن أبقى هناك.

- أجننت!

- لا أعرف.. ربما عدت لرشدي.

- كيف تجرؤين على التحدث معي بهذا الشكل؟!

- أنا مللت الحياة معك.. كل شيء فيّ يرفض بقائي هنا، طلقني أنا لا أحبك... لماذا تزوجتني.. لماذا تجبرني على إجراء عملية ولماذا أقوم بعملية أصلًا وأتناول أدوية تقطع فيّ، لماذا تظلمني؟

قال بصوت مرتفع: تصورتك تختلفين عن النساء، لكنك مثلهن ترفضن عقل الرجل وحكمته وتهتممن فقط بمدى قدرته الجسدية.

صرخت في وجهه قائلة: ماذا تقول؟ أجننت... ما لي بالنساء... وأنا منذ عامين متزوجة اسمًا فقط.. لم أسألك حتى لماذا لا تبقى جواري، كيف تفكر هكذا؟ أنا أحيا بمفردي.. تعانقني الوحدة كل ليلة.. لا صديق ولا حبيب ولا زوج... لا نلتقي أبدًا.. ماذا تسمى ما بيننا.. أنت معقد...

لم أع إلا أنه لطمني صفعة على وجهي.. ونظر إليّ مستخفًا وغادر... دخلت حجرتي لا أقوى على شيء. اتصلت بأمي أبكي، أتوسل إليها أن تأتي تجمع معي أغراضي، كنت في حالة سيئة لا أقوى على الكلام.. فجاءت تبكي حظي وظروفي وخرجت دون إخطاره.

بقيت في منزلنا.. فعادت روحي من جديد، جوار أهلي لا أريد شيئًا.. حمزة وضحكته الجميلة.. سها تلك الصغيرة التي هي أجمل ما في حمزة، وجدتها

تخترق وحدتي عندما أعلمها حمزة بحالي، فكانت تأتي لي يوميًا، بسمارها وشعرها الأسود الحالك وخفة ظلها، كل ليلة تسهر معي على ضوء القمر وأحيانًا يباغتنا المطر، فنداعبه فيغازلنا، كم من مرة تحممنا به، وتطيبنا بضوء القمر، وسكبنا كل آهاتنا خلف غيمات الليل الحائرة.

الفصل التاسع

على مشارف الخمسين وقبل أن تذبل كل أغصان العمر وتتساقط أوراقه.. قد يتساقط المطر، لكنه في غير أوانه فيجذبك حين نزوله فتنتشي، لكنك تكتشف أن أضرار نزوله تغير تدابير الكون.. الفراشات الشجيات تتطاير سعيدة بالربيع لكنها لا تعلم أن بعد الربيع صيفًا حارًا تموت على أعتابه الأنفاس.

طرق الباب صباحًا.. ترددت أن أفتحه لكن الطرق عاد بشدة.. قمت... فتحت الباب فإذا بها هي، انزعجت عندما رأيتها... قالت: انتهت المهلة.. ردك؟

قلت: ردي لا علاقة لك به..

قالت: ماذا؟

قلت: كما سمعت.

قالت: ماذا!

قلت: سأقول رأيي له فقط، قولي له أني أريده اليوم، سنتناول الغداء معًا...

وأغلقت الباب بشدة.. نعم تصرفت بحماقة.. لأني أكره هذي السيدة، لم أكن أتصور نفسي قطّ بهذا الحمق.. لكن أهذه المرأة تصيبني بالتوتر؟ ماذا أقول له؟ لست أدري، لقد وضعني في مأزق، ماذا لو خيرني بين الزواج أو الرحيل.. هل أرحل وأترك دم ابني وأخي موزعًا بين الجماعات، وهل هو قاتل، كيف قاتل، كيف انحرف فكريًا وعقليًا إلى هذا الحد؟ سأكون صريحة معه، سأسأله عن قاتل ابني،

أفقت من غفلتي على صوت الهاتف، إنه مصطفى.

- أهلا مصطفى.

- أهلا ست ليلى. كيف رجعتِ دون المرور عليّ؟

- لم أرجع، أنا ما زلت هنا عند أصدقاء قدامى.

- كل يوم أنتظرك.

- اطمئن، لن أعود حتى أمر بك. كيف حالك مصطفى؟

- أنا بخير.. هي اضطرابات الحياة.

- ماذا بك، تحتاج شيئًا، أستطيع مساعدتك في شيء؟

- شكرًا لك يا ليلى، أخي عزيز ابن هذا الوغد الذي أكل حقي يحاربني في أكل عيشي.

- كيف؟

- هو منذ وفاة والده يعاني من اضطراب نفسي لأنه كان مدللًا جدًّا، ووالده «سلامة السفطي» كان يعامله كملك متوج، لما مات سلامة في عملية إرهابية في العريش أودعناه مصحة نفسية، من فرط تصرفاته غير المسئولة حتى إنني كنت أنفق عليه راضيًا والله يا ست ليلى، لكنه خرج منها ولم يكمل علاجًا. وجاء هنا إلى الكافتيريا يعمل معي، لكن اضطرابه واضح للجميع، يتصور العائدين والقادمين إرهابيين ويدعي أنهم قتلة والده، بالأمس مسك في رجل ستيني مريض كاد أن يقتله، يقول له أنت تخبئ المتفجرات في حقيبتك، يضعني كل يوم في موقف أسوأ،

حتى قلّ قدوم الناس إلى الكافتيريا، هذا فقط جزء من همومي.

قلت: لا تقلق سأتدبر الأمر، هون عليك مصطفى، وكيف أخبار والدتك؟

- مريضة حزينة على أخي.

- الله معها.. بلغها سلامي وسأتصل بك قريبًا.

- ألم تسمعي عن العملية التي حدثت فجر اليوم؟

- لا، لم أسمع شيئًا، ماذا حدث؟

- لقد حدث عمل إرهابي كبير، راح ضحيته ضابط وأربعة عساكر.

- ماذا؟

- ربما تكونين قد رأيتِهم في طريقك.

- من أين هؤلاء؟

- كمين في مدخل الحسنة، الضابط حسام كان رجلًا خلوقًا.

- من؟ حسام! أعرفه جيدًا، ذاك الشاب الأسمر، إنه ما زال صغيرًا في السن.. انتقم الله من هؤلاء الخونة، إنه ينتظر طفله الأول!

- نعم، الإعلام يحكي عنه منذ الفجر. أستودعك الله ست ليلى، سأذهب لدي زبائن.

- في رعاية الله.

غالبتني دموعي، تذكرت حمزة، تذكرت ياسين، انشق قلبي وأوجعتني الذكرى،

حمـزة جرحنـا الأول، حينـما أنهـى دراسـته جـاءه خطـاب تأجيـل مـن الجيـش، فـرح فرحًـا شـديدًا، وبـدأ يتـولى كل شـئون الأرض مـكان والـدي، وفي أوقـات فراغـه كان يعمـل في المكتبـة مـع يحيـى، كان وسـيمًا أسـمر، عينـاه سـوداوان، أنيقًـا. نحيـل الجسـد، طلـب مـن أبي أن يتقـدم لسـها وهـي في الصـف الثالـث الثانـوي، وبالفعـل تمـت الخطبة بعـد الضغـط عـلى أبي.

لم يكـن مقتنعًـا، لقـد كان حمـزة صغـيرًا، لم يكمـل الاثنـين والعشريـن بعـد، لكنـي و«جـمال» و«يحيـى» بقينـا نضغـط عـلى والـدي حتـى وافـق، وبـدأ أبي في إعـداد بيـت لأخـي جـوار البيـت، وقـال لـه الـزواج بعـد أن تنتهـي العـروس مـن الجامعـة وتنتهـي أنـت مـن تجهيـز نفسـك، وقـرب موعـد الزفـاف طُلـب أخـي للخدمـة العسـكرية، وكانـت صدمـة لـه ولعروسـة لكنـه سـلم بالأمـر الواقـع، وأجـل الزفـاف عامًـا حتـى ينتهـي مـن الخدمـة العسـكرية، لكنـه انتهـى ولم ينتـه..

راح إثـر ضربـات إرهابيـة في القاهـرة، وكانـت مـن أولى العمليـات الإرهابيـة في مصر بعـد مذبحـة الأقـصر، وجـاء أخـي ملفوفًـا بعلـم الوطـن، ناعسًـا في مرقـده، كعريـس يوم عرسـه وجهـه وجـه القمـر.. وكانـت أقـسى المواقـف سـاعة أن ارتمـت سـها فوقـه وهـو جثـة هامـدة، لم تتحمـل أمـي ولم يتحمـل أبي، في نفـس العـام فقدتهـم جميعًـا، أبي أولًا ثـم أمـي بعـد هـا بشـهرين.

كان عـام ٨٩ عـام الفقـد.. حتـى هـؤلاء الذيـن يعينونـك عـلى تحمـل الواقـع يذهبـون وأنـت بـاقٍ يناكـف فيـك القهـر وكنـت تتنصـل منـه بالـشيء الوحيـد الباقـي، لكـن لا شيء يرحـم بعـد أن طـارت كل حمائمـي مـن فـوق عـشي وبقـت كل الثعالـب تلتـف حـول قلبـي. مـن أيـن نسـتقي الصـبر إذن؟ وفيمـن نحتمـي؟ خـلا الواقـع ممـن

تقاسمنا معهم الحياة وبقي اليأس صديقًا صدوقًا.. لا يمل، ولا ينهزم.

وجدتني أغرق في دمعي الحارق، وأقاوم أملي بالرحيل.. أحاول أن أتخلى عن هزائمي.. إلى أن أثأر للراحلين من هؤلاء الذين يستخدمون الدين ذريعة للتفحش، وتنفيذ أغراض وقحة لأقذار، هم كعرائس الماريونيت يُستغل جهلهم بالإنسانية، وسوء فهمهم للدين. سأثأر لو كان المقابل دمي.. أثأر لحسام وحمزة وياسين وكل مصري غُدر به.

وقفت بعد أن مسحت دموع ضعفي وبقايا هزائمي، لست أدرى أي الدروب أسلك ولا في أي الاتجاهات أسير.. لكني لن أتوقف لن أتوقف.. وسأترك الطريق على ربي. ارتديت ملابسي وذهبت لأتناول الغداء مع خالد، قررت أن أتوسط لأخي مصطفى النادل للعمل هنا.. هو لن يرفض لي طلبًا بل سيكون كرمًا منه لو بقي مصطفى أيضًا هنا... وعلى جبين الدهر ألف ألف علامة استفهام، لِمَ هذا دون غيره تتوق لخفقاته الروح، وتسرع القدم حين لقياه، وتبتسم الشفاه الحزينة، وتتبدل عتمة الكون ضياء، وأتراحه أفراح!

لِمَ هذا، وهذا بالذات؟! يتدثر القلب بنور وجهه، حينما يهل بطلعته، ينزوي الحقد قصيًا، خلف أطلال ماضٍ بعيد ويغمرني حنان الكون، ويهزمني الحنين، وتأكل في شجني الأشواق! كنت مقبلةً عليه تسبقني دقاتي، وتعارك عقلي الأسئلة، لِمَ هو يا رب لِمَ هذه الروح؟ تغتالني دون غيرها، لِمَ أكتمل حين ألقاه.. أبتسم له، يقبل يدي، أرتعش.. ينظر لي مبتسمًا قائلًا: اشتقتك.

لا أدري، قلت: بل أنا من اشتقتك. أنظر في الأرض لا أدري لِمَ أنسى نفسي بحضوره. جلسنا تحت تلك الشجرة، نظر لي قائلًا:

- تتدللين يا ليلى..

قلت مبتسمة، وأنا أتناول زيتونة من فوق المائدة: نعم، هذه فرصتي الوحيدة كي أتدلل.

ضحك قائلًا: أظنك موتي يا ليلى.

توقفت متجهمة عن تناول الزيتون، أنظر إليه باستغراب قائلة: لماذا تقول ذلك، أنا موتك؟

وكأنه كان يقرأني، ارتجفت، نسيت أنه كان يقرأني. قال: لِمَ اختفت ضحكتك.. حتى لو كنت موتي فمرحبًا بالموت ألف مرة..

قلت: خالد... أتدري ما أنا به.. أتدري أني أعيش أسوأ وضع قُدِّر لبشر؟!

قال: أدري ما بك أكثر من نفسك... أراني ما زلت أحتلك رغم مرور العمر والزمن.. لكنك تشكين بي.. تتصوري أن لي يدًا في مقتل ياسين، وأني من زج بيحيى إلى ساحات الموت المحقق، ليلى.. اسمعيني من فضلك، أنا لست إرهابيًا كما تظنين وأنت أعلم بي من نفسي، ولقد حكيت لك من قبل، أني أطلقت لحيتي بعد زواجك وفقدت معنى الحياة وانتقلت بعملي إلى المملكة، هناك قابلت أصدقاء، تحدثوا معي عن أسامة بن لادن ونشاطه من أجل إحقاق الحق. كان الجهاد كل ما أبغي، بعدك وبعد صحبة يحيى ما عدت أرى شيئًا، وكان الاستفزاز الإسرائيلي على أشده في المنطقة، الاستفزاز الدولي على بلاد المسلمين، طوال هذه الفترة لم أفعل أي شيء حتى التقيت مع أسامة بن لادن في السودان، وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي ألقاه فيها، وكان ذلك عام ٤٩٩١

تحدثنا معًا وعرفت طبيعة أفكاره، لم يكن إرهابيا قطُّ، هو من أسس منظمة دعوية عام ٤٨ في السعودية أسماها مركز الخدمات، وقاعدة للتدريب على فنون الحرب وأسماها معسكر الفاروق... طلب مني البقاء معه لكني رفضت، لقد كنت مرتبطًا بأعمال في المملكة، كل عملي كان موجهًا ضد إسرائيل.. رأيت دخول هذا الوغد المدعي أرئيل شارون باحة الأقصى بأم عيني، وأنت تعرفين جيدًا ماذا تعني فلسطين بالنسبة لي. فأخذت موقفًا إيجابيًا، وانضممت إلى الأنشطة التي تقوم بها حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، وهذه حركة فلسطينية مسلحة ذات توجه إسلامي.

لم أوفق معهم في كل شيء فلقد تأثروا بأفكار الخميني، وسيد قطب في الثورة، لكني قررت المشاركة.. قدر استطاعتي، وبدأت في تجميع أموال لهم في البداية، ما جذبني إلى هذه الحركة أنني أعلم المؤسس الأول لها، لقد نشأت على يد الدكتور فتحي الشقاقي، حين كان يدرس في مصر، التقيت به وأنا في بداية دراستي في الجامعة، وأعلم أنه صاحب مبدأ وليس صاحب مصلحة، لو تسمعين عن سرايا القدس.. هي الجناح العسكري للحركة، نشطت فترة الانتفاضة وكنت مقتنعًا بما أفعل لأجل الله والعروبة.

اشتهرت منذ هذه الفترة حتى تزوجت من فلسطينية، كانت مقيمة مع أهلها في السعودية، وبقيت معها ثلاث سنوات، وتركتني لأجل الإنجاب. انتهت علاقتي بكل هذا لكني بقيت أتابع من بعيد واشتهرت بين رفقاء الجهاد... وكنت كالأب الروحي لهم.. كلمتي مسموعة.. يستشيروني في أمور كثيرة ويشهد الله أني لم أشارك في أي عملية عسكرية لا في مصر ولا في خارجها، فقط حزنت لما

حـدث في سـوريا.. فقضيـت ثـلاث سـنوات هنـاك وقابلـت ياسـين.. وكنـت قريبًـا مـن كل الاتجاهـات الفكريـة، بـل محـل ثقـة الجميـع.. لـذا أعـرف معلومـات فقـط عـن الجهـات المختلفـة، تزوجـت مـن زوجتـي السـورية وأنـا في سـوريا، مـن أدلـب، علمـت بمقتلهـا منـذ فـترة إثـر غـارة جويـة مكثفـة، أتدريـن لـو كنـت معهـا الآن لكنـت في تعـداد المـوتى.

وعنـد وصـولي تزوجـت بأخـرى سـيناوية وجدتهـا هنـا عندمـا جئـت، وهـي مـن عرضـت، أظنـك تعرفينهـا. هـي مـن جلبتـك مـن الحسـنة، أتذكرينهـا؟

قلت متفاجئة: ماذا.. أهذه زوجتك، ماذا تقول؟!

ضحك قائلًا: هي تكرهك جدًّا.

قلت: أعلم... لكن كيف تجعلها تعرض عليّ الزواج منك وهي زوجتك؟

- هـي تعلـم جيـدًا أن لي الحـق بأربـع ولا تملـك قـرارًا فأنـا مـن تزوجتهـا عـلى مضـض.. أيضًـا هـي تعـي النظـام هنـا جيـدًا ولا تجـرؤ عـلى الاعـتراض... المهـم.. لمـاذا أنـا هنـا.. جئـت لأجـل ياسـين.. لـن تصدقـي، اعلمـي ليـلى أنـا لم أنجـب، ولا أعلـم السـبب، ربمـا لـو كنـت ذهبـت لطبيـب لكنـت عـثرت عـلى حـل، لكنـي لم أطـرق بـاب طبيـب قـطّ، كل شيء فيّ رافـض أن يكـون لي طفـل مـن غـيرك.. لم أهتـم قـطّ.. ولم أنـدم.. إلا حينـما قابلـت ياسـين، ندمـت نـدم عمـري أني لم أبحـث خلـف الإنجـاب... أحببتـه كأنـه ابنـي.. ولا أدري أي خديعـة تعـرض لهـا هنـا...

كل مـا أتيـح لي مـن معلومـات هـو أنـه عنـد وصولـه لمنـع عمليـة إرهابيـة تعـرض لطلقـات أثنـاء هجـوم الجيـش عـلى المـكان، لكنـه ربمـا فُجّـر المـكان قبـل وصولـه...

لم يكن إرهابيًا قطّ كما قيل عنه في البداية، لقد تركت سوريا بعد استشهاده وجئت إلى هنا لأعلم الحقيقة.. لا يغرك قولهم لي بالقائد، الجميع هنا يحترمني؛ لأنهم يعلمون عني كل ما قلته لك. حتى بقائي ثلاث سنوات في سوريا... كان لأجل الله ودعم المظلومين.

هذا ليس مكاني ولا أعلم جيدًا إلى أي الجماعات يتبع.. فقط أنا جئت تحت وساطة كبيرة، والأمور متشعبة حلقات يا ليلى إنها حلقات، أنا جئت لأجلك ولأجل ياسين... وعندما جئت أول ما فعلته هو أن اتصلت بك.. لأقوم بواجب العزاء، وطلب مقابلتك، ليلى، لو مت على يدك لن أندم أبدًا... لكن هذه هي الحقيقة... فقط لو أني أبقى جوارك قبل موتي هذا آخر ما أطلب من الدنيا..

بقيت أنظر إليه... وأنا لا أدري.. أأصدق كل ما يقول؟ قلت له: وعملية الأمس.. من قام بها إذن؟

قال: صدقيني لا أعلم، لا تتصوري أن يدًا واحدة تعبث بالمكان، هناك آلاف الخونة.. خلف ستار الدين يختفون، نحن في حرب يا ليلى.. حرب عالمية صليبية صهيونية لكنها حرب خداعة. حرب قذرة، ماكرون يتطاولون على دين الله.. ولا أنكر أن معهم مسلمين مُغرر بهم... لكني بعيد عن هذا الصدام.. أنا الآن أدير أعمالي، لي فروع لمكتبتي في المملكة وفي معظم الدول العربية.

لكني قررت أن أعود إلى مصر بعد استشهاد ياسين، وبعد اتهام يحيى في قضية كمين العريش واتهامه بالانضمام لجماعة إرهابية جئت لأقف جوارك... وأحاول الوصول معك إلى حلول.. في قضية يحيى وتبرئة ساحة ياسين من الاتهامات المغرضة التي تعرض لها بعد موته... وربما قطعت شوطا كبير في هذا. وأنت

رأيت قناة العربية والجزيرة وكثيرًا من القنوات الأجنبية وهي تذيع الحقيقة، لقد كنت أنا وراء كل هذا... أنا من حاولت أنا أعرف الناس من هو ياسين وكيف كانت أخلاقه وتربيته..

أظنك رأيت الفيلم الوثائقي الذي عرف الناس من هو ياسين.. لقد تم هذا الفيلم على نفقتي الخاصة... وبمساعدتي فأنا كنت أقوم بتصوير ياسين طوال العام الذي بقي فيه معي. واستخدمت التسجيلات الصوتية والأفلام والصور في تعريف الناس به، ولولا هذا لما كنت تستطيعين الوصول إلى هنا أبدًا بل كنت وضعتِ تحت حراسة ومراقبة مشددة... لكنك أطلقتِ لرأيك العنان بعد تبرئته وجعله بطلًا قوميًا وجئتِ أنت لتثأري...

أنا لا أبالي فأنا من حكمتِ عليه بالإعدام منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا، أنا متوفى منذ زمن يا جميلة وقطرات دمي تتقاطر من يدك، روحي مقبورة في مكان قصي داخلك، أنا لست أنا، منذ انقسمنا وأنا بقايا إنسان. أطوف في كل الأماكن سائحًا في ملكوت الله، لا أبقي على غصن ولا أحن إلى وتر، حتى الخيال يا ليلى، افتقدت شطحاتي فأنا لا يغنيني عنك خيال، لكن متعجب منك يا ليلى.. ومن قسوتك معي وعندي لك أسئلة كثيرة تحيرني أولها ياسين؟ مَن الذي جعل ياسين يخرج من مصر إلى سوريا، كيف سمح له أبوه وكيف قبلتِ أنت؟ كيف؟ هذا الأمر محير جدًّا بالنسبة لي، فكرت فيه كثيرًا.

ليلى: تحدثت أنت عما حدث لك بعدي، مؤلم ما سمعته منك، تبدلت حياتك تمامًا، غفا الأمل على أعتابك ولم يصحُ إلى الآن، حسرتك تلك الناعسة بين جفونك بت ألحظها كلما خلوت بك، عمرك يمر أمامك وأنت تسرده بوجع، والحسرة

تسكب أدمعك وأنت لا تدري، حقيقي أتألم لأجلك! لكنك كافحت، صنعت ثروة، مؤسسة كبيرة وعملًا واسعًا، ربما نجاحك أضفى عليك سكينة يومًا ما، تزوجت بامرأة واثنتين وثلاث ربما أكثر، عرف فراشك معنى الدفء الذي لم أعرفه يومًا في حياتي، قبّلتها؟ أقصد قبّلتهن؟ غفت على كتفك وتهت في أحضانها؟ تذوقت من تيه الأنوثة وارتشفت من فيضها، ملست على روحها، فأفاقت فيك الحياة. نامت كفوفك في شعرها المسدل خلف غيماتك المستحكمة، فبرق النور مخترقًا ضباب عمرك الحالك.

أفقت أنت على ثيماتك الراقدة في عمقك السحيق، فحققت لذاتك مطلبها.. غامرت وخرجت خلف شغفك لتلقى قرناءك في النبض وحلفاءك في الهدف، تجاوزت المنطق والمتاح واستلهمت عافيتك فخاطبت دروب النعيم، وعقرت ذات اليأس فصاحبت رفقاء العزيمة، وانتزعت من شيم العقائد مبتغاك ومقصدك، ساعدت الأحرار بفلسطين؟!

أشفيت غليل صدرك من فعل اليهود فينا، وقفت جوار الحق وزججت به في وجه الباطل فأوجعته، معك أمام الله حجج ووثائق، ترتجي بها رحمته وعفوه. لكني خسرت المعنى الحقيقي للحياة، أنفاسي دقات طبول في مآتم روحي بطلة السباق الكبير، تعاني انفصامًا في الأمل، غفوت منذ رحيلك على ظهر الحلم والولع أجمع في العتمة آثار ضوء خافتة، وأدخرها علّي ألقاك في برزخ أو في عمق قبر فتنير لي. منزوعةٌ من صحوي الرأفة، تعتليني الآلام فور أن أدري أني في قالب الحياة ما زلت أبقى، أبحث عنك في زوايا غرفتي، أضع يدي على صدري من فرط الوجع، مقسومٌ قلبي مقطعةٌ شراييني، فأهدهده بصبر وأرقعه بآمال كاذبة.

لا فـراش لي، تزوجـت رجـلًا يحـب الاحتفـاظ بالجواهـر يخـشى أن يقربهـا، يخـشى عليهـا الفنـاء، تصـور أنـه لـو قـرب منـي سـأفنى! غلفنـي بقهـر هـذا الرجـل الـذي هربـت مـن نكسـتي إلى هزائمـه الكثـيرة، فـررت مـن ولعـي بـك إلى خيباتـه وتلصصـه اليومـي عـلى جنوحـي فأقتتـل في جـوف عقلـه فيهـدأ حينـما أمـوت عـلى أعتـاب ظلمـة، أو أكتـوي بحماقتـه.

هـذه أنـا، لم أرتـد ملابـسي الشـفافة كأي أنثـى، لم أفـك ضفائـري ولم أمشـط شـعري خلفـي لأفـرح بصبـاي، لم أتدلـل، لم أسـتخدم مـرآتي إلا وأنـا أرتـدي الأسـود الخانـق، لم أحمـر خـدودي، ولم أجمـل شـفاهي، جفـت حقائبـي التـي تحمـل أدوات تجميـلي، وتناثـر عطـري فـوق الأسى الـذي تدثـرت بـه أيامـي، مـرارة الجحـود لم تفارقنـي، وعلقـم الفقـد عالـق في فمـي، كنـت العـذراء التـي أنجبـت، بعـد مريـم القديسـة لا عـذراء أنجبـت غـيري، نعـم هـذا مـا حـدث.

عندمـا طلبـت منـه تطليقـي، أرغمنـي بجبروتـه عـلى العيـش جـواره حتـى بعـد إتمـام العمليـة، عمليـة زرع طفـل، عـدت إلى أهـلي سـاخطة عليـه، لم أكـن أعلـم مـا كُتـب لي، حتـى علمـت بحملـي هنـاك، لم أسـعد بالخـبر كأي أنثـى تنتظـر رابطًـا يربطهـا بالحيـاة، شـعرت أن حملـي وثـاق يربطنـي بالاعتقـال إلى نهايـة الـدرب، سـيبقيني في أعنـاق جوانتانامـو أو في أروقـة سـجن الباسـتيل الحصـين، سـيزج بي عـلى أرصفـة صخرية عتيقـة، تـدق ألمًـا في جسـدي المتهالـك، فعـدت إلى بيتـه مذلولـة صريعـة.

كانـت أمـي تتنـاوب مـع نجـوى زوجـة أخـي بالمـرور عـليّ، حتـى سـها خطيبـة حمـزة كانـت تعـاودني وتهتـم بي، وهـو أشـفق عـلى حـالي وانهزامـي وجلـب لي خادمـة، بنتًـا صغـيرة في عقدهـا الثـاني، وهونـت الأخـيرة عـليّ الكثـير، كانـت تؤنـس وحـدتي،

وتقوم على طلباته، كان يمر عليّ كل يومين أو ثلاثة، يبقى معي دقائق كنت أظنها من ثقلها عمرًا، الغريب أني لم ألحظ سعادته بالحمل، وكأنه لا يهتم لهذا الأمر، عندما سألته وأنا في شهري السادس: لماذا لا أشعرك سعيدًا بالطفل؟ قال أنه لا يريد طفلًا فقط أراد الاحتفاظ بي، نظرت إليه ثم سألته: ولماذا الاحتفاظ بي؟ لم يرد، أجاب بصمته، ثم غادرني إلى مكتبته الخاصة.

كنت وما زلت أعجز عن الغوص في براح هذا الرجل، لا أعلم كيف يعيش بلا بشر، يعيش في صومعته الخاصة بلا أي روح، عقله في العلم فقط، والدراسة والسمو الاجتماعي، لا يحب أن يتحدث عن نفسه أبدًا، يخفي أحلامه وكأنها ستسرق منه، حتى أتراحه وأفراحه لا يعلن عنها أبدًا، صلد لا يحركه شيء.

وجاء ياسين، حينما ألقي في حياتي أشرقت الشموس المظلمات وبرقت الأنجم التعيسات وأهلّ القمر إلى أعتاب غرفتي يبارك لي بدايات الحياة، وانتشى الأمل فيّ، وعاودني الشغف. كان طفلًا فيه العوض كما يقولون، بسامًا رقيقًا، عذب الخاطر خاطف الروح، كنت أقضي كل وقتي معه، صنعت معه عالمًا خاصًا بنا، وكلما ازداد شبرًا حلق قلبي في فضاء أرحب.

كنا نأكل معًا، نخرج معًا، بقي كل مشاغلي، آنس وحشتي فنسيت كوني أنثى وأدركت أني خلقت لأبقى أمًا.. فقط أمًا.. رضيت بقدري على أعتاب ضحكته الجميلة... بل زين لي الكون بحلاوة روحه، واستطاب لي الواقع بعذب ريقه الذي يقطر عسلًا. كبر بي وبقيت أنا في كنفه، كنت كالطفلة الضالة التي وجدت ضالتها فاهتدت...

كان متفوقًا، يحب كتبه، ويحلم بالغد، وينتقي من الأمنيات أرفعها قدرًا،

تواقًا إلى الصواب، متابعًا منذ صغره لكل الانتهاكات الإنسانية التي تنتاب معاقل الوجود، وجنبات الحياة، كتب باكرًا جدًّا في الجرائد الرسمية وفي الروابط الأدبية، أسلوب شيق، لغة شعرية، وأفكار تفوق إدراك الجميع، حصيف البيان طاغي الحسن... نال استحسان كل من عرفه.

كنت أخشى عليه من الحسد، وأخاف عليه من البشر، كبر حبيبي وعشق... نعم كان يحادثني من الروضة عن سلمى صديقته وجارتنا، كان يلعب معها في غياب والده، كان والده ينهره لو وجدها معه، حتى إنه ذهب إلى الروضة ليوجه قراره للمشرفين.. بأن يبقى ياسين بعيدًا عن سلمى... كان ياسين يبكي معي.. يسألني لمَ يكرهني أبي! وأنا كنت أتعجب القسوة، التي كان يعامله بها، لا أتذكر أنه قبله مطلقًا ولا أنه كافأه على تفوقه يومًا، كثيرة هي الصدمات التي تلقاها ياسين طفلًا من والده، وكنت أنا من تهدهد، تكافئ، وتعطي كل الحنان والحب. أذكر أني تغيرت كثيرًا بعد ياسين، بدأ صوتي يعلو، أتعارك مع هذا الرجل المدعو زوجي دائمًا بسبب أسلوبه مع ياسين.

كبر ياسين، دخل كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، كان شعلة نشاط، أبحاث ودراسات منذ السنة الأولى، حظى على إعجاب أساتذته، وكل المحيطين، ولم يتأثر الرجل قطُّ بنجاح ابنه ولم يفخر سوى بأعماله ودراساته.. لو اجتمعنا على الطعام مصادفةً يتحدث عن نفسه أغلب الوقت، وتخرج ياسين... لكن رغم كل ما فعلته معه، وما أعطيته من فرط حناني وعطفي.. كان مكسورًا.. تُغلق عيناه على جرح ووجع، وكنت أعلم أبعاد همه فسعيت لارتباطه بسلمى التي لم يقطع اتصاله بها قطّ رغم رفض والده، رفض الدكتور ناجي طلبنا، رفض ارتباط ياسين بسلمى..

وكانت نهايتي معه، لن أبقى على أنقاض قلب ابني.. سيتزوج ابني من يحب، لن يعيش حسرتي أبدًا.. خرجنا بعد عراك كبير معه.. قلت له ما خبأته في قلبي عقودًا، أنت أناني.. أكرهك... أنت غلطتي وحسرتي الأبدية، حتى إنه تفاجأ بي، وخرجنا إلى بيت كبير لوالده في قريتنا. حديقة وطبيعة، محاولة للتخفيف عن ياسين.. تركناه ولم نعد نريد العودة... تغيرت... وتغير ياسين... كأننا كنا نعيش في سجن. نفعل ما نحب، نصحو وقتما نريد، نقوم بما يحلو لنا، فذهبت مع جمال لخطبة سلمى.

تفاجأنا بالرفض الشديد، لقد علم والد سلمى برفض زوجي لهم فرد برفض أكبر، وقال أنه مستحيل أن ترتبط ابنته الوحيدة بابن هذا الرجل أبدًا. ربما كان الرجل محقًا فلقد كان جارًا لنا واحتدم كثيرًا مع الدكتور ناجي، والرجل كان مستوى أيضًا ويخشى على وضعه الاجتماعي، كان أستاذًا في كلية الهندسة، وله شركة للمقاولات والتصميم الهندسي على قدر عالٍ من الرفعة والنجاح، وحاولت كثيرًا لأجل ابني ولأجل سلمى.. لكن خلاف الآباء حال دون سعادة الأبناء إلى الأبد.

وخطبت سلمى لماهر صديق ياسين، فأصيب ابني مثلي في قلبه ورأى حبيبته تزف لغيره؛ فانكسر مثلما انكسرت. كان «ماهر» ابن مستشار كبير، حتى إن «جمال» حضر العرس وهذا كان سبب جفوة مؤقتة بيننا. وعدت أنا وابني بانكسارنا إلى والده بعدما علمنا بمرضه، بقيت جواره أمرضه وأمرض قلب ياسين المكسور، لكن هذا السخيف لما يتركنا وهمومنا.. فبدأ يسخر منا أنا وياسين عندما علم أن تخطينا قراره وذهبنا لخطبة سلمى.. أصبح طول الوقت يهين

ياسين.. والولد ما زال قيد الجرح، يصفه بالغباء والسلبية والفشل وهو أفضل الناس وأنجحهم، كره ياسين نفسه، وبقي صريع الألم النفسي.

وكانت الأزمة السورية فقام بدراسة الأمر، وبحث في جنس الفئات المتنازعة، وحزن لأجل المكلومين، وتعذب عندما تدهورت الأحداث وكثرت المواجع.. فغادر دون إذني ولا أعلم كيف غادر ولا كيف ذهب إلى سوريا! آخر ما علمت عنه أنه عند يحيى في المملكة يعمل معه. وكلمني هو ويحيى. قال: لا تقلقي يا أمي سأعود فور أن ألقى شغفي.

عرفت بعد وفاته ماذا كان يقصد بشغفي! في هذه الفترة تعبت أعصابي جدًّا وبدأت أتناوب على العيادات النفسية، كنت لا أطيق هذا الكائن المسمى زوجي حتى نفرت من رؤيته بعد أن أهنته وصرخت بوجهه.. وقلت له: لن أسامحك مهما حييت. توفي إثر موت ياسين بيومين، عندما علم كان طريح الفراش غير قادر على الحركة، بكى لأول مرة في حياته بعدما جريت عليه بكل طاقتي أصرخ وأبكي وأضربه على وجهه وأقول له: يا قاتل ابني...

كدت أن أقتله لولا جمال جذبني بعيدًا عنه، وليتني رأيت ابني حينما استشهد. ربما كانت انطفأت ناري قليلًا... لكن الجثة كان متحفظًا عليها لتصورهم أنه إرهابي، وبذل جمال والمستشار والد زوجته ومعارف زوجي الكثير لإثبات براءته، حتى ضجت القنوات بوثائق تؤكد براءته بل سمو أخلاقه، كان ساعتها قد توفي ناجي.. ودفنت قلبي مع ياسين بل مع أشلاء ياسين، مت يومها وأنا كم متهالك تحت أنقاض يأس...

***

نظر لي خالد والدمع يملأ عينه، والوجع يقاتل ملامحي، فاستجاب دمع عيني وسقطت أشلاء ثباتي بغزارة، تمالكت، قلت له بصوتي المخنوق: أعتذر، أريد الذهاب.

قال محاولًا التماسك: بل ابقي.. نتناول الغداء معًا.

وقفت قائلة: عفوًا.

وغادرت، وكل الماضي -الذي ليس ببعيد- يقف أمامي، أينما وجهت وجهي وجدته، دخلت غرفتي أتعجب رحلتي، كيف بدأت وإلى أين صارت. تذكرت كل التفاصيل.. زواج سلمى.. دموع ياسين المخبأة في فراشه، محاولته التماسك أمامي، وادعاء الرضا، أتذكر حينما قلت له: صغيري، لا تفتعل حالًا غير حالك... سأجتاز معك الأزمة.

جذبته من يده إلى فراشه الدافئ وحكيت له قصتي، لقد كان يعرف «خالد» جيدًا، لكنه كان أمينًا لم يشأ أن يعرينى أمامه، ساعات بتُّ أسرد له معاناتي، وبكيت في حضن صغيري وربت على كتفي وبقيت معه أحلل أحداثي حتى لا يصل إلى مثل حالي... مرورًا بالرضا بحكم الله ووصولًا إلى الشغف، وعدم إنكار معنى الحياة، التحرر من القيد النفسي الذي يربطك بآخر تشعره بعضك... تغير الأرض التي تقف عليها...

نعم يا ياسين... وسع مدى خطواتك واقهر هذا الحد الذي أوقفك بعيدًا عن الحياة... تحرر حبيبي تحرر.. ولا تتسرع في البحث عن بدائل، انتظر عطاء الله ومننه، سيرضيك الله لأنك رضيت صغيري، أنت أقوى، ستبقى ذكرى سلمى

في قاع قلبك.. أعلم لكن بقية النبض تحررتْ من قلاع الهجر... فتبقى في فضاء العشق رقراقة تسمو إلى أرواح قد تعارفت عليك في عوالم أخرى، ستبقى قرائن فؤادك تعبث حولك حتى تهتدي لفقدك...

قبّلَني صغيري وألقى رأسه على صدري باسمًا... قال: كيف يكون شكل الكون دونك؟ أنت عشقي يا أمي، أنا لم أعشقك غيرك... أنت شغفي وقرينة روحي.

وأفقت من غفوتي وصوت صغيري يتردد في الفضاء، صرخت بأعلى صوتي: ياااااااسين... حبيبي... عد إليّ.. ابق لأجلي أو خذني إليك...

في فراشي منذ يومين.. لا أملك قدرة على الوقوف، جاء خالد بالطبيب أمس، لم يقل شيئًا، فقط أعطوني مهدئات وعلاجًا للأعصاب، أبكي بلا سبب.. لا أنطق سوى «ياسين».

أبقوا معي فتاة في العشرين من عمرها، علمت منها أن الطبيب حذرهم من بقائي بمفردي.. هي فتاة جميلة تدعى أميرة، تقول أنها ابنة لرجل يعمل بالحديقة، شعرت بالألفة تجاه وجهها الجميل... لكنها طول أسبوع تتحدث وأنا أسمع، تمنحني الحياة بابتسامتها الجميلة وروحها الشفافة... ويأتي خالد كل يوم صباحًا، يحاول أن يضغط عليّ حتى أتناول الطعام.

- أنت تصطنعين المرض.. تهربين من الموافقة على الزواج بي!

ضحكت، أومأت بنعم.

قال: هكذا.. لن أتراجع، أنا القائد، إما أن نتزوج أو أقيم عليك الحد.

ضحكت بصوت أعلى قائلة: لقد كبرنا.

صرخ قائلًا: الحمد لله أني سمعت صوتك.

ربت على كتفي قائلًا: لا ترهقي نفسك بتذكر الماضي، هي حياة أقصر من ألمنا.. تذكري فقط أن الله كريم وأن غدًا في الجنة سيتحقق ما نتمنى... يكفينا أنّا رضينا بقضاء الله، الرضا جنة أكبر من أي جنة. وإن لم نتألم يا ليلى لِمَ خلقنا إذن؟! أريدك أن تثقي بي، مستعد لترك الكون لو تقبليني بحياتك نختتم عمرنا معًا.. أنا الآن أمامي قضية يحيى، أستخدم شبكة اتصالاتي ومعارفي لعدم تنفيذ الإعدام.. ونقض الحكم.. بل والبراءة أيضًا. قومي يا ليلى لنبقى معًا.. نساعد يحيى... لأجل يحيى يا ليلى... تذكري يحيى... إنه كان وما زال لنا الحياة. أتحدث مع نجوى وأرسل لها كل ما تحتاج.. آدم ومنى بخير يسألان عنك... لأجل يحيى يا ليلى انهضي، لأجل الأولاد.

الفصل العاشر

كلما عاودتني ذكرى الأمس، دبت في روحي انكسارات، وهطلت من عيني دموع، وحينما أستقوي محاولةً تخطي أنات الذكرى أصطدم في طريق خذلاني بأوجاع عمر ما زالت حية تقتات فيَّ... فتنهش في أحلامي الباقيات وتتركني صريعة حول حصار لم أشارك في بنوده، ولم أعقد له اتفاقيات. ونحلق عابثين بوهج يشعل الأسى في صدورنا كل حين.

علام نتعجب بقاءنا تحت قيد الماضي! وهو أول إشراقة لنا عبر فضاء وردي، داعب قلوبنا البيضاء، وهمس للآمال: «أن تحققي». ناغى فينا الودق، وملأ صدورنا بعبق ياسمين طاغٍ، الماضي هو تلك الأماني البكر، تلك الدقات المطربات التي تسكرنا بشذى خلّاق، وألحان عذبة، علام ننفصل عنه إذًا! وممَ نتحرر وهو متوغل في كل أجزائنا، هو بقايانا التي لا يحق لنا الانفصال عنها!

وكان يحيى ذاك الوجع المتأصل في أعماقنا، أتذكره جيدًا عندما كان يتخذ الكتاب صديقًا، والعقل معيارًا، والأصول قواعد، وما أخذ شيئًا، وكأن الحياة تعطي لمن لا يتفانى، ورغم مقاومته التي كانت كثبات جبل ألقى قلاعه في متاهات الفضاء، فتأصل عبر المكان واستقوى؛ عاش يحيى مع نجوى راضيًا بقضاء الله، ربما أثرت فيه الأوجاع لكنه تخطاها بنجاح، واستقل بعمله وافتتح مكتبة كبرى في مكان جوار شقته، كُسرت صلابته حين موت حمزة.. لكنه كان اليد التي تهدهد والصدر الذي يحتضن والقلب الذي يراعي، وقف جوار والدي في الأزمة، لكنّا لم نكن

نـدري مـا الـذي يحملـه لنـا الغـد.

لقـد خـرج يحيـى عـن شـعوره منتقـدًا الدولـة محمـلًا إياهـا مـا حـدث لحمـزة، ومـما زاد الأمـر سـوءًا أن قُبـض عـلى والـد زوجتـه بتهمـة الانتـماء للجماعـة الإسـلامية فقُبـض عـلى يحيـى لـلإدلاء بمعلومـات حـول الرجـل.. فعومـل أسـوأ معاملـة. وبـدأوا يعبثـون في رزقـه، حتـى ضاقـت بـه الأرض بمـا رحبـت.. فسـاعده بعـض أصدقـاء والـد زوجتـه وسـافر إلى المملكـة وبقـي هنـاك، لم يـأت حتـى للزيـارة، ماتـت أمـي وأبي ولم يـأت، كان يعلـم أنـه لـو أتى لتعـرض للسـجن والتعذيـب مـن قبـل أمـن الدولـة..

لا أدري مـاذا حـدث لـه هنـاك.. لكنـي علمـت مـن ياسـين أنـه مـع خالـه في سـوريا، ولم أكـن أعلـم التفاصيـل.. لكنـه عندمـا عـاد بعـد مـوت ياسـين ليـبرئ سـاحته أمامـي بعدمـا اتهمتـه بالتقصـير وبقتـل ابنـي، تـم القبـض عليـه بتهمـة الإرهـاب، وحكـم عليـه بالإعـدام في قضيـة الكمائـن.

رحلـة الارتـداد صـوب المـاضي تثـيرني بالوجـع. مـن تبقـى؟ لا أحـد.. هـو جـمال مـن بقـي لي، مـن عائلتـي الكبـيرة، عـادت نجـوى بـآدم وأمـيرة، شـاب وفتـاه قمـة في الأخـلاق والجـمال، آدم في آخـر سـنة في كليـة الصيدلـة، وأمـيرة في كليـة التجـارة، بعـد الحكـم القـاسي عـلى يحيـى فقـدت الأمـل في المحاولـة وجئـت أثـأر لابنـي دون وعـي أو إدراك. الأحـكام الآن تعطـى جزافًـا لـكل مَـن يُشـتبه في انضمامـه إلى جماعـة.. عـليّ أن أعـاود المحامـي الـذي يـشرف عـلى قضيـة أخـي، عـليّ أن أحـاول كـما قـال خالـد.

لا أدرى كيـف أسـأت الظـن بيحيـى، ومـا الـذي جعلـه يذهـب لسـوريا. كنـت في بدايـة أزمتـي أرفـض زيارتـه بالسـجن، حتـى إني رفضـت عـزاء زوجتـه وأبنائـه، عندمـا عـادوا مـن السـفر إلى أرض الوطـن، حينـما طلبـت نجـوى موعـدًا للزيـارة رفضـت أنـا،

وحاولت نجوى كثيرًا التحدث إليّ، لكني هاجمتها وهاجمت أخي، كانت دومًا تبعث تقول لي: الله يصبرك، أعلم ما أنت به.

كيف تصورت أخي قاتلًا.. وكيف تصورت «خالد» قاتلًا! ربما تصورت أن السنين غيرت فيهما المبادئ وأهدرت منهما القيم.. كل الأحداث على الساحة السياسية تضلل، لا أحد يستطيع تدارك الحقائق، الحقيقة في قلوب الساسة أصحاب الفخامة والرفعة، والمكيدة تدار تحت حماية دولية... من قلب الخديعة والتحايل، من هنا، من وطني، من حفنة عفنة من البشر حط رحاها على بقعة طاهرة وفضاء أقدس تتصالح المصالح، ويبقى لكرسي الحكم هيبة وللعقال بريق، يعيد زيف ماضٍ واحتيال رغبات...

وكانت خيبتنا حكامنا.. ونكستنا في البشر، هؤلاء من نشأوا تحت وطأة العري والجوع، وتحت مبدأ الذل والخضوع والخنوع، ونخرج من مكيدة إلى عهر ملثم، ثم تعاد الكرة ويدفع الشرفاء الثمن، ونبقى رهائن تحت جناحي الشيطان الأعظم، ذاك الذي يحرك العالم تبعًا للإمبريالية العالمية.

وماذا حدث لنا! نمسك أسلحة لنقتتل فيما بيننا، يحركنا العدو كأننا دمى، ونحن نسير كالمغيب أو المعتوه.. ننفذ بإخلاص ما أقرته الشرائع العالمية والتكتلات الصهيونية في كل أرجاء الخليقة. والضحايا من؟ الضحايا هم زهور الأمة، تلك البراعم اليانعة التي تحمل الفضيلة تاجًا فوق الرؤوس.

نعم، بالطلقات نحارب الزهور فيُنثر دمًا طاهرًا على أرض تدنس بعار الهزيمة كل يوم.. كدت أشك حتى في نفسي.. حتى إني شككت في ياسين لما ذهب إلى سوريا.. أعلم أنه كان متابعًا ومتأثرًا، كان يقوم بدراسة عن الثورات العربية، كانت

تشغل كل وقته، وقد ذهب إلى ليبيا قبل ذلك وبقي هناك أسبوعًا.. ثم عاد بالكثير من الفهم المتوازن لما حدث هناك. وقضى شهرا كاملا في تونس كان من أجمل أيام عمره، كان يتحدث بشغف عن التونسيين، كان يقول: شعب مثقف لن يضل، ولن يهزم، شعب يحب نفسه.. ويعشق حريته.. الجالسون على المقاهي يتحدثون في خفايا السياسة العالمية، والصراعات الإقليمية، لا أحد إلا مطلع ودارس ويملك الدراية والحكمة، وقبل السعة يعشقون ترابهم.

ياسين هو أول من بشر بنجاح ثورتهم وغلبتهم؛ لذلك عندما علمت بسفره سوريا كنت مطمئنة، لأنها ليست أول مرة، ربما كانت سوريا هي البلد الوحيدة التي بقيت قيد النزاع وأوصدت أبوابها للفئات المتناحرة، وعلى ساحتها تتعدد الأجندات والأهداف غير الموجهة... لكني كنت أشعر ابني قويًا.. لم أتصور ما حدث.. أيضًا طمأنني وجود خالد ويحيى جواره، وبتُّ على جوانح الفكر أتقلب، وتسألني نفسي وأسألها: ماذا؟ ابني لم يستشهد في سوريا، لقد تساقطت دماؤه على أرضه وبترت روحه في عراك الحق مع الباطل.. ممن سأقتص؟ لست أدري... ثأري عند مَن لست أدري.

قتل غدرًا.. لست أدري.. جاء في حق وزهق في باطل، وضاع دمه مع مَن تاه على أرضه. وانتهى الأمر.. الكل ينكر... كل الجهات تتبرأ من دمه، الجيش يقول لم نضرب، والجماعات لم تعلن عن شيء. من أهدر دم صغيري... مسئولية مَن؟ حقي وابني مسئولية مَن؟ وما أبخسها من رحلة تلك التي تقتطع دون سابق إنذار! وما أسوأها من حياة تلك التي تُختطف منا سهوًا.. وما أقساه من شعور ذاك الذي يذيب جليد أفكار ويمحقنا تحت عجب واندهاش... أبهذا الرخص تباع

أرواحنا؟ أبهذا الجبن يتخفى المارقون تحت غيم الفضيلة.. كم من أرواح عربية أُزهقت بهذا الشكل، كم جسد صرخ في اللحد :»لِمَ انتهيت، بأي ذنب قتلت!»، كم من روح لا تعرف متلفها، وكم من حلم تكسر بين قنابل الخديعة وطلقات المكر!

سيوسدون أمام الله قريبًا، كل من قتل روحًا وأزهق الأحياء وامتهن كرامة الرجال وشرف الأمة. يحيى يقترب من الموت وأنا أبحث عن موت، ماذا أفعل وهل أصدق «خالد» بعد كل ما كان.. وأنا في خلوتي تتقاذفني الذكريات طرق الباب..

- مَن؟

- افتحي.

إنها هي، أعرف صوتها جيدًا. آن الأوان أن أعرف اسمها. قمت بفتح الباب، قابلتني بابتسامة، حاولت تقبيلي، ابتعدت عنها ممتعضة.. دخلتْ وأغلقتْ الباب.. وقالت: أعلم أنك تكرهيني.. لكننا سنصبح صديقتين بعد زواجك من القائد.

- أنا لا أصادق أحدًا، ابقي في حالك!

قلت صارخة بوجهها.

جلست دون أن أدعوها للجلوس.. قلت: ماذا تريدين؟

أكملتُ: لماذا أتيتِ إلى هنا؟

- سمعت أن ابنك استشهد منذ شهور.

صرخت منفعلة: ممن عرفتِ؟ هل تبحثين ورائي؟

- نعم، أردت أن أعرف من أنت.

- وماذا عرفتِ؟

- عشيقته القديمة، هكذا يقولون.

- اخرسي!

- اهدئي.

قالت ببرود!

أكملتُ: لا تصدقي ما يقوله لك، القائد خالد هو من زج بابنك إلى هذا المكان، أنا رأيت ياسين وأشرفت على طعامه وشرابه أسبوعًا وعلمت أنه مَن أرسله إلى هنا. ولا أستبعد أن يكون هو المسئول عن قتله انتقامًا لرفضك القديم له..

- قلت لك اخرسي.. أنت حقودة... سأبلغه بكل ما تقولين..

قالت: لن تبلغيه بشيء.. لن أحكي لك مزيدًا من التفاصيل عن ياسين.. لن أساعدك، هو يستطيع أن يبرئ ساحته لكن أنا فقط من تبدأ أمامي كل الخيوط وتنتهي.

جلستُ وكل ما فيّ يرتجف، وكنت قد ارتحت قليلًا عندما برّأ خالد نفسه أمامي، أن أعلم أن «خالد» قاتل ولدي لهو أصعب عندي من موت ياسين. نظرت إليها والدموع تتساقط من عيني بلا توقف، قلت بصوت ضعيف: هاتي الدليل؟

- سأخبرك بكل شيء.. خالد رجل له باع واسم معروف في أغلب الحركات

والجماعات.. لكن لا أحد يعرف له اتجاهًا معينًا... كل ما نعرفه عنه أنه ينبذ العنف.. رغم أني سمعت له عن عمليات تولاها كاملة في فلسطين. بل هو ضد كل من يسفك دمًا عربيًا.. له كلمة على الجميع، اسمه وما قدمه من خدمة للحركات الفلسطينية قديمًا..

قلت: أعرف هذا، ما الجديد؟

- سمعت من أحدهم أنه يكره النظام السياسي في مصر، وهو مَن يمول كل العمليات العسكرية في سيناء لإحراج النظام السياسي..

- ماذا تقولين؟ أنت تخرفين؟ خالد ليس هذا الرجل أبدًا.

رفعت ملابسها وأخرجت من جيب ملابسها أوراقًا وأعطتها لي... قالت: أنا أمنتك على نفسي.. حتى تصلين إلى قاتل ولدك. لو علم الشيخ خالد لقتلني.

وقبل أن تترك لي الأوراق كاملة في كفي قالت: عاهديني بروح ياسين ألا تخبري أحدًا بما حدثتك.

قلت: وموت ياسين وحياته الباقية في قلبي لن أخبر أحدًا..

أكملتْ: وأنا سأساعدك في القصاص...

قلت لها: شكرًا.

خرجت وتركت لي أوراقًا... منها وصولات من يحيى أخي بمبالغ كبيرة.. قد تتعدى عشرة الملايين. يا له من مبلغ كبير! وأخرى من خالد إلى اسم غريب بملايين أيضًا، وخطاب من خالد إلى زعيم الجماعة... يقول له سأدفع ما تريد..

لا تقتلـه أريـده حيًـا... أوراق كثـيرة كلهـا تدعـم تـورط خالـد ويحيـى في عمليـات مشـبوهة.. داخـل الأوراق وجـدت ورقـة كبـيرة بخـط خالـد وأنـا أعرفـه جيـدًا، كأنهـا خطـاب أو ورقـة مـن مذكراتـه، شـدتني حروفـه وحرقـة الكلـمات حـين قـال:

«في عـام... كنـت في جـوف النجـاح أحتفـل، المكتبـة عامـرة بأثمـن الكتـب غـير الموجـودة في أي مـكان في الوطـن العـربي إلا عندنـا، كانـت تأتينـا طلبـات مـن جميـع الـدول العربيـة، ومـن كل أنحـاء الجمهوريـة المصريـة... كان نجاحـي ويحيـى مسـار جـدل في كل الأوسـاط... بدأنـا نتوسـع ونسـتعد لعمـل مطبعـة ودار نـشر.. وجديًـا بدأنـا دراسـة الموضـوع ودراسـات الجـدوى، بـدأت أدخـر وشـعرت أني ألتحـف الأمـان وأن تعويـض اللـه حصـن حصـين يـأوي الجـزء التائـه فينـا، لم نكـن نفعـل شـيئًا يـسيء إلى الوطـن... فقـط لا نسـتطيع منـع أنفسـنا مـن التعقيـب عـلى سياسـات تثقـب ثقبًـا في صـدر الوطـن، ونحـن لا غبـار علينـا في معرفـة خفايـا الأمـور التـي تـدار بهـا الحيـاة... لا أدري غـير أنهـم لـو تركونـا نتحـدث ونشـارك لمـا وصلـت مـصر لمـا هـي فيـه...

وكان المعتقـل ذاك الفزاعـة الضاريـة، والجحيـم المسـتعر، كان الخـلاص مـن الحلـم ومـن الحيـاة نفسـها، كان هـو أسـنان الأسـد الحـادة جـدًّا التـي انتهكتنـا بـلا رحمـة، حتـى بقينـا فضـلات خفيـة في عمـق أحشـائه البعيـدة.. لا يتخلـص منـا حتـى نعـود إلى الـتراب فيرحمنـا، ولا يتقيأنـا حتـى نسـتعيد شـغف الحيـاة ولـو بقايـا بـشر. ورغـم عـدم بقـائي أنـا ويحيـى في المعتقـل إلا شـهورًا بسـيطة، فإننـي خرجـت بعاهـة نفسـية، مـا لقينـاه ليـس عذابًـا بدنيًـا مطلقًـا. هـو كـما أولى لحظـات خـروج الـروح مـن الجسـد.

عـالم مخيـف كـما أفـلام الرعـب المدبلجـة.. خلـق لا يتعامـل مـع بـشر ولا حتـى مجرمـين، يتعامـل مـع افـتراض أن كل مـن وقـع عليـه الشـك شـيطان أسـود، عليـه

اللعنة ما بقي. كل ألوان العذاب والإهانة وكسر عزة الرجال.. من علّم البشر هذا الحقد وهذا الافتراء! لا أدري إلا أنه اختراع قد يعجز الشيطان عنه!

خرجت من المعتقل.. أنتظر أن ألقى في قبر.. ربما كان القبر أكثر رحمة واتساعًا من معاملة القهر التي اخترعها زبانية الشيطان، لكني لقيت حياة.. أنفر من نسمات الصبح إذا ما قابلت وجهي، وأكره النور وأتوارى خلف نظارتي السوداء حتى ينجلي.. فقط في سواد الليل وجدت روحي مثواها... خرجت كارهًا تراب الأرض وكل جزء في نبت من أقواتها.. كدت أقتل نفسي حتى أتخلص من وطن يقتل الحياة فينا فعدت إلى صوابي ورحلت أقتل من فعل بالوطن فعلته».

***

كنت أقرأ الخطاب وأنا أعلم تمامًا أنه حاله.. لقد كان على نفس مستوى الألم والمعاناة، لكنه كان قد قرر في النهاية الخلاص مما قتل فيه بقتل كل من تسبب في قتله. كل الأوراق بحوزتي تؤكد شكوكي.. هو مدان، حتى أخي هذا الذي كنت سأفرغ نفسي تمامًا لتبرئته مدان... لكن كيف وصلا إلى هذا الحد من القسوة، إلى إزهاق الأرواح وتفتيت الوعي بالحياة، الآن عليّ أن أحدد ما يجب عليّ صنعه، كيف سأنتقم؟

أخو مصطفى... عزيز... سأستخدم هذا الطفل في قصاصي! لن أرحم كل من تسبب في موت بارقة الضوء الوحيدة التي سطعت في قلبي، ينتقم لحسام، ذاك الخلوق الساهر على راحة هؤلاء الجبناء.. وبدأت في استخدام كل أسلحتي، وأقنعت «خالد» بدورنا في مساعدة هذا الطفل المكلوم الذي فقد عائله في إحدى العمليات الإرهابية، وبالفعل طلب خالد أن يأتي الطفل للعمل في الحديقة والعناية

بـه.. بقـي عزيـز جـواري وبقـي خالـد كل يـوم يرسـل لي أن أقـرر سريعًـا حتـى أعـود معـه إلى أعمالـه المعطلـة منـذ وفـاة ياسـين.

الفصل الحادي عشر

وذات يـأس.. وضعـت رحـالي جـوار وهـن، وافترشـت الأسى وصاحبـت الحـسرة.. وتدثـرت بالشـك، واقتلعـت السـكينة مـن عقالهـا وبـتُّ أتضـور وجعًـا.. وأنـادي أيامـي السـابقة... روح أمـي.. حـزم أبي والحمايـة في صـوت يحيـى وجـمال، والأمـان في حضـن حمـزة وعينـيْ حبيبـي العميقتـين جـدًّا، وروحـي التـي مـا اسـتكانت إلا لحظـات عـلى صـدره.. وفلسـفته الثريـة، ووجهـه الجميـل.. وأنـا بـين يديـه كزهـرة بريـة تهتـز فتنـثر نداهـا عـلى صحـارى قلبـه القاحلـة.. فينبـت قلبـه قمحًـا وشـعيرًا.. يلقيـه في فـم يتامـى العصافـير، والكناريـا الجريحـة.

وجـاء أخـو مصطفـى.. مـا زال طفـلًا، لكنـه يعـاني مـن شـيخوخة سـببها الفقـد، أحـاول جاهـدة إخراجـه مـن الأزمـة بأشـكال الحـب والعطـاء كافـة، لكنـه طفـل مقبـل عـلى مرحلـة الشـباب.. خمسـة عـشر عامًـا.. تتجـلى فيـه كل أزمـات فـترة المراهقـة وصعوبتهـا.. اضطرابـات في نطقـه وفي انفعالاتـه لكنـه متـزن.. أسـتطيع أن أثـق بـه، في وجنتيـه حقـد العـالم كلـه.. تذمـر يظهـر في اضطرابـه، وفي سـكونه تـتراءى الوحـدة.

رتـب لـه العاملـون بالحديقـة مكانًـا أشرفـت أنـا عليـه... هيـأت لـه كل احتياجاتـه.. أصبحـت أقـضي معـه أطـول وقـت ممكـن. تدريجيًـا صـار يثـق بي ويتحـدث معـي عـن أزمتـه... كل حديثـه عـن والـده المتـوفى.. وكـم كان يدلِّلـه، يحـكي عـن اغتيالـه. قـال أنـه يـوم وفاتـه صباحًـا دخـل عليـه حجرتـه وأعطـاه مبلغًـا كبـيرًا، ورغـم أنـه يعطيـه دائمًـا مـا يحتاجـه فإنـه في ذلـك اليـوم، أعطـاه ألفـي جنيـه. قـال لـه: لقـد قـرب الموسـم

الصيفي.. اذهب مع أصدقائك للغردقة استمتع معهم...

قال: لم يكن من أحد يهتم بي، حتى أمي، فقط أبي كان يهتم بي... ليس لي في الدنيا سواه. لا معنى للحياة دونه.

بكى وهو يتحدث، وتعجبت أنا، كم أن هذا الرجل كان قاسيًا مع ابن زوجته، وكم كان نبيلًا مع ابنه. تناقض خالٍ من المبدأ، فالأنانية تستدعي الاهتمام ببقاياه، بطفله من صلبه، واحتقار آخر تحت رعايته. كم أكره هذا الرجل! شاهدت جبروته مع مصطفى. شاهدته حقيرًا. لكني لا أستطيع أن أعلن لعزيز عما كنت أشعره تجاه والده.

أظهر لي بالأمس مدى رغبته القوية في التخلص ممن حرموه من والده.. فالحياة فقدت معناها برحيله. وبشكل أو بآخر شعرت كلامه جيدًا... نعم، ومع اختلاف المعايير، الحياة تفقد معناها برحيل من نحب، بدأت أتحدث معه يوميًا حتى تطرق الحديث إلى ياسين وعرف عزيز مأساتي.. وأن جرحنا خرج من مشكاة واحدة.. مشكاة الخيانة.. كان خالد يتصل بي كل يوم.. كثيرًا كنت لا أستطيع الرد عليه، قلبي المكلوم كاد أن يصدقه، كدت أكتفي بوجوده، لكن الدنيا ما لبثت أن قذفتني إلى العمق بعنف.

الأيام تمر ولا شيء في الأفق يلوح، ولا فجر يأتي، الغيمات خبأت الشمس. فبقينا نمشي في ظلمة حالكة، نرتطم بكل حوائط البؤس ونُعلّق على جدر الحيرة مقلوبي الإدراك، ما لها الدنيا لا تعلن عن مواقفها من هؤلاء، ما لها تقف متفرجة على حالي وأنا أغرق بين قلبي وثأري، ما لها وقد كانت شاهد إثبات ضدهم، وإلى أين سينتهي بي الصراع؟ سينتهي عند موتي؟ أم انتصاري؟ وماذا لو رسيت على

مـرسى الحقيقـة!

بقيـت أسـابيع أرفـض مقابلـة خالـد، حتـى تعجـب منـي، واحتـار في أمـري. هاتفنـي متعجبًـا، ادعيـت أني مريضـة ولا أقـوى عـلى الحركـة، قـال: سـآتي لـك بطيـب. رفضـت بشـدة وقلـت لـه دعنـي قليـلًا مـع نفـسي. علـم أن بي أمـرًا مـا، وأني أتهـرب مـن مقابلتـه، تركتـه في حيرتـه وبقيـت في حـيرتي، وأسـئلتي تفقـد جوابًـا منطقيًـا لمـا رأيتـه وقرأتـه. كل مـا شـاهدته يدينـه.

وعـلى حـين غـرة مـن حلقـة الوجـع التائهـة أنـا بهـا حدثتنـي زوجتـه، التـي تعرفـت عـلى اسـمها مؤخـرًا، ولم يكـن في بـالي قـطّ التعـرف عـلى مثلهـا، إنهـا كريمـة، تلـك القبيحـة التـي تزوجهـا القائـد بعـد وصولـه إلى أرض سـيناء. ولا أعـرف كيـف تزوجهـا.. لكنـي أدرك جيـدًا صـدق المثـل الشـعبي «المصالـح بتتصالـح».

المهـم أنهـا هاتفتنـي تطلـب منـي لقـاءً سريعًـا معهـا؛ فهـي تحمـل لي أخبـارًا هامـة ستسـاعدني في الثـأر لعائلتـي مـن هـذا الوغـد كـما كانـت تقـول. حـددت معهـا الموعـد، مسـاء غـد.. حـارت روحـي فيـما تخبئـه لي عندهـا، شيء لا يريحنـي فيهـا، حاجـز يفصلنـي عنهـا. أرسـلت لي في الموعـد المحـدد إحـدى العاملات، تصطحبنـي لحجرتهـا إذ إني غـير مسـموح لي التجـول في المـكان، ولا أن أعـرف غـير المـكان الـذي أسـكن، إلا مـا سـمح بـه القائـد مـن بعـض تجـول داخـل الحديقـة.

ارتديـت العبـاءة والنقـاب، هكـذا قالـت لي، إذ لا يجـب أن يعـرف أحـد إلى أيـن أنـا ذاهبـة. مشـيت في نفـس السـرداب الـذي أتيـت منـه أول مـرة، اتجهـت يسـارًا في ممـر متسـع أول مـرة ألمحـه، في نهايـة الحجـرات ذات الأبـواب الكبـيرة، تركتنـي العاملـة بعـد أن طرقـت البـاب، وقفـت لحظـات، ثـم مـا لبـث أن فتـح البـاب، أشـعر برعشـة تـسري

في جسدي حينما أراها، دعتني للدخول وبقيت تنظر يمينًا ويسارًا، ثم أغلقت الباب، وأنا بالداخل أنظر الحجرة، حجرة كبيرة مكدسة بالأثاث الكبير، الذي يدل على ذوق تلك المرأة السمراء التي تلون شعرها بالأصفر الفاقع؛ فتبدو شاذة ومنكرة، كنت أنظر باشمئزاز للسرير الكبير الذي ينتصف الحجرة، وأحدث نفسي، أهنا يضاجعها خالد؟

أغمضت عيني أداري ألمًا ألمّ بروحي، لحظات وارتدت كريمة نقابها، طُرق الباب طرقتين، أسرعت لتفتح.. دخل رجل ومعه مرأة لا يُرى منها شيء. جلس على مكتب جانبي مطلي باللون البني الداكن خلفه شباك كبير، مسدول فوقه ستارة سميكة من اللون الأسود، زادت جزعي وخوفي، عبرت عن خضتي، باستنكار نظرت للمرأة والرجل ثم نظرت لكريمة، قلت: من هؤلاء؟

قال: اهدئي أنا من أملك فك الخيوط.

تراجعت قليلًا، فاصطدمت بها، قالت بحدة: اهدئي، نحن هنا لأجلك.

قلت لها: من يكون هذا الرجل، ولمَ هو في غرفتك الخاصة؟!

قالت: إنه الشيخ زهران، قائد الجناح العسكري للمنظمة.

قلت: أية منظمة، ماذا تقولين؟

قالت: لا عليك.. فقط اسمعي ما يريد أن يقوله لك، اخلعي النقاب.

وقامت بنزع النقاب عني، وجدته يحملق بي بغباء قائلًا: ما هذا الجمال الفج، كلك أنوثة.

قلت له: اخرس!

ضحك بسماجة، قائلًا: عرفت الآن سر اختياره لك، خالد يعرف جيدًا من أين يؤكل الكتف.

كان رجلًا سيئ النظرات كثيف اللحية حالق الشارب، طويل القامة، يرتدي ثوبًا أبيض قصيرًا، وحذاءً خشبيًا كبيرًا وقديمًا في نفس الوقت. قلت متململة: ماذا تريد مني؟

قال: أريد خدمة الجميلات.

قلت له: لا تتحدث معي بهذا الشكل أيها الوغد السمج!

قهقه كما الشيطان في أفلام الرعب، واقترب مني وأنا أرتعد: لن يطفئ نارك غيري.

ونظر بخبث يدل على سوء نيته. والمرأة الغريبة تجلس لا تتكلم حتى إني لا أرى عينيها. ابتعد قليلًا، ثم قال: أنا فقط أحاول مساعدتك، كل الأوراق التي معك صحيحة، خالد ليس قائدًا لفرقة لكنه رئيس لفرق عسكرية كثيرة وجماعات لا تتفق سوى كونها تنتهك حرمة الإنسان، والدليل ذاك الغنى الفاحش، فهو يملك مليارات كلها كانت في مقابل حسن السمع والطاعة.

حرك المسبحة بين أصابعه، ونظر لي قائلًا: نحن جميعًا تحت قيادته وجبروته، لا أحد يملك أن يقول له لا.

وأنا أسمع وأتعجب، هل يتحدث هذا عن خالد؟! جاءت كريمة بالشاي، ثم قالت لي: اجلسي، نحن لن نضرك أبدًا.

جلس الرجل على المكتب، بعد أن تناول منها الشاي، وبدأ يخرج أوراقًا من درج المكتب، ثم تطرقت بنظري إليها، وتعجبت كيف زوجة القائد تعرف رجلًا دون علم زوجها. وكيف تمشي هكذا تتمايل وتحملق في عينيه وهي تتحدث. ما هذا الذي يحدث؟ حقيقي لولا أني أعرف خالد جيدًا لقلت امرأة وعشيقها، حتى إنها لا تخشى المرأة التي معه. قال: شاهدي هذه الصور.

وقفت مقتربةً منه في حذر، والتقطت منه الظرف، عدت مكاني وكلي شغف، أخرجت ما بالظرف، مجموعة صغيرة من الصور والأوراق، قمت بالفصل وبدأت بالصور، وقعت عيناي على حبة قلبي، إنه ابني، إنه «ياسين»، إلى جوار خالد ومعهما مجموعة يتضح من التدقيق في الصور أنها من جنسيات مختلفة، كل الصور تم التقاطها في نفس الوقت، كلها لا تعنيني إلا موضع فقيدي فقط، أدقق النظر بملامحه، وكأنه يرسل لي إشارات وكأنه كان يعي، أني سأرى هذه الصور يومًا ما. نزعتني من وصلة شوق بيني وبين ابني قائلة: اتركي الصور الآن وانظري في الأوراق.

بدأت أتصفح في الورق، إنها خطابات إلى أحد الأشخاص المهمين بسيناء، أخبار وود، قلت: ماذا بالخطابات؟

قال: ركزي في أربعة الخطابات، إنهم لأناس مختلفين، لكن هناك أوجه اتفاق بين الخطابات الأربعة، في ذيل كل خطاب، تأكيد وتوصية على شخص معين، إلى جوار التوصية، مكتوب أنه الشخص المشار إليه في الصور، قال بخبث: عودي إلى الصور، تمعني جيدًا، من هو الشخص المشار إليه في جميع الصور؟

كان هناك سهم مصوب تجاه ياسين، انتفض قلبي، قائلة: أتعرض ابني

لخديعــة؟

قـام مسرعًـا ثـم أخـذ منـي الخطابـات والصـور. قلـت: مـاذا تفعـل؟ أريـد هـذه الأشـياء. هـي حقـي أنـا فقـط.

كنـت أبـكي وأرتعـد.. جذبنـي مـن يـدي بقـوة، قائـلًا: يـدك تلـك المرتعـدة لـن تأخـذ ثـأرًا أبدًا.

وتـرك يـدي بعدمـا آلمنـي. ثـم عـاود النظـر إليّ قائـلًا: تحتاجـين قـوة، وصلابـة، وثباتًـا، تآمـروا عـلى ابنـك وحيـدك، فـماذا أنـت فاعلـة؟

قلت بصوت مخنوق وضعيف: أعطني الصور والأوراق من فضلك.

قـال: سـأعطيك صـورة لابنـك، حتـى تفيقـي مـن نوبـات الغـرام القديـم التـي أنسـتك ثـأرك.

ورمـى في وجهـي الصـورة فوقعـت عـلى الأرض، فانحنـى جالبًـا لي الصـورة وقـام مقتربًـا منـي، هامسًـا بحقـارة: لـو احتجـتِ رجـلًا هنـاك رجـال كـثر غـير هـذا الـذي تلاعـب بـك قديمًـا، وسـاوم عـلى روح ابنـك ليحمـي رجالـه الخونـة.

كـدت ألطمـه صفعـة أعـبر بهـا عـن غيظـي، لـولا أنـه منعنـي. مسـحت دموعـي ولملمـت قـوتي، قلـت: لمـاذا؟ لمـاذا يفعـل خالـد مـا فعـل؟

قال: كما قلت لك، ليحمي رجاله.

اسـتكمل: لـو رأيـت أسـماء المرسـل لهـم الخطابـات، اثنـان منهـم قامتـان ورتبتـان في الجيـش، هـو عـلى اتصـال بهـما، يخبرهـما ببعـض الرجـال الـذي يريـد هـو التخلـص

منهم، ثم تسمعين أنت وغيرك، أن الجيش قام بتطهير المنطقة من الإرهابيين، وهم في الحقيقة، مَن انتهى دورهم عند الإرهابيين. لذلك يبقى الإرهاب بكامل قوته بعد كل عملية. فهمتِ؟

قلت: معقول! خالد بكل هذه الخسة!

نظر لي قائلًا: هناك أشياء كثيرة لكن ليس لي الحق في أن أبوح لك بها، بقي أن تعرفي، أن «خالد» أرسل يُعلم بموعد قدوم ياسين إلى سيناء، أرسل إلى قيادات في الجيش، وفعلًا توفي ابنك إثر ضربة للجيش في أحد معاقلنا.. والدليل أنه هو الضحية الوحيدة للعملية العسكرية، وأعلن الجيش بعدها أنه إرهابي خطير عائد من سوريا.

قام يسير ثم توقف أمامي قائلًا: الحقيقة أمامك بكل حذافيرها، لو احتجتِ شيئًا لإتمام الأمر أنا معك.

وقربت كريمة مني ووضعت النقاب على وجهي وهي تقول بحدة: إياك أن يخرج ما بيننا لبشر، هيا ارحلي، تنتظرك إحداهن بالخارج.

خرجت، سرت معها، حتى أرجعتني من نفس المكان إلى حجرتي، كانت معي صورة ياسين، التقفتها وغصت في لا وعي طويل. فجرًا صحوت على الأذان، صوت جميل، قمت وكنت ما زلت بزي الأمس. عندما وقفت وقعت صورة ياسين، فجذبتها لاهفة.. تمعنت في روحه الجميلة، كان ينظر لي مثلما أفعل، ويبتسم كما كان، وعلا في المكان صوته يقول: الصلاة ياماما..

انتفضت مذعورة. أنا ما زلت أسمع صوته، أشعر به جواري، أفتش عنه

بروحي، وأضغط على وجع بالقلب طغى عندما سمعت صداه.. آه يا ياسين.. آه يا حبيبي.. ياسين أين أنت؟ أديت الصلاة، وعيني تذرف الوجع.. وذهبت أرى من يهاتفني في هذا الوقت، إنه خالد، لم أتوان في الرد كعادتي، قلت له صباح الخير.

قال: أخيرًا... صباح الخير.

قلت: اشتقتني؟

قال: أكثر مما تتخيلين.

قلت: نتناول الفطور معًا إذن.

قال فرحًا: نعم، أُعد الطعام لك كما تحبين.

وعدته بعد دقائق، ولا أدري ولا أعلم لماذا عاملته بكل هذا اللطف، فقد عزم قلبي وانتهى الأمر. لا أدري كيف خرجت من موتي لألقاه على أعتاب شوق زائف، سأقتله وسأتفنن في الطريقة التي تناسب نذلًا مثله. هيأت نفسي، وذهبت إليه أتدلل على غير العادة، أذكر نفسي في كل خطوة أنني الأنثى التي اشتهى ولم ينل. وتحت شجرة السنديان كان لقاؤنا الأجمل، ربما يكون الأخير، قابلني بوهن، خلته مريضًا. سألته: ما بك؟

قال لي: أنت.

- أنا!

- نعم أنت.

- ماذا عني؟

- أنهكني فراقك. أين أنتِ مني يا ليلى؟

قلت: أنا أسوأ منك حالًا... قتلت فرحتي بموت ابني وآخر يحاكم بتهمة الإعدام.. وأنت مدان أمام الدولة والناس.

قال: الأهم ألا أكون مدانًا في نظرك.

قلت: أنا! لا، أبدًا. أثق فيك كل الثقة طبعًا..

كنت أنظر في عينيه عميقًا ثم أسرح في عالم آخر، كان يتصور أني أحيا ولعًا وحنينًا من كثرة الغياب، لكن الألم كان يعتصرني والحسرة كانت تعبث بخلدي، حاولت إطفاء النار بداخلي مؤقتًا قلت له: ألا توجد أخبار عن يحيى؟

قال: ولهذا سمحت لك أن تتجاوزي قلبي أكثر من شهر، الحمد لله تم قبول النقض..

ألقيت ما بيدي من طعام وصرخت قائلة: ماذا تقول؟

قال: نعم، طول هذه المدة وأنا أحاول، وأرسلت أموالًا لمستشارين لي في كل الأماكن.. وكلفت محاميًا مشهورًا بالقضية... لبيت له كل ما طلب، وجمعت له الأوراق التي تثبت براءة يحيى.. وبالفعل تم قبول النقض وتحددت الجلسة للمرافعة الخامس عشر من الشهر المقبل.

كنت أبكي وهو يتحدث.. لا أدري ما بداخلي.. كل القرائن في يدي تثبت تورط أخي مع خالد لكني لا أريد لأخي موتًا.. لا أريد إعدامًا.. يكفي أني فقدت حمزة وياسين.

«ليلى»؛ نادى ثم نظر إليّ صامتًا.

قلت: نعم...

- سأفعل كل شيء يسبب لك سعادة.. وسأحمي صديق عمري حتى لو كان عمري سببًا.

حديثه يرن في أعماقي... كيف كل هذا التناقض؟ ماذا أفعل، هل أصدق.. وأكذب كل الدلائل التي في يدي! ما عدت أرى شيئًا، غير حيرتي، وشتات أمري، خالد كما كان، ليس هو بالفاحش أبدًا، هو كذلك بالفعل أم أني لم أعد أدرك الواقع. سألني: ما بك..

قلت: أبدًا... لكني أريد أن أعرف.. لماذا جاء ياسين إلى سيناء؟

قال: أجبتك قبل ذلك، حينما علم أن مجموعة من الشبان الذي قابلهم في سوريا مأمورون بالقيام بعملية في مصر عاد، خاصةً.. أن كل أبحاثه ودراساته، عن الجماعات والتطرف ومقاومة العنف والفكر المتطرف. كان قد تحدث إلى هؤلاء، وقد أوشك على تغيير أفكارهم، لولا أنهم كلفوا بعملية كبيرة وأمروهم بالرحيل. تبعًا لخطة موضوعة مسبقًا أيضًا، كان قد حان موعد رحيل ياسين من سوريا، كنا اتفقنا أن يعود لمصر ويكمل ما بدأه هنا، بعد أن انتهى من قاعدة بيانات عريضة أيضًا، عاد لأنه اشتاقك وشعر بالذنب تجاهك، وانقطعت أخبارك عنه وأصبح من الصعب الوصول لك، ولقد وعدته حينها أني لن أتركه، سأصفي كل أعمالي وأعود لأبقى جواره.

أنظر في عينيه عميقًا قائلة: ممن عرفت كل هذي التفاصيل وهذه الأمور تتم

في سرية خاصة؟

تلجلج الكلام بثغره. ثم تناول القليل من الماء، ثم نظر لي قائلًا: أنت لا تثقين بي.

قلت بكل قوة وثبات: أحتاج ردًا.

قال: أنا رجل غير عادي، عندي أموال، واتصالات وشبكة علاقات.. يومًا ما ستعرفين، الدور الحقيقي الذي أقوم به.

- ما الدور الحقيقي الذي تقوم به؟

قال: ماذا تتصورين ليلى؟ ما الدور الذي أقوم به؟ تتصورينني قاتلًا إرهابيًا، أقود حركات بهذا الشكل. أجيبيني ليلى؟

- لا أدري، كل ما أعلمه أن هناك حلقة مفقودة.

- ستعلمين ليلى.. قريبًا جدًّا ستعلمين. لم أكن أتوقع أن يأتي اليوم الذي أرى فيه قطعة مني تسيء الظن فيّ، وهج من روحي يخذلني.

كان الحديث مقتضبًا، أكملنا عن يحيى وكيفية دعمه، أكد لي أنه واثق من الحكم، ويوم صدور الحكم سأعرف ما لا أعرفه. أعطاني رقم هاتف لزوجة أخي، غير ذلك الذي معي، قال أنه يتوقع أنه مراقب، وأول مرة أرى الحزن في عينه والانكسار. شعرت أني خذلته.. طلب مني أن نرحل، لأنه مرتبط بمواعيد.. عرفت أنه يخفي جرحًا ما. لكني قد تلوث قلبي بالشك، واغتالتني مخالب فقدان الثقة، واجتاحتني الأفكار التي تهيئه لي أسطورة من الطغيان.

الريب لا يدع للعشق في قلبي مكانًا، كدت أفقد إيماني حتى بقلبي، وأشعر بمدى قصوري.. وأتذكر ذاك الرجل الذي قضى معي العمر، فرغم أنه أسوأ من عاشرت، لكن الحياة في قاربه آمن وأهدى من الأمواج التي تتلقف خاطري فأنهزم. شممت رائحة أخي فتذكرت نجوى، أنفاسها، جاءني صوتها، ناعمًا كما كان كله حنان، قالت: من...

قلت أنا.

قالت: ليلى، أنت ليلى.. أين أنت؟ لماذا تتركيني وأخاك دونك..

قلت: أهلًا حبيبتي، كيف حال الأولاد؟

قالت: بل كيف حالك؟ اشتاقك الأولاد واشتاقك يحيى..

وأنا استكملت: عندي لك أخبار طيبة.. لقد قبل النقض والجلسة الأسبوع القادم، مبروك حبيبتي، علمت.

قالت: ممَّن؟

- لا داعي.. المهم كيف الأولاد؟

قالت: بخير.. أما زلت تشكين بأخيك، أما زلت تتصورين له يدًا في موت ياسين؟

قلت: لا، أبدًا، ولا أدرى كيف تصورت الأمر، اعذريني.

قالت: سيجن يحيى ليسمع صوتك أو أن يعرف عنك خيرًا.

قلت: طمئنيه.. أنا بخير وسآتي وألقاه وأضع رأسي على صدره، قبِّلي لي الأولاد...

سـأراهم قريبًا.

قالـت متعجلـة: قـولي أيـن أنـت حتـى أطمئنـه.. وعـده جـمال بمعرفـة طريقـك لكنـه إلى الآن لا يسـتطيع معرفـة أي أخبـار عنـك.

قلـت: طمئنيهـما، أسـابيع قليلـة وآتي... قـولي ليحيـى أبـدًا لا أشـك بـه... وأدعـو لـه دائمًـا.

وأنهيـت حـواري معهـا... ولا أعلـم لمـاذا اشـتقت أخـي إلى هـذا الحـد رغـم كل مـا سـمعت... لا، أبـدًا، أنـا أنتظـر، لـن أقـوم بتنفيـذ شيء، لـن أقـوم بقتـل خالـد الآن، عـليّ أن أنتظـر إلى أن ينهـي إجـراءات بـراءة أخـي. بيـده كل الخيـوط، لا أحـد يسـتطيع أن يفعـل مـا يفعلـه.

وأنـا في ردهـة التفكـير أتجـول طُـرق البـاب.. لبسـت حجـابي، وجدتـه «عزيـز»... جـاء لي بالزهـور وطلـب أن يتحـدث إليّ.. قلـت لـه: أهـلًا، تفضـل بالدخـول.

قال: اشتقتك، لم تسألي عني منذ فترة.

قلت: عفوًا منك يا صغيري، كنت في متاهات.. اجلس.. سأعد لك طعامًا..

قال: ستتناولين معي..

نظرت إليه مستغربة حديثه، قلت له: حاضر، أتناول معك الطعام سريعًا.

جلسـنا نـأكل ونتجـاذب أطـراف الحديـث وبقـي يحدثنـي عـن النـاس هنـا، فهـو يتعامـل مـع بـشر لا أعرفهـم ولا أراهـم وغـير مسـموح لي كامـرأة بالتجـاوز. قـال أنـه رأى هنـا أشـخاصًا في غايـة الـذوق، والأخـلاق، يصـلي معهـم الفـروض في أوقاتهـا، وتعلـم

منهم التسامح وأخلاقًا كثيرة، مثل كابتن سعد قائد الحرس.. والقائد نفسه قمة في الأخلاق ويأتي لزيارتي كل يوم ويتحدث معي عن والدي، ويقول هو بالجنة لا تقلق عليه.

استكمل: أحببته جدًّا.. هو رجل طيب... وكل من هم حوله، لكن هناك رجلًا آخر أكرهه جدًّا.. وأكره كل من حوله.. رجل كريه الرائحة، يأتي للصلاة على مضض.. وأتعجب كيف تتقبل منه صلاة وهو على هذه الحالة... وجواره حاشية سيئة مثله... صراحة أستاذة ليلى.. أعاني وأنا أتعامل معه..

قلت له: احكِ، ثم ماذا؟

قال: لقد أرسلت أموالًا لأمي.. لقد أعطاها لي القائد. سعيد أني أصبحت رجلًا.

قلت: وأنا سعيدة بك، أخبرني كيف ترى الناس هنا، هل تتصور أن هؤلاء من قتلوا والدك؟

قال: لا أعرف، «مش متخيل أنهم يعرفوا يقتلوا. هنا بشر قلبها طيبة يا أبلة! بس فيه ناس خبيثة»..

قلت: والقائد؟

قال: «الشيخ خالد، هادا أطيب قلب هنا، أبدًا لا أشك فيه لحظة».

صمت لحظة، بقيت أتعجب حالي وحال الطفل، كيف له وهو هنا منذ شهور أن يثق في خالد كل هذه الثقة، وكيف وأنا من أنا وهو بعض روحي تتوه عني الحقيقة، أهو جزع موت ياسين، أم ما يحاول هؤلاء الأوغاد بثه في صدري من شظايا حارقة. أم أنها المستجدات والحقائق التي يخلفها الزمن في

قلـوب موجوعـة!

قلت: ممكن تساعدني يا عزيز، أحب أن أعرف تفاصيل، أخبرني ما يجري هنا.

قال: أنا كلى لك يا ست ليلى.

ثـم غـادر وتركنـي في حـيرتي، لا أعلـم مـاذا أفعـل.. خطـر ببـالي يحيـى، ربمـا هـو مـن يسـتطيع وضـع النقـاط عـلى الحـروف، لكـن كيـف أقـوم بزيارتـه؟ كيـف يتسـنى لي الخـروج ثـم الرجـوع إلى هنـا دون علـم أحـد، بعدمـا بقيـت أشـعر أني مراقبـة طـوال الوقـت تحـت حراسـة مشـددة، لا أدري بالضبـط مـن تسـبب لي في هـذا القيـد، ولمـاذا كريمـة تسـعى لقتـل زوجهـا، وهـي تعتـبر في وضـع أفضـل فهـي زوجـة القائـد. ومـن هـذا الوغـد الـذي أعطـاني الصـور، ومـن أيـن عـثر عليهـا؟

سـاعات وعقـلي وقلبـي في حـرب بـاردة، يتعـاركان عـلى اسـتحياء، كلٌّ منهـما يملـك وسـائله الدفاعيـة ومبرراتـه المنطقيـة، كلٌّ منهـما يملـك ومضـة يقـين، كلٌّ منهـما يحمـل أثقـال عمـر راحـل، وشـعث عمـر أتى، مهزومـان يتعـاركان، لا يصفـى أحدهـم للآخـر أبـدًا. يعيشـان قريبـين مـن شـظايا قابلـة للانفجـار في أيـة لحظـة.. طرقـت البـاب كثيـرًا، صحـوت مـن نومـي منزعجـة، هممـت بفتـح البـاب. قلـت: مـاذا تريديـن؟

قالت: موعد الغداء.

قلت: لا أريد الآن.

قالت: إن سمحتِ لي أحب أن أتحدث إليك.

تعجبـت! لكنـي لمحـت حزنًـا واضطرابًـا في وجههـا، قلـت: تفضـلي يـا نعمـة، أعتقـد أن اسـمك نعمـة، أم هـذا اسـم حـركي؟

همت بالدخول ونظرت يمينًا ويسارًا حتى تأكدت أن لا أحد شاهدها.. جلست تنظر لي وأنظر لها في توتر، ثم قلت لها: تكلمي، ما اسمك؟

قالت: أنا المسئولة عنك منذ أن قدمتِ لكن غير مسموح لي بالحوار معك، ولا حتى الاعتراف باسمي الحقيقي.. لكني قلت لك نعمة وهذا فعلًا اسمي.

قالت: أثق بك كثيرًا، وجهك وتعاملي معك الأشهر السابقة يقول أنك غير الباقين.

قلت: من الباقون؟

قالت: هنا النساء مختلفات تمامًا عنك، كل امرأة هنا لها أغراض، لها تطلعات، يتنافسن لإرضاء الرجال، والاستحواذ على عقولهن، ومنهن من تستخدم لأغراض سياسية !

قلت متعجبة: ما هذا التشبيه الغريب؟ كيف تستخدم النساء لأغراض سياسية في هذا المكان؟

قالت: أنا هنا منذ أكثر من عشر سنوات، هذا المكان لم يكن على كل هذه المساحة، كان أصغر قليلًا، لكنه كان لرجل مخابراتي معروف في عهد الرئيس مبارك «الله يمسيه بالخير».

تبسمت لعفويتها وقلت: «ليه؟ ليه يمسيه بالخير؟»

قالت: «مشوفناش في عهده الأوباش دول بتوع قال الله وقال الرسول، وهما بيتاجروا بالدين وبس».

قلت: وماذا حدث بعد؟

قالت: «انتهى زمن مبارك من هنا، لقينا دول من هنا واتسلموا المكان بسرعة وغيروا وكبروا وعملوا سراديب ومخازن سرية، كأنه بيت أبوهم».

واستكملت: «بس صراحة مش كلهم ولاد كلب، فيه بعض ناس محترمة، بس الأكثر تحسي كدا انهم ولا مسلمين ولا حاجة والله كأنهم يهود».

نظرت متعجبة أردد بصمت: يهود!

قالت: «آه والله كدا.. بس فيهم ميزة انهم منظمين جدًا ودي أكثر حاجة تثبت انهم مش عرب ولا دياولو».

ضحكتُ بصوت عالٍ قائلة: «أنت حاصلة على إيه؟»

قالت: «أنا طلعت من تانية ثانوي، بس كنت غاوية أكمل وكنت بحب القراءة لكن والدي الله يسامحه، طلعني من المدرسة، وجوزني رجل ليبي غني عاش معايا خمس سنين وخلفنا تلات أولاد، ومشي ولا اعرف عنه حاجة، اشتغلت في كل حاجة، في البيوت في الأرض حتى عند أهلي.. عشان أربي أولادي.. شُفت كل الذل عشان أولادي»...

- فين زوجك؟

- لا أعرف.

- لماذا لم تقاضيه؟

- «وهو انا اعرف له مكان عشان أقاضيه ولا أهل حتى!»

- كيف وثّق أهلك ارتباطك به؟

- تزوجنا على سنة الله ورسوله، «هو مش سنة الله ورسوله توثيق بردو يا أستاذة؟»

نظرت إليها وما عدت قادرة على الرد، بقيت أتمعن في وجهها الحزين وتجاعيد اليأس في ثناياها المعذبة، سكتُّ قليلًا ثم قلت:

- هو رجل غريب على أية حال، كان يجب أن يحتاط أهلك.

- كانت عائلتي تمر بظروف سيئة.. «كان ليا أختين بنات على وش زواج وخمس أخوات رجاله لكن كانوا فاشلين.. جِه الراجل دا زيارة لناس عندنا وكان غني وعنده عربية وخدم يروحوا ويجوا معاه... دفع مهر كبير لأبوي واتجوزت وسافرت معاه الفيوم.. كان شاري أرض هناك.. عشت خمس سنين معاه... اكتشفت أنه متجوز تلاتة غيري عشت مع واحدة منهم والباقي كان في ليبيا.. كان عنده أولاد كتير جدًّا.. ولا يعرفوا بعض... في الآخر صحينا أنا وزوجته التانية لقينا ناس بتطردنا من البيت والأرض.. قال إيه باع لهم الأرض والبيت.. ندور عليه ولا حد يعرفه.. فضلنا شهور عند ناس طيبين لحد ما رجعت الحسنة.. وعشت في بيت جنب أهلي وشُفت منهم الويل... اللي باعوني زمان وقبضوا التمن.. اشتروا بمهري الكبير أرض والأرض بقت أراضي وكتبها أبوي باسم اخواتي الذكور قبل ما يموت... واخواتي اتخلوا عني.. وشغّلوني عند اللي يسوى واللي ما يسواش ويا ريت سابوني في حالي... أبدًا... بهدلوني... بعدين عرفت انهم هنا عوزين ناس يشتغلوا.. جيت انا وأولادي.. كان المكان مزرعة صغيرة عن كدا، وكل الأماكن كانت مزروعة نباتات عطرية، كانت بتتصدر للخارج، كنت اسمعهم بيقولوا كدا، بصراحة كانت أحلى

الأيـام.. كانـت النـاس شـديدة شـوية بـس أمـان عـن كـدا.. كل السـنين دي لا أهـلي يعرفـوا عنـي حاجـة ولا حتـى سـألوا.. وملقتـش رحمـة خالـص يـا هانـم لا هنـاك ولا هنـا... أنـا اتباعـت انـا وعيـالي مـن غـير تمـن... أولادي كـبروا دلوقتـي.. الولديـن بيشـتغلوا هنـا.. والبنـت اتجـوزت هـي كـمان موجـودة هنـا... كان عندهـا ٢١ سـنة.. شـافها راجـل قـد أبوهـا، اتجوزهـا غصـبن عنـي وعنهـا ومـن يومهـا وأنـا وهـي عايشـين في هـم.. وده السـبب الـلي خـلاني أكلمـك مـع أن دا ممنـوع، بنتـي عمرهـا دلوقتـي ٥١ سـنة.. كانـت بتمـوت مـن كام شـهر.. لأنهـا حملـت والجنـين مـات في بطنهـا.. أنـا عـاوزة بنتـي تطلـق.. أنـا عارفـه ان دا صعـب.. هـي متجـوزة حيـوان بيعذبهـا، وهـي مـش قـادرة عليـه... بنتـي لسـه طفلـة».

وراحـت في بـكاء موجـوع.. قمـت أحـضرت لهـا المناديـل وبـدأت أطيـب خاطرهـا المكلـوم، اسـتأنفت قائلـة: «أبقـى طـول اليـوم اشـتغل في المطبـخ شـغل شـاق ومتعـب وبالليـل أسـجد لـربي أدعـي انـه يخرجنـي مـن هنـا.. هنـا قـبر كبـير يـا أسـتاذة.. أي حـد رجليـه تخطـي هنـا بيمـوت».

بقيـت أنظـر لهـا وأتعجـب مـن فعـل الدنيـا بالبـشر حـين تسـير بهـم في ركـب لم يألفـوه، يـركل كل راحـل عـبر مـدارات الوجـع أقواتهـم. وتُعـصر أرواحهـم بـين كفـي الحاجـة، وتُمـزق أكبادهـم بـين أنيـاب الفقـر والـذل، قاسـية تلـك الدمعـات السـاقطات مـن جـوف المنكسريـن، حارقـة هـي دماؤهـم، تتوسـط دائـرة البـكاء حقوقهـم المكبلـة بـشرك هـؤلاء الطاغـين، الذيـن لا يخافـون في اللـه لومـة لائـم... تمـزق قلبـي لأجلهـا.. كـدت أبـكي لكنـي أردت أن تـراني قويـة حتـى تتكـئ عـليّ بقـوة وصلابـة. طلبـتُ منهـا أن تكمـل الحـوار... طلبـتْ أن تغـادر فلربمـا أكـون قـد تضايقـت منهـا أو أنهـا أثقلـت

عـليّ. أصررتُ أن تكمـل، فاتـكأت بظهرهـا للخلـف وفـردت ذراعهـا، وأخـذت نفسًـا عميقًـا، وكأنهـا تتخفـف مـن ثقـل، ثـم قفـزت بأرجلهـا فـوق المقعـد وتربعـت، نظـرت إليهـا باسـمة قالـت: «بشـوفك زي إخـواتي، مـن زمـان نفـسي احـكي.

قلـت بعـد أن اتـكأت مثلهـا عـلى ظهـر المقعـد: وأنـا منـذ زمـن أتـوق لمثـل هـذه الجلسـة..

رجعـت للأمـام وجذبـت الصينيـة النحاسـية مـن فـوق المنضـدة الصغـيرة التـي تتوسـط المقاعـد، وقامـت بإشـعال «السـبرتة» وتلقيـم «الكنكـة» الصغـيرة بالقهـوة المحوجـة الخاصـة التـي أخرجتهـا مـن جيبهـا في كيـس صغـير وهـي تقـول: «دي بقـي متطلعـش غـير للحبايـب». ثـم اسـتأنفت قائلـة: «غـير هـم بنتـي، تعبانـة عشـان الأولاد، أنـا مـش عارفـة أولادي بيعملـوا إيـه بالظبـط، هـما بيشـتغلوا هنـا، الـلي بيشـتغل هنـا بيجـوزوه هنـا وبيعيـش هنـا، ابنـي الصغـير ٧١ سـنة بيشـتغل في الزراعـة معاهـم، لكـن الكبـير بيدربـوه زي الجيـش بالظبـط، وبـيروح أماكـن معرفهـاش، عنـده ٠٢ سـنة لكنـه كتـير بيخبـي دموعـه، بسـأله مالـك بيخـاف عليـا، بيخبـي همـه جـواه.. طـارق دا الأقـرب لقلبـي.. بيحـس بيـا كان نفسـه يشـيل عنـي.. لكـن الدنيـا كلهـا كانـت ضـدي وضدهـم»..

تناولنـا القهـوة، قالـت إنهـا قهـوة تـركي مخصوصـة للقائـد والشـيوخ، هـي لا تعـرف أني تناولتهـا مـن قبـل! نظـرت في عينيهـا كثـيرًا، ثـم قلـت: ومـاذا بعـد؟

قالـت: لا شيء، أنـا أعلـم أن حـل مشـاكلي عـلى اللـه، أزمتـي أزمـة حيـاة، أزمـة قدريـة.

تعجبت كلامها المرتب المهندم فنظرت مبتسمة، ضحكت قائلة: الدنيا الكبيرة بمعاناتها المجحفة علمتني، القهر أثقل خبرتي، أنا أستطيع مساعدتك في أي شيء لكني لا أستطيع أن أخلص حبات قلبي من القهر.. ربما الموت حتمي أمامي، أعلم حينما نقوم بالصلاة على أحدهم أن يومًا ما سأصلي على أولادي. صلاة وداع لا حيلة لي بها.

بقيت أنظر وحرقة في عيني تخفي وراءها جرفًا من الوجع وهطولًا من دموع تبدي حقيقة المأساة، قالت: لا أريد شيئًا، فقط قبل أن يغادر القائد، يطلق ابنتي من المدعو الشيخ زهران..

قلت: ماذا، ما اسمه؟

قالت: زهران.

قلت لها: أعرفه، لقد رأيته وأعرفه!

قالت: أعلم، عند كريمة.

قلت: وكيف عرفتِ؟

- ابنتي كانت معه عند كريمة أثناء مقابلته معك.

وقفت منزعجة، رميت فنجان القهوة من يدي قائلة بصوت عالٍ: ماذا تقولين؟ ابنتك زوجته؟

- اخفضي صوتك، واهدئي.. أقول لك زوج ابنتي، ابنتي الزوجة الثالثة له.. نعرف عنه كل شيء..

- أتدرين ماذا قال لي؟

- نعم، أحب أولًا أن أعرفك بشيء.. «كريمة دي عاهرة... هي اللي بتدير المكان دا... وتعرف كل خباياه.. هي تحرك الجميع كقطع الشطرنج».

جلست وأنا في قمة الألم والحسرة.. قالت: ماذا بك؟

قلت: لا شيء.. وما علاقته بكريمة؟

- قلت لك عاهرة.

- ماذا؟ كيف تقولين هذا الكلام على زوجة القائد؟!

- أقول الحقيقة.

- وخالد؟

- أنقى مَن عرفت، وأرحم وأعقل مَن هنا.

- ماذا؟

- وعندك شك! كيف استطاع هؤلاء تضليلك وأنت ذو علم وعقل ودين؟!

لا أدري، شعرت بدوار وكدت أن أقع.

- ماذا يريدون من خالد؟

- يريدون قتله لأنه يقف حائلًا أمام قبحهم.

قالت: أتركك ترتاحين.. واضح أنك تمرين بحالة سيئة، سأعود غدًا مساءً.

قلت: نعم.

وقد فقدت قواي... استكملت: سأنتظرك صباحًا، لا طاقة لي بالانتظار أكثر...

قالت: صباحًا، سأعاودك ومعي طعام الفطور...

أومأت برأسي، بقيت جالسة بعد أن غادرتْ، لا أدري عن نفسي شيئًا... أي فخ هذا الذي وقعت فيه! من هؤلاء الذين يستغلون وجعي، يستعملونني لتحقيق نصر مزور، في ميزان مقلوب لعدالة مختالة ومختلة... ماذا أفعل؟ لا أدري.. مع من أتحدث؟ من لي هنا؟ من العدو، من الرفيق؟ ما عدت أدري غير انكسار ألمي بي، معنى أنها بهذا القبح.. إذن خالد ليس على باطل، يتآمر الزناة على الشرفاء غالبًا... ويمحق الشيطان روح الحق حين ترف على أجنحة الباطل... الطاغون يتلاقون في بوتقة الحقد الأزلي بين الخير والشر.. المتمردون على الفطرة البيضاء يسكنون جوف العتمة كالخفافيش يتعارفون فيما بينهم، يتخطون حاجز القول المنطق، يتوارون خلف تكهنات الخديعة وأذيال المكر، يرتادون أثواب الحرب.. ويتخافتون عند صفير السلام..

يبصقون سموم قلوبهم أسفل أقدام الطبيعة، هم ضد الله وضد الكون. هم داعشيو الفكر إرهابيو المنطق، جماعات الشر الحديثة في زي كفار قريش يتهجون حروفنا ليكونوا معنى يتناسب مع غاياتهم الحمقاء، يدّعون أنهم منا، فنصدق لأننا لم نعد نعرف أنفسنا، نتوه بينهم، وربما يتخفى البعض خلف فلسفتهم المرسومة بحرفة عالية داخل إطار الدين.

وكانت الليلة الأطول، حيرة ما بعدها شيء، لا أحسن التصرف، أحتاج أحدًا معي، أين يحيى.. أين جمال.. أين ياسين أين حمزة، بين سكرات الموت ومنعطفات الحياة كلنا معًا نجلس على مائدة الحب.. نتناول طعام الألفة، نتضاحك فيما

بقـي لنـا في عـالم الـبرزخ، هنـاك رأيـت «خالـد»، كان عـلى جناحـي حمامـة بيضـاء يطـوف في جـوف عتمـة ثـم يمزقهـا فيظهـر النـور، رأيـت النـور، أنـار بصـيرتي، فصحـوت حـين قـال المـؤذن: اللـه أكـبر. قلـت: حقًـا اللـه أكـبر..

أديـت صـلاة الفجـر والنـور يتخلـص مـن بقايـا الظلمـة، ودون قـرار مشـيت خلـف بريـق النـور.. وهاتفـت «خالـد»: أريـدك حـالًا..

قال: ماذا بك؟

قلت: مريضة...

قال: آتي لك بطبيب...

قلت: أنت! أنت فقط، أريدك الآن..

وكنـت أعلـم أنـه يخجـل أن يـأتي حجـرتي... لكنـي أصررت... ارتديـت ثيـابي وانتظـرت... لم أُعـد شـيئًا.. ولا أدري فيـمَ أتحـدث؟ فقـط أريـد أن أتخلـص مـن عبئـي ومـن حمـلي الثقيـل...

الفصل الثاني عشر

في ميـزان العدالـة الوقتيـة، الثوابـت مائـلات، تلـك التـي تتصـدر قائمـة أعـمال الباطـل، تتفيهـق تبعًـا لمعطيـات الظـرف الكائـن، تتشـبع بالدسـم السـام الـذي يتغلغـل حتـى بواطـن العقيـدة فيخلـع زيـه كلـما جـدت المطامـع بتعـرٍ.. مـن وحـي الشـيطان تبنـى أفكارهـم، عقيـدة أزليـة حـارت فيهـا الهـالات الكونيـة.. فتلعثـم الحـق عنـد ذروة الباطـل، وتدثـر مجنيًـا عليـه بفعـل الرويبضـة الملثمـين بوشـاح الفضيلـة المدعـاة...

إنهـم يتطاولـون في المكـر ويتعالـون في الخـداع، يصلـون في كهـوف الوهـن صـلاة جنائزيـة مـع عماليـق الـشر، وكلـما زادت سـوءًا بُنيـت مدننـا مـن هـلاك، أنـت فقـط مـن يملـك فـك أقفالهـا، إنهـا دائـرة الـشر، تلـك الدائـرة الحمـراء، في جوفها تقـرع كؤوس الخديعـة وتتعـالى ضحـكات العاهـرات، وتحـاك المؤامـرات عنـد الحافـة، تتلـون الأرض بلـون الحنـاء وتعلـق الزينـات، وتُرتـدى الأقنعـة، يقـال للسـماء هيـا أمطـري فتمطـر، وكأنمـا أربـاب العقيـدة قـد صعـدوا سـدرة المنتهـى مـن الـورع، وهـم في الحقيقـة قرنـاء الشـيطان وعزوتـه، يخلـدون عـزه بتـاج يوضـع عـلى رؤوس الأغبيـاء مـن لا يفقهـون، لا يدرسـون.. لا يعلمـون.

وطـرق البـاب برفـق، ومنـذ متـى كان فظًـا غليظًـا؟! فتحـت بـاب الرحمـة بعدمـا أديـت صـلاتي ودعـوت ربي، وتمنيـت أن يهديـني سـبيل الرشـاد.. قـال: صبـاح الخـير..

ابتسمت كما كنت وكما كنا، قلت: كل صباح ألقاك فيه هو صباح خير.

أغلق الباب وجلس على مقعد جانبي، وأجلسني جواره، قلت له: سأُعد لك قهوة.

ذهبت إلى الطاولة التي تتوسط مقاعد إسفنجية وجلبت الصينية وبها كل الأدوات... وجلست جواره وبدأت أعد القهوة على الطاولة الصغيرة.. كان ينظر لي مبتسمًا وأنا أيضًا أختلس نظرة ندية تحمل كل خمائل الصباحات الماضية، كل طعنات الفراق الغائرة... النازفة من روحي الحياة.. نسيت معه كل كوارثي، قال: ماذا بك؟

توقفت عما أفعل وبقيت أنظر للقهوة وهي تنضج على نار هادئة، وبدت حيرتي، ماذا سأقول له... جئت لأقتلك؟ ماذا فعلت بنفسي، لماذا طلبت حضوره، هل سيفهمني، هل سيقدر ما أنا فيه، أسوف يساعدني أم سيمنعني؟ وإن راوغت ولم أخبره حقيقة الأمور.. ماذا عساي أن أفعل؟ خطف القهوة وقد كادت تفور، نظر لي متعجبًا قائلًا: ماذا بك؟

قلت: لا أدري!

قال: لكني أدري!

نظرت باستهجان: ماذا؟

بقي يصب القهوة لي وله وهو يقول: تشكين فيّ، تتصورين أن لي علاقة بموت ياسين، ولربما تريدين الانتقام مني، جئتِ لأجلي... أنا إرهابي قاتل.. شتّتُ عائلتك وفي الماضي دمرت أحلامك وقسمتك نصفين.

نظر قائلًا وهو يعطيني فنجاني: أليس كذلك؟

ارتجفت فمسك يدي بالفنجان بعد أن كاد أن يُسكب. قلت له: لا أدري ماذا أفعل الآن، أين دروب الصواب، أين الحقيقة، وما أنت بفاعل بين هؤلاء الأوغاد،

ولماذا أنتم بعيدون كل البعد عن عيون الدولة؟

قال: كل سؤال يحتاج إلى ردود كثيرة، نبدأها بدروب الصواب... إنها هنا.

وأشار إلى قلبي، ثم رفع إصبعه تجاه عقلي قائلًا: وهذا دائمًا يضل.. اسمعي قلبك جيدًا... الصواب ما نستشعره حينما نحلق في الفضاء دون قيد، الصواب فطري خلقت منه نفوسنا البيضاء، وشربت منه خواطرنا حتى ارتوت... الصواب هو إقرار المشاعر، كائن في أختام الماضي البعيد على سنين العمر الراحلة. هو دمي ودمك... هو العشق الذي ربط روحينا ولم يتوقف حتى في أحلك لحظات الفراق... كيف اعتقدتِ أني ويحيى نعمل مع هؤلاء؟

أكمل: الصواب في فاتحة الكتاب، وحينما تمتد يدك قبل الفجر بالدعاء والتبتيل إلى الله.. الصواب أقوى من الحقائق وأوضح من الوهج الآتي من هناك.. هذه هي إجابة السؤال الأول، أما ماذا تفعلين.. أعلم أنك تتآمرين لقتلي.

ارتعدت وأشحت بوجهي بعيدًا.. قال: لا تخجلي، أنا أساعدك وأمهد لك، وجعلتك تستعينين بعزيز، وسأضع في طريقك كل من يساعدك. ربما تهدئين وتهنئين لو انقطعت أنفاسي من الوجود.

كان مذاق القهوة مرًا... وأدمعي تتساقط خجلى في الفنجان... جلست محاولةً الابتعاد بعيني قدر المستطاع.. قال: لا تخجلي، سأدفع عمري راضيًا ثمنًا لهدأة روحك وسكينة خاطرك.. لو يريحك موتي فكيف أعيش وأنا عثرة في طريق راحتك؟ ما قيمتي إذن، لو أن قلبك لا يسعني، من أين لي كون بديل؟ اخترت الموت يا ليلى، لأكفر عن خطئي في حقك، عن تقصيري.. أضعت لك العمر وسرقت بدون

قصد منك السكينة، ربما موتي يرد لك الراحة التي افتقدتِها طوال عمرك بسببي.

وقرب مني وأنا أبكي.. مسك يديّ قائلًا: أنا بين يديك يا ليلى، أنت لا تحتاجين أبدًا لحيل ولا معاناة حتى تهدرين دمي.

وجذب يدي ثم وضعها على رقبته، وهو ينظر في عيني عميقًا ويبحر في خاطري وتعود أنفاسه لي بالأمس البعيد، حينا تلمست خوافقي لأول مرة أضلعه ونامت في بحره الغريق، كانت عيناه تغرورقان بالدموع، وكنت أبكي أكثر، ومن صوت بكائي يستيقظ الموتى، ويفيق السكارى، صعدت بيدي عاليًا حتى تلمست وجهه، ثم لثمت جبينه وعدت أدراجي وأنا أبتسم، تتبرأ مدامعي من الوجع وينقض صدري طاردًا الضيق. وأعود خجلًا أمسك فنجان قهوتي البارد جدًّا، وأرتشف دون وعي وهو ينظر لي...

لحظات كنت أود ألا تنتهي، لو أنها سارت العمر وفقط، من الميلاد إلى الموت. وبعدها أذهب لأتلقى مصيري، إما في جنة العشق أستتر أو في جمار الشوق أستعر. نظرت بعد فسحة من الوقت في عينيه قائلة: ظل معي، إن لم تجمعنا الحياة، لربما ساحة الموت تسعنا.

قال: بل الحياة، علينا أن نحاول التوصُّل لحل.. يرضيك أنت.

قلت: وأنت؟

قال: أنا لا يرضيني سواك... أنت رضاي..

قلت: إذن اسمعني جيدًا، نعم جئت لأجلك، وفعلًا تصورتك قاتل ولدي، منتهك عمر أخي. جئت لأنتقم، كنت بين رحى الشك والحقد أتقطع، وبين نار

الجوى والشوق القديم أتقلى، كنت أسمع الخلق يقولون: «بين نارين». لكني لم أعلم المعنى قبل أن ألقاك... ستة أشهر قضيتهم هنا، كنت كمن اكتشف غياهب الحياة من جديد، كنت أفض اشتباك العقل والقلب بصعوبة وكانت مخلفات أثر الفض كبيرة جدًّا، وجع بالقلب وحيرة بالعقل. لن أنسى تلك اللحظات التي خدر عشقك حقدي وانتشيت بصحبتك وغرقت في عبقك المعتق بأحلام الصبا وضحكات الطفولة، ربما وأنا من جئت لموت، عشت أرق لحظات الحياة معك، لا شيء أحتاج بعد، رضى قلبي واستكان جوار نصفه المفقود.. لا أدري كيف ستستقبل كلامي، لكن هناك من يدبر لك موتًا، هناك من يملأ الحقد ذاته منك، هناك من أراد أن يستعملني ضدك.

نظر عميقا قائلًا: ماذا؟ من هؤلاء؟

- تلك المعتوهة التي تزوجتها.

قال: من؟

- ألك زوجات هنا غيرها؟

قال: تقصدين كريمة.. ماذا بها.. إنها تحبني وتضغط عليّ لتأتي معي وأنا ذاهب إلى أعمالي وبيتي، لكني دومًا أذكرها أنها وافقت على شرط عدم بقائي طوال الوقت عندما تزوجتها؛ فأنا رجل كثير التنقل والترحال.

- من تكون كريمة، ولماذا تزوجتها؟

- كريمة هي إحدى دعائم هذا المكان القوية، وتملك قدرات خارقة، وتعرف كل الخفايا، تزوجتها منذ ثلاثة أعوام، كنت في رحلة سريعة إلى هنا ونصحني

المقربـون بالـزواج بهـا، وهـي سـعت أكـثر لذلـك.

- كيف وقد قلت لي أنك لا تأتي هنا إلا نادرًا؟

- أنـا أتيـت إلى هنـا مـرات قليلـة جـدًّا، لكنهـا كانـت تقـول «يكفينـي أني زوجـة القائـد».

- وكيف قائد؟ وأنت لا تملك قرارًا هنا ولا تملك أمرًا؟

- أغلـب مـن هنـا يحترمـوني وكانـوا يشـاوروني كتابيًـا في بعـض الأمـور أيضًـا، هـم يعرفـون تاريخـي القديـم في المقاومـة الفلسـطينية، «يعنـي زي مـا تقـولي كـدا قائـد شرفي». لكنـي هنـا منـذ مـا يقـرب مـن ثمانيـة أشـهر فبالتـالي كل الخطـط تعـرض عـليّ قبـل التنفيـذ.

- أوَ عُرضـت عليـك عمليـة كمـين الحسـنة؟ تلـك العمليـة النكـراء التـي راح ضحيتهـا الضابط حسـام؟

- لا، أبدًا، قد تمت من ورائي ولقد عاقبت من فعل ذلك.

- مَن فعلها وكيف تمت في سرية دونك؟

- أفلـح الشـيخ زهـران ومعاونـوه هنـا في إتمـام الأمـر بعـد أن ضيقـت عليهـم، وكانـت هـذه أول وآخـر عمليـة تتـم منـذ مجيئـي.

- ثم ماذا؟

- أضـع الأمـور في نصابهـا، أقـوم بتقسـيم الشـباب منذ شـهور إلى مجموعات لدراسـة أقسـام الديـن دراسـة صحيحـة والبحـث في الأحاديـث المكذوبـة، وغـير الصحيحـة، وأيضا

السعي إلى معرفة الحقائق من خلال النصوص القرآنية أولًا، وفض الاشتباك بين الأحاديث والسنة، من خلال الدراسة المرجعية والتفكير المنطقي واستخدام طرق البحث العلمي، لقد استطعت في فترة وجيزة أن أغير في عقول الكثيرين هنا، ولقد قربت من تحقيق هدفي، وهدف ياسين.. استلهمت الكثير منه، كان راقيًا، متفتحًا، كيف لم يفخر به والده؟ إنه كان فخرًا للجميع، عندما يتحدث، الكل يصمت، يسبق حديثه تلك الابتسامة الجميلة والصوت الهادئ الرزين، يعلم كيف يستخدم عقله، وكيف يتعامل مع صنوف مختلفة من البشر. طيلة عمري الدعوي، لم أقابل مثله، رغم أني أوشك أن أعرف أفضل شباب الأمة وأسوأها، كان خيرًا من الجميع، طوال عام كان متحركًا لا يتوقف عن مساعدة الناس، شعلة نشاط، يعمل مع الأطباء في المستشفيات، ورجال الإسعاف في كل المناطق، ومع لجان حقوق الإنسان، وفي جلسات الدعوة، وفي مناقشات التفاسير وداخل البيوت المنكوبة يهدهد ويطيب الخواطر، وحتى جلسات الأنس والمرح، كان ضحوكًا، يشع جوًا من الألفة، ذكرني بك، بقيت طول الوقت أتذكر مواقفه في المظاهرات، وفي العمل العام والجمعيات الحقوقية، نسخة ذكورية منك يا ليلى.

كنت أنظر له وهو يحكي عن ياسين وأبتسم، صياغته في مدحه جعلتني أرى ياسين أمامي، لم أبكِ مثل المرات السابقة التي كنت أبكي فيها لو ذكر ياسين، نظر لي خالد: عفوًا منك يا ليلى، أقلب عليك الوجع.

قلت: لا، أبدًا. فقط تشبعت روحي كأني أراه، ربما تغفر لي يا خالد حينما تعرف من فقدت، أنا لم أفقد ابني، أنا فقدت دنيا كاملة كانت عوضًا عن الخواء الروحي الذي حييت، سندي، حبيبي، أخي، صديقي، حضن أمي وقبلة أبي، صدره

كان اكتفاء، صوته كان الدفء كله.. كان عالمًا كبيرًا أتنقل فيه بين جنبات الحياة لأبقى. ضاعت الحياة من بين يدي وأنا على قيدها، بقيت أسير كأني في فضاء أرتعد ظنًا مني أني أنزلق، لا أرض أسفل مني تحملني، لا سماء تظللني، الغيمات دائرات حولي يعاندن خوافقي ويستعذبن عنائي. ليل مسدل يطوف حولي، ولا نهار يأتي مهما ألفني الانتظار، تعبت من السواد القاتم حولي، رأيت في لحاقي به خلاصًا لا أصل له. حتى وأنا أضحك، حتى وأنا جوارك، غيمة ناعسة بصدري لا تنفك ببعث آخر، فقط تظلل دواخلي.. طعم الحياة مر في حلقي.. من هزمني يا خالد وقتل ابني؟ قل يا خالد، أغثني يا خالد! ناري بقلبي تتلظى وتتوهج، أريد أن أهدأ..

وضع خالد يده على وجهي يزيل أثر الإعياء الروحي الذي يتسبب فيه رحيل ياسين.. دمعات كقطع نار حارقة تأكل الأخضر في وجهي تحوله كما الرمال التي سقط فيها دم ابني.

قال: أقسم لك لن أتوانى حتى أنتقم لي ولك، أعتقد أنه رغم اختلافنا القديم لم نتفق على شيء مثلما اتفقنا على حب ياسين.

وقفت منتفضة أمسح بقايا الدمعات الساقطات من مقلي. قلت: توّهتني يا خالد، أنسيتني ماذا كنت أود أن أقول لك..

- ماذا؟ كنا نتحدث عن كريمة، قلتِ تتآمر عليّ!

- نعم، تتآمر عليك وعفوًا تحملني.. هي تخونك بكل ما أوتيت من عهر وقبح، كيف تزوجت هذه؟

- أنت تدخلين في حيز الحرام يا ليلى.. كيف تقولين ذلك؟

- أقول الحقيقة، هي تخدعك، تتآمر مع زهران ومن على شاكلته لا أدري لصالح من، لكنها تتآمر. سأحكي لك التفاصيل لكني أرجوك ألا تنزعج..

وسردت له ما تم بيننا في لقائي معها في حجرتها هي وزهران، وحديثي مع نعمة، وحينما صرخ بوجهي بعد علمه بحقارة كريمة قلت أني معي الدليل.. قال أنه يعلم أنها تتآمر عليه لكنه صدم بأمر الخيانة ولم يتصور الأمر قطُّ بهذه البشاعة. حدثته عن أمر الأوراق والوثائق والصور وأعطيته الصورة التي فيها إشارة لياسين، وسألته عن سبب الإشارة لابني..

قال: إن الأوراق أوراق عمل عادية؛ فأنا أملك مؤسسة ناجحة، ولكن هذا دليل أن مؤسستي مخترقة.. أما الصور فكنت أرسلها مع خطابات لرجل كبير هنا، أطلب منه أن يهتم بياسين، ربما تقابلينه يومًا ما وتتأكدين من قولي هذا. أنا رفضت أن يأتي ياسين إلى هنا، خشيت عليه، لكنه أصر، قال أنه سيأتي هنا سريعًا ثم يذهب إليك، يبقى معك، بعدما علم من خاله أنك تمرين بأزمة صحية، كنت في حيرة بعدما عجزت عن إقناعه أن يبتعد عن الخطر ويستقر جوارك فوافقت على هذا الحل حتى ينهي ما أراد ثم يبقى معك في أمان... لكنه ذهب رغم أني كنت حريصًا عليه جدًّا...

سكت قليلًا ثم قال: أشعر بإحباط كبير.

بقيت جواره أطيب خاطره.. وأقول له يجب أن نصبر ونخطط لهم مثلما يخططون لنا.. طُرق الباب ولا أدري لمَ ارتعدت! وجدتُ نعمة بطعام الإفطار،

دخلتْ ونظرتْ تجاه خالد، وجدته حزينًا يضع يده على جبينه فعلمت أني حدثته في أمر كريمة، فخرجت منزعجة، وجلستُ أنظر لخالد والنار تتأجج في قسمات وجهه ثم يضغط بيده بكل ما أوتي من قوة على المنضدة وتظهر علامات انزعاج في كل أجزاء جسده، تظهر في ارتعاشة مثقلة بآهة محبوسة في حلقه... ذهبت باتجاهه، قربت أكثر أربت على ظهره ونزعت يده من فوق جبينه وقبلتها، ثم رفعت رأسه وطلبت منه أن ينظر لي، قلت له: ماذا تعني لك تلك البلهاء؟

قال: هي لا تعنيني، يشغلني ما يقوله الناس عني، كنت غبيًا، لم أحسب الأمور كما ينبغي.

قلت: سنحسب الأمور بشكل أفضل ونعد للغد معًا.

أخذته من يده تجاه الشرفة وأزحت الستارة، ثم قلت له: انظر هذا الامتداد البعيد، يستحق أن نتفق بعد كل الاختلاف الماضي، ليس لدم ابني فقط بل لحقن كل الدماء المزمع تناثرها، وليس لأجل الدماء فقط؛ لأجل التراب.. والرمال.. لأجل النيل والصباح في شرفة بيتك، والغروب خلف الهرم الأكبر، لأجل المائدة الصغيرة التي تضم عائلة بالكد تأكل العيش مغمسًا بالعذاب ومحلى بالأمل، لأجل الطفل الذي يحبو في اتجاه العزة ويدور في جنبات الحضارة، ويظن أنه ملك طالما أنه مصري. عِدني أن نفعل المستحيل حتى ننجو بالوطن، نتجاوز هذه الحقبة الدنسة، تعال، تعال.

وجذبته إلى الطاولة الكبيرة عند الطعام، وبدأت أعد لقيمات لأجله، حاول أن يبتسم ليرضيني، لكني كنت أعلم أنه يحترق داخليًا، تناول الشاي وطلب مني العودة إلى غرفته، وقال أنه يجب أن نتقابل بعد ساعات لإكمال الحديث.

ورحـل.. مكسـور الكبريـاء، رحـل كقائـد مهـزوم، وحاكـم قيـد الخيانـة والتآمـر، كان قبـل لقـائي بـه يملـك ثقـة ويقينًـا في مواقفـه، ويظـن أنـه المتحكـم الأوحـد في الأمـر، شـعرت براحـة كبـيرة بعدمـا اتفقـت أنـا وخالـد، مجـرد بقائنـا في درب واحـد هـو انتصـار في حـد ذاتـه...

الفصل الثالث عشر

بين راحتي الزمن ألف سؤال بلا جواب، تدرك معنى النور حقًا، حينما تعبر حاجز العتمة المنيع بصعوبة، وكونك وحيدًا لن تستطيع، تحتاج دفعات من اليقين توقظ فيك الأمل، ودفقات من الصبر والمقاومة، لتتدارك اليأس القابع في سطوة الليل الساكن خاطرك. اللغز الكبير الذي جاء بنا إلى الواقع، لا يبرح أن يحل بومض ادعاء أو إعلان محاولة، يحتاج إلى متابعة من نوع خاص لتعاقب الأزمات المستحكمة التي تسد عنا نور الشمس، وتخفي بسدها الحصين بوارق الحقيقة، وطرائق النور، وكان السؤال الأول، وألف سؤال قبل وضع علامة الاستفهام، لِمَ في هذا الدرب سرت دون حلمي؟ تحررت بداية الطريق من حقيقتي وشغفي، وأنفضت عن جسدي كل ما يثير فيّ الزهو والثقة، وسرت جرداء وكأن الحياة حتى تنجح لا بد أن تتخلص فيها من كل مستحقاتك الثرية. ما بالها كانت سكة موت ملثم بوشاح حياة مستعارة!

والسؤال الثاني بعد الألف، لِمَ علينا أن ننزع القلب من مكانه الذي أقره الخالق لوضعه في مكان آخر يرتضيه الخلق.. وما هي العلامات الفارقة في الحياة، إذا أزحنا المنطق، وسرنا خلف تقاليد بشرية لا قيمة لها ولا أحقية إلا أنها كانت لبشر سبقونا في الجهل، وما هي تلك اللوعة الآثمة حين يغدو القلب الوارف المترف إحدى شعب العقل الخرساء الجدباء. ولماذا يتلفظون دائمًا «عين العقل» ولا يطرقون باب اليقين الروحي بكلمة «عين القلب» وهل عين القلب لا تَرى؟ من قال إن عين القلب لا ترى؟ ومن يرى إذن إذا كانت عين القلب عمياء، ونبضاته مصابة بالخرس والروح صماء، والجسد موثق!

وكيف رأيته منذ الأعوام البعيدة جدًّا؟ حينما طرق باب البيت في يوم ممطر وراعد، وكان يرتدي بالطو من الجوخ ويضع كتبه فوق رأسه ويسألني عن يحيى. قلت له بجرأة لم أعهدها: تفضل أولًا. دخل سريعا مختبئًا من كثف المطر، وأزيز الريح، يتلمس ظل دفء؛ فأزاح غطاء الرأس وخلع البالطو المبتل وبدأ يزيل المطر عن الكتب، كل هذا ولم ينظر لي ولا حتى شكرني أني سمحت له بالدخول، بقيت أنظر له وأتعجب وهو يهندم نفسه دون أي حديث للحظات، ثم رفع عينه ناظرًا لي، ثم توقف عند عيني، وتوقفت هائمة في روحه.

لا أدري كم حياة مرت بنا ونحن نتوقف عند هذه النظرة! أسرق السكينة من تواتر أيام تمر دون أن يرمش ودون أن أوجل، طوفت الكون في رحلة تشبه الحيز بين المثالين، الأول طائر يهفو في الفضاء عابثًا، والآخر جنين يقذف به على أرض الموت ليجتاز الحياة. حتى جاء صوت أخي موقظًا لي وله، ضاحكًا قائلًا: «خالد هههههه، دا وقت حد يخرج فيه؟ أنت إيه يا راجل!»

ضحك وقال: تصورتها لن تمطر! وماذا أفعل والكون دائمًا ضدي؟!

وجاء يحيى وقال لي: أتعرفين هذا؟ هو خالد الذي حدثتك عنه.

أكمل ضاحكًا: «إيه رأيك مش بعرف أوصف؟»

ودخل أخي جاذبًا «خالد» عند موقد في ركن من الدار أشعلت أمي فيه نارًا للتدفئة، وكانت تقوم بعمل الشاي والقهوة فوق الخشب المشتعل، وبقيت أردد في سري هامسة... خالد... خالد. سمعت صوت أمي تنادي لي أن أعد الطعام لخالد، وبقي خالد وأقسم أبي ألا يخرج في البرد ويبقى حتى الغد يذهب للجامعة مع

يحيى. وكان القلب.. عميقًا أدرك ما لا يدركه العقل، لمس مقادير ستجمع بيننا، ووفاقًا، وسكينة ستحل في جفو الأيام الحالكات تحررنا من الوجل والاضطراب.

كان القلب، قرأ القلب تراتيل منغمة على جدار روحه مكتوبة بلون الدم، مثقلة بخيبة عقل سيفض بكارة الحلم في بدايات الأمل.. فالتمست أهدهده وأمنيه بالسكينة المشتهاة. ورأيت في أم عينه حكايات الصبايا عند مفترق الطريق المزهر بالياسمين، رأيته الفارس الملثم بوشاح الشوق، يرتدي زي العشق الفضفاض، أنا لا أدري غير أنه اقتلعني من جذوري وألقاني على قارعة حبه مثقلة بالحنين، وبقيت العمر في محراب روحه أتعبد وأكفر، ألتزم وأستبيح، أصلي في حناياه صلاة ود وتوق، وأجلس بين يدي ذاكرتي أعترف لأتطهر من آثامي وزلاتي.. فأشعله في خاطري شمعة أبدية لا تنطفئ.

أتدثر به كعقيدة تُمحى فيها ذنوبي، وأنزع من سياقها توبتي، حتى وصلت إلى أقاصي الفضيلة في رحابة صدره، وتعلمت الصبر من صد روحه. فبقي ذنبي الذي لا يغتفر وتوقي الذي لا يستكين ولا يجبر.. فكيف كان القلب أعقم وهو من علم بأبجديات العشق الأولى! وبقيت الأسئلة بعد الألف عند بدايات الكون تُسجل، وفي مفترق الطرق يبحث لها عن إجابات مرضية تشق صدر الحقيقة فيبقى التوارد سرًا كائنًا...

وجاءتني نعمة.. مرتبكة تقول أنها تخشى على أولادها من زهران وتخشى على إيمان؛ فهي برعم صغير في قلب نار تتوهج تخشى عليه الحرق والذبول. كانت السيدة نعمة التي تخطت الخامسة والخمسين، رمزًا مجسدًا للقهر الذكوري على سطح الكوكب الصغير الذي يتولى الرجل فيه حق تقرير مصير الأنثى، فهي

بِيعت من رجل يدعى أبًا بدعم من آخر يدعى أخًا إلى آخر يسمى زوجًا، فانتهك الآخر حرمة كونها بشرًا وتخطى حد قدرتها، وكان سببًا مباشرًا لتبقى خادمة لدى رجل آخر، وهو السيد الآمر الناهي والمتربص بكل ما تملك، عابثًا بقلبها المكسور المسئول عن رجلين تخشى عليهما الذلة والانكسار، فاستخفت بها العبودية، واستحلت هي بقاءها خلف سلطة آخر ممن وزعوا أقدارها دون تقدير لكونها بشرًا قبل أن تصنف أنثى..

والآن هي تابع لمن يخبئ الولدين خلف ظله، كل حياتها كانت صراعًا بسبب رجل أو لأجل رجل، وفي النهاية ينكرون كون «المجتمع ذكوريًا». ويلعنون المرأة في كل مجلس. جلست نعمة تود لو تخبرني بشيء، قلت لها: ماذا بك؟

قالت: أخشى من القادم، وأشعر أن هذا المكان على وشك حرب.

قلت: لماذا حرب؟

قالت: سأخبرك.. إيمان ابنتي قالت أنها لاحظت اتصالات سرية بين زهران وجهات مجهولة، وكان على غير العادة ينسحب من جوارها حتى لو كانت نائمة ليتحدث في سرية تامة، وهذا الأمر جديد عليها أيضًا، هو جمع كل أوراقه الخاصة من الخزنة السرية في مخدعها وقام بإخفائها في مكان آخر. أيضًا أمر «طارق» ابني أن يهتم بحراسته حتى وهو نائم، حتى إنه أثار حفيظتنا... أنا في رعب أستاذة، أشعر أننا نقترب من شيء، أخشى ردة فعل القائد.

صورتها لا تفارق عيني وهي تضع يدها على الجهة اليسرى من صدرها تقول: «قلبي موجوع يا ست». وقد أهلكها الظلم، ومزق أحلامها وتركنا في

كون غريب خالٍ من الرحماء، هي مثال للانكسار يمشي بعكاز مكسور، لا القدم تعين، ولا العكاز سند، ضاعت طفولتها في أحضان رجل كبير بالسن، وصل شبابها طريق الينوع فابيض الشعر الأسود من فرط الخيبات، قتل الحرمان معالم ربيعها فذبلت قبل خريف العمر بسنوات، والآن هي في ذات الطريق السادي الذي رسمه الرجل بكل جبروت للمرأة دون تقدير ولا اعتبار، قُطعت كغصن معطوب وبِيعت لتُستهلك في إشعال نار السخرة لرجل يستعبد كل الغصون التي لم يطب بها ثمار بعد، فما الفرق إذن بينها وبين تلك التي رفعها أهلها إلى مصاف الراهبات ودرجة القديسات، وهي عاهرة بالوراثة مدنسة بالفطرة!

افتقدت الدعم في البدايات، دق الجهل على جبينها وشم الضياع، وركلها من كانت بضعًا منهم؛ فداس الأغراب وتناسوا كونها روحًا، والآن تحمل بقايا الجريمة ثلاثة أبناء كانوا حملًا ثقيلًا على أكتافها العليلة. خرجت نعمة بعد أن توسلت.. أن أساعد أبناءها وأحررهم من قيد زهران، لكنها تركتني في كرب ومحنة. كيف لي أن أحمي ثلاثة أبناء خلقوا من رحم معاناة امرأة ضريرة الروح، كيف؟ وأنا المسكينة التي فشلت في حماية صغيرها!

بعد أذان العصر خرجت بالزي الأسود لألقاه عند شجرة السنديان العتيقة، وجدته متوترًا، يداه تفتقران إلى الصلابة، متجهمةً قلت: ماذا قررت؟

قال: القرار صعب. أنتِ لا تعرفين حقيقة الأمر جيدًا، هذا المكان الرحب، به كل المتناقضات؛ الخير والشر، الجمال والقبح، القسوة واللين، وحين تجتمع الأضداد، فالفقيد هو المبدأ، والصريع هو الحق، أتدرين لماذا؟ لأن الأرض المرئية أمامك لم تعد أرض حق، تدنست عقب الحقب الكثيرة والكثيفة بالنفاق، فطرحت

غصونًا مشوهة ثمارها تفتقر الفائدة، ألف يد تنهش في الحق، ألف عقل يعيش ليوغل في عمق إرثنا فيفند الإثم ويتوج الباطل تاجًا فوق الرأس، أنا لا أضمن النتائج يا ليلى وهذا يميتني... أعرف أعدائي جيدًا، لكني أخشى على المساكين الذين قذفهم الهم على أعتاب هذا المكان.

قلت: وماذا سنفعل؟

قال: الخطر مترامٍ باتساع المكان، هنا بشر متخفون خلف «قال الله وقال الرسول»، لهم أهداف بعيدة المدى، تحركهم قوى لا أعلمها. الفصل صعب يا ليلى، ستتشرب الرمال دماء ضحايا لا ذنب لهم إلا أنهم شرفاء فقط، شرفاء.

التفتُّ أنظر للرحب الكبير، وأُعاود النظر للسماء أستجدي القوة من الخالق، مالك الملوك، المعين على هذا الألم، لا وجوم ولا حسرة أكثر من دم نظيف طاهر يختلط بدم مدنس قذر، وإنه لجزاء غير عادل أن تختلط الدماء على هذا الخير المقدس من الكون، أرض الرسالات، ومهبط الأنبياء... نظرت إلى خالد وأنا أشفق عليه كثيرًا، هو يحارب في جبهات شتى، وجهه الحزين يشي بغصة تعكر نهار الكون وهو يعزف ألحان العزوف وينشد أغنيات الرحيل... قلت له: يجب أن نستعين بأحد.

قال: أنا لست بمفردي.

قلت: لا أقصد، فقط معاونين من الطرف الآخر، أفهمت قصدي؟

قلت له: اترك لي هذا الأمر.

قال: ليس معي وقت.

قلت: انتظر دقائق.

هاتفت نعمة وقلت لها أني أريد قهوة مثل قهوة الأمس للقائد.. قالت: أين؟

قلت: في حجرتي.

قالت: حالًا.

قال: بماذا تفكرين؟

قلت: حارس زهران.

صمت لحظات وقال: أحسنت ليلى.

قلت: هيا إلى حجرتي.

هناك كانت نعمة بالداخل، أغلقتُ الباب جيدًا فتفاجأتْ بالقائد وجهًا لوجه.. ارتعدتْ، قالت: ماذا؟

- نعمة، لا تخافي، جئت لك بالقائد حتى يعدك بنفسه بالحرص على أبنائك.

قالت وهي تنظر أسفل الأرض: شكرًا.

قلت لها: نحتاج منك شيئًا...

نظرت بتمعن، قال خالد: نريد أن نعرف تحركات زهران.

قالت: لا أضن عليكما بشيء، لقد قلت كل شيء للسيدة ليلى.

قال: أريد تحركات زهران من الآن فصاعدًا، وأنا أضمن لك بروحي سلامة أبنائك.

قالـت: «وأنـا معـاك وتحـت أمـرك بـس أحـب أكـون أنـا الوسـيط بينكـم، ابنـي الحـارس الخـاص لزهـران.. وزهـران زوج أختـه وجـودك معـاه يثـير الشـكوك، لكـن وجـودي أنـا طبيعـي».

قـال خالـد: اشرحـي لـه الوضـع جيـدًا وطمئنيـه، سـأنتظر تفاصيـل مكتوبـة منـه، أذكـر أني تحدثـت إلى طـارق مـن قبـل وأعجبـت بعقلـه جـدًّا وأثنيـت عليـه.

قالت: لهذه الأسباب اختاره زهران، طارق رجل.

- أخبريـه أني قطعـت عهـدًا عـلى نفـسي أن أحافـظ عليـه وأخيـه وأختـه، سـأنتظرك، تعجـلي قـدر المسـتطاع نحـن لا نعلـم مـا يحـاك لنـا...

غـادرت نعمـة، ولا أنكـر أني شـعرت بالقلـق! خشـيت عـلى خالـد وعـلى نفـسي، كـدت أقـول لـه تعـال نمـشي مـن هنـا، نعيـش مـا لم نعِشـه، أمـوت عـلى كتفـك وتمـوت بـين أحضـاني. لكنـي تذكـرت ياسـين، فعـدت لغيظـي، بقيـت عـلى قارعـة الثـأر أنتظـر، قـد يرتـاح قلبـي حينـما أنجـح في القضـاء عـلى هـؤلاء، وقـد أمـوت وفي المـوت راحـة أكـبر....

الفصل الرابع عشر

ويعبثـون في بقايـاي الراقـدة في بهـو قبـو سـحيق، يفرضـون عـلى قلبـي أصـداء بؤسـهم، هـؤلاء الجبنـاء يتألمـون لـو تركـوا في الكـون نفـرًا يرقـد بسـلام، باحثـين عـن القيـد حتـى في رفـات الأمـوات. المخيمـون في أزقـة الـبرزخ المزعـوم، يعتـصرون دمـاء المـوت، ويصنعـون مـن الأرواح نـذورًا للشـيطان الأكـبر الـذي يحركهـم بأفيونـة السـلطة، والمجـد المدعـوم بمـوت. يتكالبـون في زوارق الغائبـين عـن الحيـاة، يدهـم الباطشـة اسـتولت عـلى الخليقـة وأكملـت في ربيـع المـوت الفالـت مـن صناديـق قهرهـم، تجدهم عـلى حافـة البحـار وبـين قسـمات المـوج وتهافـت الريـح في يـوم عاصـف.

قـد قـرروا انقسـام روحـي والعبـث حتـى بقـلاع المـوت التـي أختفـي خلفهـا ذعـرًا، يقلبـون فيّ الأوجـاع، يضغطـون بقـوة عـلى الوتـر الباقـي الموصـول بالرفـات، شيء مـا يـدق بقلبـي، حـيرة تنتـاب تصرفـاتي، كل الأشـياء تتسـاقط مـن يـدي، الأقـدار تـزف لي رحيـلي، وأمـل في اللـه يلهينـي عـن أوجاعـي، نافخًـا في أبـواق عقـلي يقـول لي، أن أسـتكين جـوار رفـات ابنـي. مـا لي ومـا للسياسـات، والمفارقـات الحياتيـة! مـا لي وهطـول اللعنـات عـلى وكـر يعتـق فيـه الضبـاب، مـا لي وقـد أكـون الخـاسر الأكـبر، مـا لي وللكون رب يقتـص مـن الطاغـين، وهـل أنـا أداة اللـه في الأرض، إن مـا أفعلـه جـور وظلـم وطغيـان، وهـل ترتـاح نفـسي إن بقيـت دون ثـأري؟ دون حـق آخريـن؟ هـل أتـرك مزيـدًا مـن الأرواح تحصـد، وأنـا أملـك قـدرة عـلى إحـداث فـوضى، أو إثبـات حـق؟! لا، لـن أتراجـع، سـأبقى ولـو كان الثمـن مـوتي، سـأبقى علّنـي أجـد في المـوت دربًـا يروقنـي!

وعـادت نعمـة تتلفـت يمينًـا ويسـارًا، وضعـت الطعـام أمامـي ثـم نظـرت لي دون حديـث، فتحـت لي بعـض الأرغفـة، نظـرت فوجـدت أوراقًـا، علمـت أنهـا كتابـات طـارق للقائـد. غادرتنـي متوتـرة قلقـة، هاتفـت «خالـد»، قلـت لـه بـدلال مصطنـع: هيـا تعـال نتنـاول الإفطـار معًـا.

وكنـت أخـشى أن يكـون مراقبًـا. لحظـات وأنـا أنظـر لأرغفـة المـوت، وأتسـاءل مـاذا بـك، وأي السـموم مخبـأة فيـك، جـاء فاسـتقبلت عينيـه بخـوف فضمنـي محـاولًا أن يبـث فيّ بعـض الطمأنينـة، أغلقـت البـاب جيـدًا، قـرب مـن الطاولـة، نظـر لي، قمـت بالإشـارة إلى الخبـز، قلـت: صنـع خصيصًـا لـك.

كانـوا أربعـة أرغفـة جانبيـة، قـام بإخـراج أوراق منهـم؛ ورقتـين، خريطـة، وصـلًا باسـتلام أمـوال معـه شـيك بنـكي باسـم مجهـول. جلـس خالـد وسريعًـا بقيـت إلى جـواره أقـرأ معـه. كان عينـاه تتقافـزان سريعًـا عـلى الأحـرف، وأنـا لا أضاهيـه في سرعـة القـراءة، ألقـى الورقـة الأولى في توتـر بالـغ ثـم تنـاول الثانيـة. ثـم سريعًـا نظـر في الخريطـة، ثـم تفحـص الأوراق البنكيـة والوصـولات. ثـم جلـس صامتًـا... قلـت لـه: لا تتركنـي هكـذا.

قال: أقدار، يستحقون الموت في ميدان عام.

قـال: الآن تكتمـل الـرؤى، سـألتِني مـرارًا لمـاذا أنـت هنـا، أنـا هنـا مـن أجـل أرضي، مـن أجـل وطنـي الـذي طـردني شريـدًا وحرمنـي منـك.. أنـا هنـا لأجلـه، لأجـل التفريـق بـين المجاهديـن وبـين المدعويـن لأجـل الحـرب، عميـل أنـا نعـم.. لكنـي عميـل لـتراب مـصر ولحقـن دم أولادهـا، هنـا أنـا، لأجـل الخطـة الكونيـة عـلى بلـدي التـي وإن جـارت عـليّ عزيـزة، نعـم هنـا لأكتشـف مـا اكتشـفت، هنـا لأغامـر بنفـسي مثلـما فعـل ياسـين.. غامـر بروحـه لأجـل حفنـة تـراب تسـمى الوطـن، حفنـة تـراب شـكلت أرواحنـا، حفنـة

هي قبر قد يلم رفاتي بدلًا من أن أُدنس بعد موتى تحت أقدام متآمرين. أعلمتِ الآن، فورة حماس ياسين وعشقه لأرضه كان السبب المباشر ليعود روحه للجنة ينتظرنا هناك.

قلت: ماذا؟! وكيف تتصرف؟

قال: أحتاج الآن أحدًا يتقن الرسم يعيد رسم الخريطة عدة نسخ، وأنت ستقومين بكتابة الأوراق أيضًا، كل الأمور لا بد أن تتم سريعًا، دون أن يشعر أحد.

ترك لي الأوراق التي بدأت في إعادة كتابتها مرة أخرى، وذهب لأحد الشباب الذين يثق بهم ليعيد رسم الخرائط، كنت أكتب بقلم أسود، وأخط قهرًا وحكايا وجع تخط تاريخ وطن مكلوم بأبنائه الذين استباحوا حرمته، وباعوا مقدساته بدون ثمن يذكر، كانت الأوراق تتحدث عن مهران وزبانيته، ممن تتلمذوا على يد صهاينة أوغاد، تحكي منظومة سقوط الوطن في دنس الخيانة وتشرح كيف هؤلاء يقصون جذور الحياة في ترتيب منطقي محرف حيث لا يشعر أحد أن الوطن يموت، فقط سيفاجأ الجميع بجنازة تليق بحتفه المشئوم، وسقوط كما سقوط الأندلس وسقوط بغداد لكن الفرق.. هو أن الوطن سيسقط على أيدي أبنائه، هؤلاء الدمى التي تحركها القوى الصهيونية العالمية.

الأحداث تسير سريعًا مع وعد للأوغاد بوضعهم كملوك في الوطن المعاد بناؤه، وقد أمن الأغبياء، وظنوا أنهم يملكون سلطات أقوى من سلطة العشق... عشق التراب والنيل والحضارة والتاريخ، إنها سلطة العشق تلك التي يجهلها الرعناء، سلطة عشق أبدية، تملك خفقات القلوب، حتى قلوب الأموات.. قد تفارقنا الروح ونغدو ترابًا، أو بعض حصوات، لكنّا نبقى على خط الوصال ماثلين، بيننا وبين

الـتراب، علاقـة خاصـة وشـغف غـير مـبرر، وحنـين غـير معلـن، سـلطة العشـق، التـي ربطتنـا قديمًـا ببـشر عـلى هيئـة أرواحنـا فانجرفنـا نبحـث بـين ضلوعهـم عـن وطـن، وبـين جـدر الوطـن نبحـث عـن بقاياهـم.

كانـوا لنـا السـكن وكان لنـا الوطـن ملجـأ ومـأوى، نجمـع في صـدره أوجاعنـا ونـزرع فـوق منابـره أحلامنـا، سـلطة العشـق التـي وحدتنـا مـع مـن اختلفنـا معهـم في العقيـدة، وتنافرنـا معهـم في الفكـر، تلـك السـلطة التـي وحدتنـا في قالـب عـلى شـاكلة الوطـن وشـكلت الوطـن قلبًـا بـه سـهمان في صدورنـا. القلـب منبـع للنيـل، روافـده أوردة تبعـث فينـا البقـاء، ومنبعـه هـو العشـق الغـافي فينـا، والتاريـخ سـهم آخـر يبـث في بقايانـا المهزومـة عـزة لنصحـو، تتبـدل الأنـات طالمـا بقـي الوطـن هـو الحضـن الدافـئ.. المتآمـرون يبيعـون السـكن، بحفنـة دولارات ووعـد بملـك زائـف.. المتآمـرون لهـم امتـداد في كل جنبـات الوطـن، هكـذا قالـت الأوراق، كل المؤسسـات العامـة فيهـا جاسـوس يهيـئ الأمـور لمحـو الوطـن مـن الخريطـة.

الأنـكى هـو الخـبر الغريـب أن الأنفـاق التـي قالـوا عنهـا أنهـا صنعـت مـن أجـل إيصـال الدعـم إلى حـماس أثنـاء الحصـار عـلى أهلنـا في غـزة هـي وهـم كبـير.. فأكـثر الأنفـاق وطـرق الاتصـال هـي مـا تصـل الخونـة بالخونـة أمثالهـم عـبر المسـاحات التـي تفصلنـا عـن إسرائيـل، كثـير مـن عمليـات بيـع الأعضـاء والتهريـب وحتـى عمليـات تجـارة الرقيـق تتـم في الخفـاء، هنـاك متمرسـون في الخسـة، يمارسـون الرذائـل والخيانـة في أبشـع صورهـا، تسـتخدم تلـك المنطقـة في جلـب المـال والسـلاح، لتدمـير قواعـد الوطـن وأيضًـا لجلـب الخونـة والمتآمريـن.. وكثـير مـن الدواعـش الذيـن اخترقـوا حدودنـا مـروا مـن هنـاك.

الوريد الذي يربط مصر بهذا الجزء المحتل هو موضع الخيانة، تلك المنطقة بطول الحدود، خالية من الرقابة المصرية إلا القليل.. مساحة كبيرة تركت ثغرة حتى تهد هذا الصرح الكبير. أيضًا في الأوراق ما يثبت صلة هؤلاء المدعوين بإسرائيل، ضمت الأوراق فاتورة لعلاج أحد قادتهم في أرقى مشفى إسرائيلي بالجولان، وفي الأوراق ما يثبت صحة هذا التورط، الدواعش يخدمون الصهيونية العالمية؛ فكثير من الشيوخ الذين ذاع صيتهم.. هم صهاينة لا يعرفون سلطة العشق، ولا يسكرون من رائحة التراب، بل هم أداة لتحقيق الحلم اليهودي القديم، من النيل إلى الفرات ذاك الحلم الذي ينفذ ونحن في غياهب السذاجة نمجد السلام العالمي حتى لا يقال مارقين...

كل الخطابات تحكي عن المأساة.. أموال بنكية وأموال تصل باليد عبر الأنفاق... صفقات أسلحة، خطط تدور حول عمليات عسكرية تستهدف الصف الثاني والثالث من الجيش المصري، أيضًا عمليات تستهدف الكمائن.. وحتى البشر العاديين. جلست أتضور وجعًا، من بشاعة ما رأيت. الآن رأيت الحرب، رأيت كل أطرافها.. شاهدت السلاح، رأيت الجلاد.. وعاصرت الضحايا، كانت الدنيا تلف بي، أو أطوف حولها لست أدري. دم ينزف من عيني، أتذكر خبر وفاة ابني، ذاك النبتة الغضة التي وهبتني إياها صحراء العمر المقفرة، فهونت مصابي من الدنيا، وسُلبت مني عنوة وأنا أمرح معها، قبل أن آخذ جوارها صورًا للذكرى، أو أكتب معها قصتي، وكأنها كانت سرابًا، تلك الضحكة التي قذفها القمر في ليلة حالكة العتمة، حين كنت أشاغله، وهو مكدر في نقطة بعيدة تتوسط السماء..

وماذا فعلت بي خيانة الأوطان، إلا أن كبدتني خسارة أفدح! ما زلت تحت

قيد السكرة أتذكر، وأنا أتلقى الخبر كنت على قيد اللهفة.. قال أنه عائد قريبًا، قال سيكون مجيئي مفاجئًا وباغتًا، قال أعدي لي أطباقًا من أكلاتك الشهية، المحشي والمكرونة، ولا تنسي الديك الرومي، أريد ديكًا روميًا متبلًا بتتبيلتك الخاصة ومشويًا بطريقتك.. إياك يا ليلى أن تشتري الطعام من أي مكان وتقولي أنا من صنعته... وإياك أن تنسي يا ليلى عصير الفراولة الطازج. «ليلى وحشتيني، اشتقت للسهر معك، للجلوس في شرفتك جوار الياسمينة.. آه كنت سأنسى إيه أخبار الياسمينة، طرحت قبل الربيع أم تنتظر عودتي؟» وقال كثيرًا... قال أعلم أنك ستبكين حين ترينني، وستبكين لو لم آتي، ستبكين غيابي.. ماذا أفعل معك يا ليلى، ما عدت أدري كيف أرضيك!

وانتهت.. وغادر! قال ما قال وغادر! غادر ياسين صديقي وأخي وابني، بت لا أصدق، أقول أخطأوا، وهل في الموت خطأ؟ وانتظرت رفاته.. حتى رفاته ضن عليّ الزمن بها، كان قلبي يحترق.. بقيت أقول أريد قبرًا لابني، فقط قبر ورفات.. كل آمالي من الدنيا قبر ورفات، لكن من مستحدثات الخيانة أن تبقى الرفات حلمًا بعيدًا! إلى أن نظر الله لي نظرة عطف وأكرمني برفات ابني، نعم، الحصول على الرفات لتهدأ في قبرها نعمة أكبر لا يعرفها إلا من احتسى ألم الشك، ونار الحيرة والحنين إلى العظم وبقايا الدم العالقة... الحنين إلى دليل، برهان.. حقيقة تؤكد أنه مات.. وأنه جواري... وأنه كان حقيقة في الأساس، ليس وهمًا، وجاءت الرفات، في صندوق خشبي، مكفنة في الألوان الثلاثة، الأحمر والأبيض والأسود... علم مصر، وجاؤوا حماة الوطن يقدمون لي واجب العزاء، أي واجب وأي عزاء لست أدري، كيف منّ عليّ الوطن بسعادتي... بحصيدة العمر... بالبقية الباقية من الحياة!

تلمسته وشممت رائحته وابتل كفنه بدمعي فشعرته يرتعد؛ فضممته وأنيني يسبقني، ونار الجوى في صدري تدفئه وهو راحل يقطع مسافة كونية يخترق فيها مسافات بعيدة حتى يصل إلى الجنة.. منحته قبلتي حتى يهدأ ويطمئن وسلمته لله وسلمت أمري معه لله، ومنحني الله صبرًا لم أكن أتوقعه، واستودعت قطعة من روحي لله.. ودفنته وأنا أرتل على روحه القرآن وأذكره حين كان يضحك، وعدت وأنا أكثر سكينة.. هو جوار بيتي... يعيش حياة أكثر سعة وأنا أعيش مقبورة ببقية عمر...

تلقيت العزاء وأنا أشد ثباتًا، وبقيت جواره، لكن الوجع لم يستكِن، وشبت نار الثأر في خاطري فمشيت خلف حق ولن أبرح حتى أنتقم.. لكل أم عاشت حالتي... لكل طفل حرم من حضن أبيه. لكل بقعة فقدت ساكنيها.. وعاد خالد.. قلت له: ماذا فعلت؟

رد قائلًا: ستنتهي كل الأمور قريبًا جدًّا.

قلت: أحتاج أن أطمئن...

قال: لا داعي، أخشى أن تقلقي!

قلت: تحدث أرجوك..

جلس قرب موقد القهوة وقام بتلقيمها وقال: لا أدري، ربما فلت الأمر من يدي، بتُّ أخشى كل شيء.

- تحدث. (قلت منزعجة).

- إلى جانب ما فعلته لمساعدة الحركات الوطنية في فلسطين كنت أقف ضد

هـؤلاء الدواعـش.. وقـد كان يعلـم عنـي ياسـين كل شيء، الوحيـد الـذي أمنته أنـا ويحيى لهـذا أحـب البقـاء معـي، فقـط تمكـن مـن إدراك حقائـق لم يطلـع عليهـا في الكتـب ولا الجرائـد العالميـة، ولم يصـل لهـا حتـى كبـار الاسـتراتيجيين ولا السياسـيين... فدخـل البوتقـة معنـا، وبقـي يحـارب الإرهـاب، وكان وسـيلة اتصـال بيننـا وبـين المخابـرات المصريـة. أوقفنـا مـن خلالـه الكثـير مـن العمليـات التـي كانـت تقصـد أرض مـصر، وكنـا نحـوم حـول معرفـة الجنـاة الحقيقيـين، ووصـل إلى أيدينـا الكثـير مـن الوثائـق، التـي تفـكك قيـود الأزمـة، كنـا قريبـين جـدًّا مـن معرفـة المتورطـين في وصـول الإرهـاب أرض مـصر. وجـاء ياسـين برسـالة للجيـش المـصري وجـاء لإخبارهـم عـن عمليـة محتملـة، لكنـه كان مراقبًـا مـن هـؤلاء الأوغـاد، فقلبـوا الأمـور ضـده وبلغـوا عـن مكانـه وأنـه جـاء لتنفيـذ عمليـة داخـل الأراضي المصريـة؛ فقامـت القـوات المصريـة بمـا قامـت، عمليـة كبـيرة في المنطقـة المبلـغ عنهـا، أعـدوا الخطـة بحرفيـة... وقعنـا ضحيتهـا نحـن والمخابـرات المصريـة، تعرضـت أنـا ويحيـى في سـوريا بعـد استشـهاد ياسـين، لمحاولـة اغتيـال ممنهجـة، بعـد تعرضنـا للخديعـة مـن أقـرب حلفائنـا لكـن اللـه نجانـا... خـلاص انتهـى الأمـر لا تقلقـي، ربمـا سـاعات وينتهـي كل شيء حتـى قضيـة يحيـى.. التـي أعـدت خصيصـا للفتـك بـه، بعدمـا علمـوا. أنـا عـلى وشـك الوصـول إليهـم.. أيـام وإن أراد اللـه لنـا بقـاء سـنكون في اسـتقبال يحيـى، لا تقلقـي..

كنـت أنصـت دون أي حديـث... مـرت بعينـي سريعًـا كل الأحـداث... مـا لـه جـزأ لي القصـة! نظـرت لـه بعمـق فقـال لي: مـا كنـت أجـرؤ أن أحـكي لـك... كنـت أخـشى عليـك مـن الأذى..

جاءت إجابته كماء بارد صب على وجعي.. قلت: أوَ قد وصلت؟

قال: ويا ليتني ما وصلت!

قلت: لماذا؟

قال: الأوراق والدلائل وكل شيء بيد من يملكون الأمر، كنا نثور يا ليلى، لكنّا بين أروقة السياسة لا نملك ثورة.

قلت: لم أعد أفهم.. انتصرنا يا خالد أم انهزمنا، العدو قابع يفتت في أكبادنا... سنقطع يده العابثة في أحشائنا يا خالد.. أم نربت عليها ونقبلها... ماذا نحن فاعلون؟ فعلت أقصاي... منذ ميلادي إلى الآن... أنا لم أعد أريد إلا الستر.. ستر هؤلاء من احتموا فيّ... من اختبأوا خلف الدنيا...

- ليلى... جمعي أشياءك سريعًا.

- لماذا؟

- ستغادرين؟

- إلى أين؟

- سأرسل معك شخصًا يصل بك إلى بيت يحيى.

- وأنت؟

- لو كتب الله لي البقاء، ستجدينني خلفك، لا تقلقي.

- لا، أبدًا، لن أرحل هذه المرة دونك، سأبقى.

- ليلى؟ اسمعيني جيدًا، لم نعد نملك الوقت، غادري.

- لا... أنا معك.. لن أغادر.. وماذا فعل بي الرحيل الأول؟ تهتُ في دربك... خمس وعشرون سنة ألفٌ في دائرتك وأدور وأصل لنقطة البداية.. لا حياة لي دونك... أنت بعضي، لنمت معًا... أو نبقى معًا.. قد يمن علينا الباقي من العمر بسعة تذكر.. وربما أضاف لنا معنى جديدًا للحياة نذكره في قبورنا حينما نُسأل من أين أنتم قادمون؟

قال متألمًا: لن أحتمل العيش لو أصابك مكروه... سأفعل ما بوسعي لأصون لك ما تبقى.. اجمعي أشياءك.. وسأعطى أوامري للجميع بالاستعداد.. علينا المغادرة قبل وصول القوات...

أومأت برأسي.. مد لي يده، ضم يدي وقبلها وأودعني نظرة رحمة طيبت خاطري ورحل... في خلال ساعة كنت تحدثت مع الست نعمة.. وأخبرتها أن تأتي هي وإيمان ابنتها إلى غرفتي.. وتستعد للرحيل... رغم أن هذا يتنافى مع السرية التامة التي أخبرني عنها خالد لكني وعدتها ولن أخلف وعدي، أقل من نصف ساعة وكنا جاهزين... جميعًا نرتدي النقاب وقد خرجنا تباعًا كما قال لي خالد... ركبنا عربة بيضاء كانت تنتظرني خلف الباب الخلفي لحجرتي... قطعت شوطًا كبيرًا حتى خرجت من هذا المكان الكبير، تنفست الصعداء بعدها... وكنت أذكر الشهادتين إلى أن خرجنا من هذا المكان...

لكني أمرت السائق بالوقوف.. رفض وقال أنه مأمور بعدم الوقوف.. صرخت فيه.. لم يسمع ولم يعتبر صراخي.. اتصلت بخالد مرات لم يرد.. كاد قلبي أن يتوقف، بقيت أرتعد... وأقوم بضرب السائق على ظهره قف.. قف... قف.. لكنه لم يقف... بكيت كطفلة... والست نعمة تحتضنني، لا تخافي، الله معنا... لحظات

وسمعت صوت عربات خلفنا... بقيت أتلفت علّني ألقى خالد... لحظات أخرى وسمعت طلقات نارية تملأ المكان.. كنت أسابق الموت.. لا أدري ماذا يحدث هناك.. طلقات وضربات وأصوات تخيف. يخيل لي كأن انفجارات تحدث..

وتوقفنا عند مسجد كبير في قرية صغيرة... ونحن قرب المغرب... الشمس تختفي شيئًا فشيئًا... الظلام يعم ويملأ قلبي، دخلت المسجد بعدما أقنعني الشاب الذي يسوق العربة؛ فدخلت المسجد من سلم جانبي لكني لم أذهب إلى مكان الصلاة. لقد تم إنزالنا إلى غرفة أسفل المسجد قام الشاب بفتح قفلها بمفتاح أخرجه من جيبه.. ثم نزلنا نحن الثلاثة.. وفوجئت به يغلق الباب علينا ويعود، لم يسمع صراخي.. أو أنه سمع ولم ينتبه، ما عدت أدري شيئًا.. كانت حجرة متوسطة بها سجاد لونه أخضر، ليس بها أي منافذ، فقط باب صغير يصل بحمام أصغر...

كدت أسقط على الأرض... وجدت نعمة وخدها تبلل بالوجع والدموع. وإيمان تتلوى خوفًا وقهرًا.. صلبت نفسي وشعرت بأهمية دوري وقوتي في هذا الوقت العصيب... قربت من الست نعمة، احتضنتها قائلة: لا تخشي شيئًا.. الله معنا.. لن يضيعنا.

نظرت إلى إيمان وأنا أرسم على وجهي ابتسامة كاذبة مدعاة. قلت: اهدئي يا جميلة، لا تقلقي...

جلست معهما أحكي أنهما ستبقيان معي.. بعد عودة ابنيها وخالد، بقيت أصف لهما بيتي الجديد في القرية، هو بيت كبير جوار بيت أبي المغلق منذ زمن.. وقد كنت في حاجة لأحد يقوم بفتح البيت والاهتمام بشئون الأرض، تجاوبت

معي إيمان.. لكن.. الست نعمة غاصت في نوم مضطرب. وقمت توضأت.. وبقيت أصلي... ونامت إيمان وبقيت وحدي. فتحت المصحف الكبير أمامي. وبقيت أرتل وأبكي... وأدعو الله... وعند الفجر جاءت البشرى، جاء أذان الفجر بصوت خالد الجميل... الصوت الشجي... الذي أعرفه جيدًا حين كان يؤمنا في صلاة التراويح في المسجد الصغير في قريتنا بعد أن يتناول معنا الإفطار.. شعرته يُطمئنني بصوته، وبإطلاقه الأذان، وكأنها علامة النصر.

بكيت أكثر من الفرحة... وأيقظتهما.. وذهبتا للوضوء.. وانتظرتهما وصلينا الفجر معًا. بعد صلاة الفجر بنصف ساعة سمعت الباب يفتح من الخارج ثم يطرق عليه.. ذهبت قرب الباب أقول نعم.. وجدت «خالد» يستأذن. قلت له: انظر لي حتى أطمئن... ورغم أن وجهه الذابل يشي بأنه مر بمأساة فإنه ضحك لي، وضحكت له. قال: اجهزن... أنتظركن في العربة.

قابلته الست نعمة بالبكاء، كادت تقبل قدميه متسائلة عن ابنيها.. هدّأ من روعها وأقسم أنهما بخير، هما في مكان أمين... لكنها أقسمت ألا تمشي... قبل أن تسمع صوتيهما، وبالفعل اتصل بهما وكلمتْ «طارق» وطمأنها على أخيه سعد. هدأت ست نعمة... ركبت معنا هي وإيمان.. وخالد، واقتاد السائق السيارة لا أعرف إلى أين. كنت منهكة وكان خالد صامتًا... تبدو عليه علامات القلق، لكنه بين الحين والآخر ينظر لي بابتسامة مفتعلة.. لا أدري لم أسأله عن الأمر. كنت ارتكنت إلى الراحة الماثلة في صدري ونفسي بعد كثير من التوقعات السيئة التي افترستني طيلة ليلة... كان رجوع خالد سالمًا بمثابة أمل لي استيقظ مع بدايات الصباح الأولى. غفلت من أرقي طوال الليل.. لا أدري كم مر من الوقت.. فقط

توقفت السيارة. وجدت «خالد» يوقظني.. قلت: ما هذا المكان؟

لم يرد.. نزل من السيارة والجميع خلفه، بدأت معالم المكان تتضح لعيني، بيت جميل، دور واحد في وسط أراضٍ رملية مزروعة بالبنجر يلتف حولها الزيتون والليمون، وفي بعض المناطق الجانبية قصب السكر.. مكان جميل يستقطب قلبك سريعًا، حول البيت مساحة واسعة وعلى بعد ما يقرب من ٠٠٤ متر مكان كبير فيه مواشٍ ودواجن... المساحات الشاسعة الخضراء تجعل الهواء بكرًا لطيفًا وكأنه يتدلل ويمرح حولنا... البيت بعيد عن المنطقة السكنية كما يبدو.. فآخر بيت على بعد أكثر من عشرة أفدنة يبدو صغيرًا من بعيد.. حتى إنني لا ألحظة جيدًا رغم رؤيتي حبل غسيل زاهيًا تبدو عليه ألوان مختلفة من الملابس يتأرجح في الهواء. نظرت إليه أود أن أسأله.. لكنه صامت يبدو أنه مرهق رغم ابتسامة خفيفة يصطنعها على شفاهه الحزينة..

دخلنا... أسرع السائق بفتح الأبواب لنا.. ليس للبيت بوابة خارجية، فقط مساحة مزروعة أمامه لا تتعدى أمتارًا قليلة.. أزهار جميلة وأشجار تين وجوافة وقليل من الرمان والمانجو.. النخيل به ثمار سوداء، كل الأشجار عارية من ثمار، فقط من بعيد أشجار البرتقال أثمرت. فتح السائق الباب بعد أن أخرج المفاتيح من جيبه.. قال لخالد: تفضل. حمل حقائب خالد.. والست نعمة حملت حقائبي.. البيت واسع، طراز فلاحي قديم لكنه منسق، في ممر واسع قال السائق: تفضلوا، هنا حجرتان للنوم إحداهما للست نعمة وابنتها.. وأخرى للست ليلى..

نظر لي خالد... وهو يعلم كم التساؤلات التي تجتاحني... قال: سأرتاح قليلًا وسأخبرك بكل شيء.

أشفقت عليه فهو عائد من معركة، وأنا أيضًا في حاجة إلى النوم.. في غرفة صغيرة لا تتناسب أبدًا مع تلك الحجرة التي تعايشت فيها أكثر من ستة أشهر.. حجرة صغيرة داخلها سرير تقليدي جدًّا.. مرآة قديمة، مفروش في الأرض سجاد أحمر فيه بعض الأجزاء المتآكلة، البيت رائحته عطنه وكأنه لم يُفتح منذ زمن، فتحت الشباك الوحيد في الحجرة، هلت رائحة الريحان لا أدري من أي جهة أتت بالضبط، لحظات وأغلقت الشباك ثم استسلمت للنوم..

استيقظت على صوت الست نعمة توقظني للطعام والصلاة.. سألتها: كم الساعة؟

قالت: نحن قرب المغرب.

سألت عن خالد، قالت: ينتظرك على المائدة جوار البيت، أعد السائق محمود لكم طاولة شهية.. هيا استيقظي..

بعد أدائي صلاة المغرب.. خرجت، وجدت مائدة صغيرة جوار مقاعد أرضية وإضاءة بسيطة... وخالد قادم من بعيد ضاحكًا لي.. قلت: أهلًا كيف حالك؟

قال: أول طعام منذ أن كنت معك بالأمس، نأكل ثم نتحدث...

تصورته سيأكل بنهم مثلي، كنت جائعة جدًّا.. لكنه تناول ملعقتين من الأرز وقطعة صغيرة من لحم الدجاج المشوي، ثم بدأ يتناول بعضًا من كسرات خبز جاف.. وأظنه كان يدعي أنه يأكل.. حتى لا أخجل. توقفت: الحمد الله.

قال: أكملي طعامك...

قلت: احكِ لي ما حدث... فقط أريد تناول الشاي معك...

نـادى السـائق محمـود.. مشـيرًا لـه أن يقـوم يأخـذ الطعـام، قـال: قومـي نتمـشى قليـلًا في هـذا الجـو الجميـل.

لاحظـت أنـه يريـد أن يحـكي لي شـيئًا بعيـدًا عمـن في المـكان... قمنـا وكان الجـو جميـلًا، نسـمات هـواء نظيفـة وقمـر يتوسـط السـماء بعـز، وأشـجار تتمايـل وزرع يناغـي جـمال الكـون الفطـري الرائـق.. قلـت: بـدأت أقلـق.. احـكِ مـاذا حـدث؟

قـال: كان الأمـر أشـبه بمعركـة.. وكان زهـران وزبانيتـه يعلمـون أو يشـكون لسـت أدري، بعـد أن تركتـك أخـبرت كل مـن معـي.. أغلـب الشـباب الذيـن تقربـت منهـم في الفـترة التـي قضيتهـا هنـاك.. قليلـون هـم مـن لم أسـتطع أن أصـل إلى عقولهـم وهـم المتورطـون مـع زهـران في كل العمليـات السـابقة تقريبًـا.. لا يتجـاوز عددهـم العـشرة..

توقفـت.. قلـت: مـاذا؟ لقـد كان المـكان يضـج بأكـثر مـن مائتـي شـخص أغلبهـم شـباب..

قـال: لقـد تخلصـت مـن أكـثر مـن مائـة شـاب.. خشـيت هـذا اليـوم، أرسـلت بعضهـم في زيـارات لأهلهـم والبعـض في بعـض العمليـات السرية البسـيطة وهي ليسـت عمليـات قدرمـا كانـت محاولـة لإبعادهـم عـن هـذا المـكان.. الباقـي خـرج، بعضهـم قبـل أن تـأتي الشرطـة العسـكرية بسـاعة تقريبًـا وربمـا هـذا مـا جعـل الشـك والريبـة في قلـب زهـران.. والباقـي تقريبًـا أربعـون شـابًا هـم مـن كانـوا معـي. أعلمتهـم بالأمـر وقـد كنـت تحدثـت معهـم كثـيرًا، واتفقنـا عـلى أهميـة التراجـع عـن هـذا الطريـق والرجـوع إلى الحيـاة مـرة أخـرى، ووعـدت الكثيريـن بعمـل مشـاريع هنـا والاعتـماد عليهـم. المهـم.. جـاءت العنـاصر الأمنيـة وبـدأت المعركـة، وبـدأت بإخـراج الشـباب تحـت إشراف الشرطـة وقيـادات الجيـش... للأسـف خـرج زهـران وبـدأ بجبنـه المعهـود

بإطلاق النيران.. أُصيب منهم أكثر من نصفهم... أي خمسة ممن مع زهران وتوفي لي أربعة من خيرة الشباب، وأصيب أربعة من بينهم سعد ابن السيدة نعمة.

صرخت، قلت: ماذا تقول؟ وما إصابته؟!

قال: هو الآن يجري جراحة. الله معه.

توقفت.. وأنا أمسك بذراعه: ماذا سنفعل، كانت تشعر أن هناك شيئًا ما لكن طمأنها صوت طارق...

قال: لا تقلقي طارق جواره... وهو في مستشفى تابع للجيش، والكل يبذل أقصى ما في وسعه لإنقاذ المصابين.

أنهرت، جلست على الأرض... قال: انهضي حتى لا تلاحظ توترك..

قلت: لا أستطيع.. إنها جرحت بما يكفي ووضعت ثقتها فيّ وفيك.

جلس جواري وقال: لقد فعلت كل ما بوسعي، ماذا أفعل أكثر من هذا؟

قلت: لماذا يحدث فينا كل ما يحدث؟ مقتولون يربطنا بالحياة خيط رفيع... يحاك الصراع بين البقاء واللابقاء بحيث يتشكل فينا جحيم لا براءة منه ولا نجاة... أي شيء اقترفناه حتى تضج أحشاؤنا بالنار، ويدب في خواطرنا الصدأ.. طعم الصدأ في حلقي يخنقني، على أي الجرائم ندفع هذا الثمن الفظ... ما ذنبنا إن كنا رضينا من الحياة البقايا، ومن الزاد الفتات ومن الابتسامة صورتها، ومن الراحة الادعاء.

علا صوتي بالبكاء، كانت نعمة هناك.. تقوم بنشر بعض الملابس على حبل

غسيل جوار الدار، كنت أحرك رأسي وأنظر لها خلسة.. كانت تنظر لي بتعجب وهي تراني أجلس على الأرض وخالد أمامي يحاول إيقافي وأنا لا أقوى، هي على مسافة مني لا تُمكِّنها من رؤية دموعي، لكنها توقفت، تركت كل ما في يديها وجاءت تجري. نظرتُ لخالد قائلة: «هنعمل إيه، هي أكيد حست، نقولها ولا لأ؟ هي المفروض تكون جنبه»...

بقي صامتًا ثم وقف وتركني أفترش الرمال. قربتْ، قربتْ أكثر، نظرت لخالد قائلة: «ماذا أصاب سعد؟ تحدث يا شيخ خالد، أنا مؤمنة، قلبي مقبوض من امبارح»

وقال: ابنك بخير في مستشفى العريش العسكري يتلقى الرعاية الصحية..

صرخت... صرخة شقت قلب الصحراء... تلك الصحراء التي قست علينا فوق ما نستحق.. وقعت جواري، أعلم قلبها... تلك النار احترقت بها من قبل. وضعت يدي على خدها أهدهد ذاك الجزع الذي احتل ملامحها فجأة.. قلت: هيا البسي سأرحل معك لنطمئن..

قامت تجرى... وقفت أمام خالد: أين الباقي يا خالد.. أين طارق؟

قال: متحفظ عليهم.

قلت: ماذا؟ لماذا؟ أنت قلت مع سعد.

قال: لا، كنت أود طمأنتك، كانوا قد وعدوني بإخراج الشباب واستغلال طاقتهم فيما يفيد.. لكن داخل المؤسسة عقولًا رجعية تقول عن هؤلاء الشباب خلايا إرهابية نائمة.

قلت: يا الله! وما الحل؟

قال: ما عدت أدري، أخشى بعد ما فعلت كل ما فعلته للبلد أن أقضي بقية عمري بالسجون تحت طائلة ذنب لم أرتكبه!

تنفست بصوت عالٍ، كانت الشهقة والزفرة كخنجر مسموم تمزق في صدري. قلت: الآن سأذهب معها.. نطمئن على الشباب المصاب وعلى سعد..

قال: نذهب جميعًا حتى نتدبر الأمر..

ربت على كتفي، قال: لا تخافي، ستحل إن شاء الله.. هيا نذهب..

داخل مستشفى العريش العسكري وبعد ساعات طويلة في الطريق.. أصرت نعمة على الدخول إلى العناية المركزة لنطمئن على سعد... وبالفعل وبعد إصرار دخلت بعد أن ارتدت الزي المعقم... كنت أقف بعيدًا أتابع ضربات قلبها، أسمع بقلبي طَرق بكائها على الوجع، وأتذكر حينما قلت لهم: «قبر لابني هذا كل ما أريده... بقاياه فقط بقاياه». وأبكي وأنظر لإيمان تلك الجميلة وقد ذبلت وشاخ شبابها قبل الأوان... وأتساءل: «هل بعد هذا الموقف خير يأتي؟!» استوقف خالد الطبيب، ليسأل عن حالة سعد، اقتربت وأنا أرتعد من مجرد سماعي خبرًا يفجر ذاك الوجع العليل بداخلي..

وكانت الصدمة، بترت قدم سعد اليمنى، فقد أصيب بثلاث رصاصات حول الركبة واخترقت العظام وكان الحل الوحيد هو البتر.. كل ما فعلته حينها أني تحدثت إلى الله سرًا ألا تدرك نعمة موضوع البتر... عند عمود جانبي قرب سلم المستشفى شعرت بحاجة للبكاء بصوت ففعلت، كانت يد خالد تربت عليّ

بحنان وعذوبة... نظرت إليه، وجدت حسرة يحاول إخفاءها، لكنه نظر في عيني عميقًا قائلًا: قولي الحمد لله واستقوي... كنت أتصور أن يكون الأمر أسوأ..

قلت: الحمد لله. وماذا عن طارق والشباب المتحفظ عليهم؟

قال: لن أتركهم، سأستغل كل علاقاتي، عاد طارق بعد إجراء الجراحة لسعد إلى الجهة التي تحفظت عليه، فلقد سعيت بكل الطرق أن يكون جانب أخيه، لا تخافي لن أتركهم، حتى لو كان في الأمر حياتي..

نظرت إلى بداية الدور، وجدت نعمة تخرج من حجرة العناية المركزة، جريتُ نحوها، جلستْ عند أول مقعد بعد خروجها من الحجرة قلت: كيف حاله وحالك؟

طرقت على يديّ وقالت: الحمد لله الحمد لله أني لم أشتهِ بقايا كما اشتهيتِ أنت.

نظرت لها مبتسمة وقلت: الحمد لله.

لكني لم أعد أعلم، أحقًا هي علمت بموضوع البتر! أنظر إليها ولا أستطيع الوصول من ملامحها لشيء. أدقق النظر، تغمض عينيها تقرأ القرآن سرًا.. أقترب، أنصت إليها أكثر.. هي تقرأ آية الكرسي، تكررها، قد قالت لي ذات مرة أنها لا تحفظ من القرآن إلا سورة الفاتحة والمعوذتين وآية الكرسي.. آيات بسيطة من القرآن لتفتتح بها الصلاة، كانت تقول أنها حفظت آية الكرسي لتحميها من دناءة الخلق.. وهي من هي خرجت باكرًا في حلقات الرجال تعمل لأجل صغارها.. وكأنها دون قرار منها كانت مرغمة لأن تكون حياتها حلبة صراع، عليها

أن تلقي بنفسها عليها لتصارع قدرًا محتومًا، صراعًا لبقاء لا تستسيغه لكنها مجبرة تحارب في جبهة لم تخترها..

قالت لي ذات مرة أنها تجري في طريق وعر، مكتفة اليدين ترى بروحها جنة لا تصل إليها مهما أسرعت، دومًا نهاية طرقها نار رغم المعاناة والمحاولة.. كانت تنظر لي متعجبة، تبتسم ابتسامة ساخرة حين أحدثها عن الصبر، كانت تقول: «يا ست الصبر عندنا نهايته معروفة، نهايته خراب عشان البداية كانت غلط... أنا في الطريق الغلط.. أسرع أبطأ هي السكة غلط... وكأننا سقطنا من حسابات القدر». كنت أقول لها: استغفري الله...

قالت: وهل تملك مثلي إلا الاستغفار حتى أستطيع إكمال طريقي الوعر؟

ها هي الآن جوار بنتها الجميلة الهادئة بعد أن دنس جسدها الإرهابي الحقير.. وألقى فيها من شذوذه عقدةً تقتل في الجسد الحياة.. نحيبها لا إيمان فيه بالغد رغم أنها إيمان وملامحها إيمان وطهر.. اجتذبها الخائن الدنيء وهي طفلة تلهو جوار أمها الكادحة.. هل كان عليها أن ترفض هذه الزيجة؟ شيء ما رغم التوتر يحركني لأسمع منها، سعد بترت قدمه والآخر في يد لا تشعر... ربما يبتر عمره بقرار مجحف كعادة السلطة حين تنفصل قرارتهم السلطوية بعيدًا عن القوانين والرحمة.

تركت مقعدي ورحت أتحدث إليها، ملست على وجهها الجميل، مسحت أدمعها الجارفة، قلت: اهدئي يا جميلة.

نظرت لي وعيناها ممتلئتان بالحزن، قلت لها: «أنت ساكتة طول الوقت دا

غلـط عشـانك، احـكي قـولي ليـه كل البـكا دا؟ إن شـاء اللـه هتبقـوا بخـير».

بقيـتْ صامتـة وكأنهـا لا تريـد أن تتحـدث.. فقـط الجـزع في وجههـا هـو مـن يتحـدث.. بقيـتُ أربـت عـلى يدهـا.. أنظـر إلى وجههـا الذابـل وهـي فقـط ابنـة السـتة عـشر عامًـا، طفلـة مـا زالـت لكنهـا تحمـل عـلى أكتافهـا جهنـم مشـتعلة..

- تحدثي يا إيمان. (هكذا قلت).

قالت: «خايفة».

قلت: ممّن؟

قالت: من كل شيء، وعلى كل شيء.

استكملت بوجع قائلة: «هو انا ليه لسه عايشة؟»

ابتسمت ساخرة من قولها وقلت: إيمان، أنت ما زلت صغيرة جدًّا.

قالت: بل الحياة ماتت فيّ، أنا جسد يحتضر.

قلت: إيمان، انتهى الوجع حبيبتي، يكفيك أنك تخلصت من هذا الوغد.

قالـت ممتعضـة: أنـا تخلصـت منـه؟ أبـدًا لـن أتخلـص منـه مـا حييـت، هـو داخـلي يقطـع في جسـدي، كان معـي ليلـة أمـس في فـراشي يغتصبنـي قهـرًا، كنـت أشـعر بـه وأبـكي، كنـت أصرخ لكنـك وأمـي لم تسـمعا، حاولـت أن أوقـظ نفـسي مـن كابوسـه الكاتـم عـلى صـدري، لقيتنـي مقيـدة بقوتـه وثقلـه فوقـي، خشـيت يـده التـي كانـت تلقمنـي الوجـع عـلى وجهـي حينـما أطلـب مهلـة أو بعـض وقـت لأسـتريح مـن حرارتـه وبشـاعته، كان ينهـش فيّ كأني خلقـت ليتناولنـي بشـهية شـيطانية قـذرة، هـو كان يقـول

لي هـذا، كان يقـول أنتـم النسـاء خلقـتن لتكـنّ عاهـرات نتمتـع بهـن ونقـود نحـن الأمـة، كان يضربنـي حـين أبـكي أو أتوجـع مـن قسـوته، كانـت رائحتـه مقـززة.. كنـت حـين أقـول لـه أني مريضـة يركلنـي، أنـا لم أعـرف غـير أني جاريـة خلقـت ليعبـث بي الشـيطان.

كنـت أبـكي لبكائهـا وهـي تتحـدث، أسـأل نفـسي: كيف سـتعالج هـذه المسـكينة؟ لا أعتقـد أن الطـب النفـسي يقـدر عـلى هـذه المهمـة الشـاقة، قالـت: «تعـرفي يـا أبلـة كان زعـلان انـه اتجـوزني شرعـي بيقـول اني المفـروض أكـون ملـك يمينـه، خادمـة لـه يفعـل بي مـا يحلـو لـه، إلا هـو يعنـى إيـه ملـك يمـين يـا أبلـة؟ دي حاجـة صحيحـة يعنـي طيـب هـو أي راجـل ياخـد أي واحـدة تعجبـه وتبقـى.. ملـك يمـين؟»

قلـت لهـا: لا، ملـك اليمـين **هـنّ نسـاء بالأصـل «إمـاء».. أي جـواري مملـوكات ولَسْـنَ حرائـر، يمكـن فقـط اتخاذهـن مـن الحـروب التـي تكـون بـين المسـلمين والكفـار أو شراؤهـن ويحـلّ لمالكهـن معاشرتهـن بعـد أن يسـتبرئ أرحامهـن بحيضـة.**

قالت: ما معنى يستبرئ أرحامهن بحيضة؟

قلت: أن يتأكد أنها ليست حبلى.

قالـت: «يعنـى أنـا مـش جاريـة ولا ملـك يمـين؟ ازاي دا كان بيقـول لي كـدا... بيقـول أنـا بنـت خدامـة يعنـي ملـك يمـين».

قلت لها: إيمان، ماذا تقولين؟ أنت حرة، أمك حرة وأنت حرة.

قالت: وكل النساء ولدن أحرارًا كيف يبقوا ملك يمين؟

قلـت لهـا: سـبايا الحـروب إيمـان.. ونحـن لم نعـد في هـذا الزمـن، انتهـى زمـن

الجـواري والإمـاء..

قالـت: ومـا حـدث لي مـاذا يسـمى؟ عقـد الـزواج لم يمنعـه مـن معاملتـي أسـوأ مـن جارية.

- هو الآن بين يدي العدالة.. هدئي من روعك.

قالـت: أيـن أخـواي.. وأيـن أنـا منهـما، أمـي هنـاك مكسـورة، وأيـن كانـا وأنـا أبـاع، وأيـن أبي ذاك الـذي لا أعرفـه ولا يعرفنـي؟! أمثالنـا لا دهـر لهـم وهـؤلاء المدعـون لم يعرفـوا معنـى الرحمـة قدرمـا تشـدقوا بهـا. «تعـرفي يـا أسـتاذة؟».. مطلقًـا لم يذكـرني بالمسـلمين، كنـت كلـما أراه أمامـي أتذكـر كفـار قريـش الذيـن كانـوا في فيلـم فجـر الإسـلام، كنـت أكـره كـوني مسـلمة إذا كان هـذا الـذي يدعـون هـو الإسـلام..

قلـت: حاشـا للـه.. مـا عايشـتِ لم يكـن إسـلامًا يـا إيمـان، الإسـلام سـعة، رحمـة، رحابـة تسـع البـشر، تعطـي لهـم فرصـة للخطـأ ثـم فرصـة للعـودة، الإسـلام حضـن حـانٍ جـدًّا، يحتوينـا إذا ضللنـا، بيـت يـأوي، قلـب يهـدي.. الإسـلام جنـة عابقـة فيهـا كل الرضـا، كل الراحـة، كل الكرامـة، لا ديـن يحـترم الإنسـانية كـما احترمهـا وقدرهـا الإسـلام.. الإسـلام يراعينـا، يراعـي عقولنـا.. شـعورنا الجامـح، وحتـى حـين نخطـئ ونضـل تتلقفنـا العقيـدة وتحنـو القواعـد. هـذا النمـوذج القـذر لـوث كل المعـاني الجميلـة في نظـرك إيمـان.. أنـت صغـيرة جـدًّا.. عمـر طويـل ينتظـرك، أحـداث، مواقـف وحـب... وأطفـال، العمـر زاخـر لـك، يخبـئ لوجنتيـك الزهـور ويمنـح خاطـرك السـكينة، سـنجتاز الأزمـة، لا ترتـدي للـوراء أبـدًا.

بكـت هـي عـلى صـدري كثـيرًا وانتحـب قلبـي شـبابها العاجـز.. بعيـدًا كان خالـد،

جالسًا على أحد المقاعد الجانبية، أرهقه التعب فمال نائمًا، أول مرة ألقاه على هذا الحال، تعلقت عيناي نحوه، وجه ذابل، فقد كثيرًا من وزنه في اليومين الأخيرين، أشعر أنه يحمل بداخله ثقلًا يخفيه عني.. ربما يحيى.. علّ هناك جديدًا في قضيته، ترى ما الأمر الذي يخفيه؟ قمت نحوه أشعر كأنه طفلي، أيقظته برفق بعد أن استأذنت الممرضة في حجرة فارغة.. أخذته بيدي، أجلسته على حافة السرير وقلت له: اهدأ، الله معنا.

قبلته في جبينه وهو ينظر لي بغير اتزان، ثم جعلته ينام ووضعت عليه الغطاء وأظلمت الغرفة، وجلست أمامه على كرسي مريح. غاص في نوم بعد أن أبحر في عيني وأقلعت كل شرائعي في وجهه القديم الذي طالما اشتقت ملامحه، وبقيت جواره ساعات لا أذكرها، شريط الذكريات يمر سريعًا أمامي، حين كنا صغارًا، يختلس كلامنا نظرات ويحتفظ بها عميقًا وكأننا ندري أن قدرنا فراق. هذا الوجه الخمسيني الحاني جدًّا، هو ذاك الوجه الألق الثائر المفعم بالحياة، وهو أيضًا ذاك المتوتر الرافض أن يبقى في منتصف الأشياء، وهو ذاك اليأس العابث بروحه، الهارب من صيغ لا يشتهي معانيها وقيمٍ لم يتدارك فحواها.. هو الفار من النور المتخفي خلف قلة حيلته، القابع في غرفة القهر الذاتي يجلد ذاته دون وجه حق.

ناعس في قلبي، تدفئه روحي بشذى عشقه الساخن، رغم غيابه. أرى خلف ما أرى وجه حلم يراوده، ورحلة يتخطى فيها الحياة وذكريات يجن على أعتابها من الندم... أفقت بعد ساعات، على يقظة تدب في قلبي فرأيته يستيقظ ضاحكًا لي، اتفقنا أن نخرج معًا لتناول الغداء ونعود بطعام لمرافقينا... وفي مطعم كبير

للمشـويات حجـز لي مكانًـا مناسـبًا، قـال أنـه جائـع جـدًّا وكأنـه لم يـأكل منـذ عـام، طلـب أصنافًـا كثـيرة عـلى غـير عادتـه، فهـو لم يكـن يهتـم بالطعـام قـط، تعجبـت! بقيـت أنظـر لـه كأني لا أعرفـه، وهـو يلتهـم الطعـام بشـهية ويدعـوني لأفعـل مثلـه.. كل هـذا وأنـا أضحـك، لا أقـوى عـلى التماسـك وأنـا أراه رغـم مـا فينـا مـن اضطـراب ومشـكلات لا يعلـم نهايتهـا إلا اللـه، يضحـك ويـأكل غـير عابـئ بـشيء، أول مـرة ألقـاه غـير مبـالٍ. عينـاي تضاحكانـه وأقـول سرًا مـا أجملهـا اللامبـالاة ومـا أروعـه التجاهـل.. وهـل تسـتحق الدنيـا تَوقفًـا أمـام الوجـع؟ ليتنـا لم نبـال، ليتنـا ضحكنـا مـن الهـم وألقينـا الثقـل مـن فـوق أكتافنـا ليتنـا! تـرى مـاذا عسـاها أن تفعـل بنـا الدنيـا بعـد كل مـا فعلـت؟ هـل سـتجمعنا أم سـتبقينا قيـد فـراق؟

سـاعات نجـوب العريـش وأخـيرًا أخذنـا إلى الشـاطئ المرمـري الجميـل، بقينـا فقـط أنـا وهـو معـي بعـد أن عـاد السـائق إلى المستشـفى بالطعـام للمرافقـين، وكان العمـر هـو تلـك اللحظـات، أو السـاعات التـي مـرت دون أن نشـعرها. حكينـا كل مـا نسـينا، جُبنـا الذكريـات، حدثتـه عـن أدق تفاصيـلي دون خجـل، حكيـت لـه عـن زوجـي الـذي بقيـت معـه عـذراء خمسـة وعشريـن عامًـا رغـم إنجـابي ياسـين، وعـن الفـراش البـارد الخـالي إلا مـن الحلـم، وعـن كتفـه الـذي كنـت ألقـي نفـسي عليـه كل ليلـة وأنـام، وعـن قبلتـي لـه كل مسـاء وصبـاح.

حكيـت لـه عـن طفـلي حينـما ولـد ووضعتـه عـلى يـدي، قبلتـه وهمسـت في أذنـه الصغـيرة، سـأعرفك بوالـدك الحقيقـي يومًـا مـا.. وبكيـت وأنـا أضحـك فرحـة بلقائـه الـذي كان مسـتحيلًا لكنـه حـدث، حدثتـه عـن ثـوب زفـافي وطرحتـي، ودموعـي وتأوهـات عشـقي المسـكين، وخـوفي مـن رجـل لا أعرفـه ولا أستسـيغه، وسـعادتي حـين

غادرني وأنا بملابس زفافي وقال لي أحب أن أنام بغرفة بمفردي.. فرحت حين قال تصبحين على خير.. نعم إنها هي تصبحين على خير مساءً وصباح الخير صباحًا كانت كل علاقتي به تقريبًا. في اليوم الأول أغلقت بابي وقلت الحمد لله... لكني حين نظرت في المرآة وشاهدت جاذبيتي وأنوثتي تذكرت حبيبي فأوجعني حرماني، بتُّ بملابسي وحيدة إلا من جزعي وحين الصباح ألقيت ملابس الماضي، وهتكت دموعي ستر الشباب والجمال، مزقت ثوب الحلم... ارتديت زي عجوز في نزعها قبل الأخير.

وضعت ثوب زفافي في دولاب ملابسي ذاك التعس، تقبع فيه أشيائي تتدلل، كل الملابس تذوب والخيوط تذبل إلا ملابسي، ما زالت في كامل هيئتها، حين تتفقد «التيكت» الخاص بها تتعجب من مصانع قامت قيامتها وهلكت وبقي أثرها عندي وفقط، قمصان نومي.. بيجاماتي الناعمة، فساتيني القصيرة من الستان والحرير واللاميه الأسود.. أحذيتي.. قبعاتي.. كم كنت أعشق قبعاتي وكنت أنتظر اليوم الذي أفك رباط شعري وأطلقه ورائي، وأرتدي قبعات وكوفيات تشبه ملابسي.. كنت أتصور نفسي أجمل من نجمات الأبيض والأسود. كل أشيائي الجميلة عذراء لم تزل، خجلى أنهكها الانتظار، باردة لم تدفأ بعناق ولم تثمل بقبلة، لم يغازلها العاشق، ولم يطأها الجنون. كل أشيائي تشتاق كما أشتاق وتذوب وجدًا وحنينًا حتى كادت تتأوه وتصرخ من فرط رطوبة الحجرة وبرودة الجدران.

في شرفة حجرتي رأيتك كثيرًا تجلس في المقعد الفارغ صوب مقعدي، تتناول معي القهوة الصباحية، تقرأ الجريدة بنهم، تحادثني عن جلسة مجلس الأمن الأخيرة والقرارات غير المسئولة بحق الشعب السوري، وعن التواطؤ الدولي -غير

المعلن- مع الإرهاب، وعن المبررات غير المنطقية التي تتحدث بها أمريكا للبقاء في سوريا، أسمعك تسب الموقف العربي المتخاذل أمام ديكتاتورية العالم المتعجرف، وتنتقد ترك الساحة للجرذان تنتهك أكبادنا. ثم أراك تلقي بنظارتك ساخطًا فوق منضدة تتوسطنا فتندلق قطرات القهوة من الفنجان، مبديًا انزعاجك من نظام الثانوية العامة الجديد، وزيادة أسعار البنزين الأخيرة، وارتفاع أسعار العقارات. وأنا أقول لك: اهدأ، خذ الحياة على علتها.

تشرب قطرات القهوة ثم تعود للجريدة تتصفح الصفحات الأخيرة بسرعة، تتوقف عند إعلان الحفل الموسيقي الكبير في دار الأوبرا المصرية بقيادة الموسيقار عمر خيرت؛ فتنظر لي ضاحكًا وتقول: استعدي غدًا لسهرة ستعجبك. ثم تقبلني متجهًا لعملك، ملقيًا لي بالجريدة مشيرًا إلى تقرير هام عن سد النهضة، تقول: ادرسي هذا جيدًا سنتناقش فيه بعد الغداء. ثم تتبخر سريعًا وتختفي. أعد مائدة الطعام تتوسطها الفاكهة التي تحب، وأنتظرك لكنك لا تأتي، أبقى أنظر لمقعدك الفارغ، وطعامك الذي ألقيه كل يوم للطيور الضالة، مللت طعم لقيماتي المرة دونك، أنا حتى من وهني تتساقط سكيني وترتعد ملاعقي ويجف الماء في كأسي.

وحينما صمتُّ بادرني بعناق، وكأنه متألم لحالي، كان عناقًا طويلًا، كنت أحتضن فيه الدنيا التي لم أعرفها، أتشبث معه بالجنة التي قذفتني في هوة النار العتيقة.. عدت إلى الوراء، أبحرت في عينيه ودمعات تغسل أوجاعي، قلت والحروف تهرب مني: وكأن الحضن ليس سجنًا، والضمة ليست قهرًا، وكأن في الدنيا أشياء جميلة لم أتذوقها من قبل.. رأينا الدنيا حين انعتق من عنقها الفجر، شاهدنا خروج النهار من رحم العتمة، مولد الضياء بعد الليل الحالك، وكأن البحر يحتفي بنا، كان

فياضًا يهبنا نسمات جديدة، وكأنه بحر في الجنة..

وقررنا العودة للاطمئنان على الشباب بالمستشفى العسكري، تفقدنا الجميع، وذهبنا للاطمئنان على الست نعمة وسعد.. كانت نعمة تصلي وإيمان نائمة، كيف أنت ست نعمة؟

قالت: أحمد الله على كل حال.

وقد كنت في حالة ترقب وقلق، ترى هل علمت ببتر قدم ابنها! لا أدري سوى أن أمامي امرأة بمائة رجل، ترتدي الصبر قلادة ثمينة رغم بساطة الحال، نظرت لي قائلة: لا تقلقي من أجلي، أنا بخير وراضية بما قسمه الله لابني.. المهم أن يبقى معي.

قلت لها بحذر: أعلمتِ؟

قالت: نعم، سيتعجز عليّ إلى أن أموت، أنا قدمه وهو قلبي وعزي.. «يكفيني أنه تخلص من الناس دي.. الناس دي كابوس.. الناس دي مش مسلمين، الناس دي مش مننا، أنا كنت عارفة اني هدفع التمن بس المهم أني أنجو بأولادي».

في حيرتي أتعجب ويزداد انبهاري بتصالحها مع قدرها وتهيئة نفسها لتقبل الخسائر.. ما هذه الجسارة وما هذه الفلسفة التي عجز عن إدراكها عمالقة الفكر وأرباب المنطق.. شعرت بالتضاؤل أمامها.. قربت من موضع صلاتها أربت على كتفها: لا تخافي، سأبقى هنا، لن أرحل إلا بك وبأولادك، عندي بيت في البلدة كبير وجواره بيت أخرى يخص أبي رحمه الله، ستبقين معي، المكان هناك يناسبك، سنبقى أسرة، يسعدني أن تشاركيني الحياة وقد منحني الله ثلاثة بعد أن فارقني

ياسين.

بكت وارتمت في حضني، قلت لها: كفى بكاءً.

قالت: طارق..

قلت لها: سيعود، إنها إجراءات شكلية، سيعود..

خرجت مع خالد الذي كان ينتظرني بالخارج وقد حجز لي غرفة في فندق قريب من المستشفى... اتفقت أن ألقاه بعد أن يخلد كلانا للنوم، أوقفني حائرًا وكان أمر ما يشغله، قلت: ماذا؟

قال: لن أستطيع.

قلت: تستطيع ماذا؟

قال: أنا مطلوب، بالكاد عافرت واستخدمت كل علاقاتي خارجيًا وداخليًا حتى أؤمن خروجك من هنا، اطمئني يحيى بخير، يوم الثلاثاء الحكم في قضيته، قد ضمنت براءته حتى إني أخذت حذري وحيطتي من كل الظروف المحتملة.. كل الأوراق التي تؤمنه كانت مع المحامي والمرافعات السابقة كانت أكثر من ممتازة، ضمنت لصديقي البراءة، وعلى فكرة جمال يمسك كل الخيوط في يده، أعيدي علاقتك به، عوضته عما فقد بسببنا، كل أشغالي في الخارج سيديرها هو ويحيى فور خروجه.. كل هذا فعلته لأجلك حتى لا تبقي بمفردك.

أمعن النظر في عينيه أكثر وأقول: ثم ماذا؟

قال: ثم أنت قوية، وأنا معك بروحي وأنت تعلمين، لا تمر اللحظات إلا وأنت

أجمـل مـا فيها.

قلت: ثم ماذا؟

قال: لا تثقلي عليّ، يكفيني وجع الفراق مرة أخرى.

قلت: فراق! ماذا سيفعلون معك؟

قـال: لم أعـد أعلـم كيـف تسـير الأمـور هنـا، أنـا كنـت معهـم لأجـل تحريـر المنطقـة، كنـت معهـم لحظـة بلحظـة، أنـا الآن متهـم.. البعـض يعرفنـي ويدعمنـي والبعـض يقـف ضـدي، تلفيقـات واتهامـات، ومؤخـرًا زهـران يجـرني جـرًا ويؤكـد لهـم أني متـورط معهـم في كل أعمالهـم.. حـرب جديـدة، لكنـي لم أعـد أملـك الدخـول في حـروب، أنـا لا يعنينـي الأمـر ولا السـجن ولا الإعـدام، سـعيد أني فعلـت مـا فعلـت لأجـل تـراب وطنـي، كنـت قـد تصـورت أني سـأنهي أوجاعـي إلى جـوارك، أمـوت بـين يديـك... هـذا الأمـر وفقـط مـا يؤلمنـي.

قربت منه: لن أتركك.

- بل اتركيني، لا تتدخلي في هذه الأمور.

- بل سأتدخل، لن أتركك ترحل مرة أخرى ولو أني سأقف ضد العالم.

- ابتعدي يا ليلى، إنها السياسة!

- لا، ولا السياسة تستطيع أمام قلبي، لا شيء يجدي.

- ليلى، قلت لك ابقي بعيدة عن الأمر، بالكاد أغفلوك.

- ابق، لا تذهب.. دعنا نهرب من هنا كما هربت قديمًا.

- لا، لـن أكـرر الخيبـات، سـأدفن في تـراب وطنـي وإن دفعـت الثمـن الباقـي مـن عمـري.

- فكـر جيـدًا، أمامنـا فرصـة للهـروب، يكفينـا مـن المثاليـة مـا عانينـا، اسـمع كلامـي وتعـال الآن نهـرب، نصنـع وطنًـا يحـترم إنسـانيتنا، يراعـي مشـاعرنا.. صدقنـي نحـن مـن نصنـع الوطـن وليـس الوطـن مـن يصنعنـا، الوطـن لا يقتـل أصحابـه... تعـال الآن.

- لا، الوطـن جـذور، كيـف نُقتلـع مـن جذورنـا؟ إن اقتلعنـا سـنمزق، سـنصبح أجـزاء منقوصـة.. لـن نكتمـل حينهـا يـا ليـلى، سـنعاني النقـص لـو أنجبنـا مـلء الأرض بـشرًا وحفرنـا في الرمـال هيئتنـا.. كيـف نهـرب مـن التاريـخ، مـن الخاطـر المشـدود الشـغوف بالنيـل، مـن الأهـل، مـن الامتـداد، كيـف نهـرب مـن الذاكـرة؟ كيـف نهـرب مـن القيـد، مـن لهـو الطفولـة وأحـلام الشـباب، كيـف يـا ليـلى؟ كيـف أطمـئن عليـك في أرض غـير أرضي؟ كيـف أزرعـك نبتـة صافيـة في طـين غـير طينـي ومـن أيـن نرتـوي ونحـن لا يروينـا إلا مـاء هـذا الوطـن.. الوطـن يسـتحق يـا ليـلى... حتـى لـو كان ثمـن الوطـن فراقًـا، أتـركك في رعايـة اللـه وحمايـة الوطـن...

وغادر كالحلم، وتركني في القبر الذي اعتاد أن يلقيني فيه كل فراق.

الفصل الخامس عشر

مـرة أخـرى في قلـب الوحـدة، مـع كل حـسرة يمـوت فيـك شيء، لتـتركك الحـسرات بقايـا متعفنـة عـلى شـفا أرض لا تتطيـب بثراهـا، تتمنـى مـن وجعـك أن يكـون قانـون الجاذبيـة قـد غـادر حتـى لا تتلمـس ترابهـا، ولا تنـام تحـت سـمائها، يخنقنـي هـذا الهـواء المقتحـم غرفتـي بـلا اسـتئذان، ذاك الـذي يتلاعـب بأدمعـي فيزيلهـا بقسـوة ويطرحهـا أرضًـا لتـئن دون مقـلي، أتنفـس بعمـق، فيتطايـر شـعري خلفـي، وكأن روحًـا مـا تطـوف بي، أيلاطفنـي نسـيمها، تـرى أتسـترضيني؟

خرجـت في الشرفـة الكبـيرة المطلـة عـلى البحـر، إنهـا خلابـة رغـم كل الفقـد فيهـا، هـي لم تَقْـسُ بـل أقصانـا القـدر، وشـتّتتنا الظـروف.. وأعـود إليهـا أعلـن في عشـقها استسـلامي، أتـرك روحـي بـين يديهـا وأنـا بدونهـا مَـن أكـون.. الأصـل في الكـون الفـراق، هكـذا علمـت حـين تطلعـت لفضائهـا الرحيـب، حينـما رأيـت القمـر يـأتي بعـد أن تختفـي الشـمس ويرحـل الضيـاء وتبقـى النجـوم حتـى لا تبقـى العتمـة..

عـدل اللـه في الكـون، حتـى الليـل مضيـئ، تخيلـت حـرارة الصيـف القائظـة، فعاودتنـي حـين الهبـوب نسـمات مغلفـة برحمـة إلهيـة تُطيـب أرواحنـا، وحـين قحلـت الأرض وجفـت الزوايـا، منحتنـا أمطـار الشـتاء الأمل فربتـت على الأرض العطشى فسـقتها حتـى ارتـوت. سأُسـقى حتـى أرتـوي فقـط عـليّ أن أثـق بـربي وبوطنـي... سـيعود خالـد ويحيـى وجـمال وسـألقى ياسـين، حـين ربـت عـلى روحـي صباحًـا كنـت أقـوى، لا أدري كيـف عاودتنـي الصلابـة، اشـتريت حلـوى وذهبـت للشـباب، عاهـدت نفـسي أن أقـوم

بـكل مـا يقـوم بـه خالـد، لـن أتخـلى عـن دوري ولا عـن صلابتـي، سـأقوم وأتحمـل النتائـج مثلـما فعـل خالـد.. هـو منـي وأنـا منـه، ولـن يكـون أقـوى منـي أبـدًا.

في المستشـفى العسـكري كان سـعد يتماثـل للشـفاء، انتقـل إلى غرفـة عاديـة، نعمـة وإيمـان بخـير أكـثر، شـعرت باختـلاف نفسـيتها عندمـا أخبرتهـا أنهـا سـتأتي معـي، سـألت عـن الشـباب المصابـين كانـوا كلهـم بخـير، مـا عـدا شـابًا في الخامسـة والعشريـن مـن عمـره أخبرتنـي نعمـة أنـه سـيجري جراحـة في المسـاء، سـألتها: في أي غرفـة؟

قالت: إنه في العناية المركزة، لكنه سأل عدة مرات عن الشيخ خالد.

قلت لها: كيف وهو في العناية؟

قالت: أوصى الممرضات واستحلفهم.

قلت: معه أحد من أهله؟

قالت: لا أحد يعلم من أين هو، هو بمفرده.

قمـت مسرعـة إليـه، وعنـد العنايـة توقفـت، سـألت في الاسـتقبال الخـاص بالـدور، قالـت: أخـيرًا... حالتـه حرجـة جـدًّا ويطلـب الشـيخ خالـد بإلحـاح.

قلت لها: أنا من طرف الشيخ خالد.

قالت: انتظري حتى يمر الطبيب ويغادر.

بقيت أربعين دقيقة جالسة إلى أن ينهي طبيب الدور إشرافه.. قالت: تعالي.

جعلتني أرتدي غطاءً في رأسي وقدمي وقالت: إجراءات ضرورية للتعقيم..

قلت: لا عليك..

دخلت الحجرة متوترة، وجدته شابًا نحيلًا أسود الشعر قمحي البشرة، تظهر على وجهه البراءة، موصول بأجهزة ومعدات كثيرة. قربت منه، وضعت يدي على يده، ففتح عينيه، ونظر لي مبتسمًا، نزع جهاز التنفس وقال: أهلًا بك.

قلت: أهلًا ابني، كيف حالك؟

- أنا بخير، أين الشيخ خالد؟

- هو ليس هنا الآن، أرسلني إليك.. ماذا بك؟

- معي رسالة له.

- تفضل، تحدث.. أسمعك.

- أولًا، في الخارج في استقبال المستشفى حقيبة سوداء بها كل ما سأخبرك به.. بها رسالة لأمي ورسالة لأختي ورسالة أحتاجها أن تنشر.. رسالة إلى كل الشباب العربي، أوصيك بالله سيدتي أن تصلي بالأمانة لأهلي وأهل صديقي.. هذه وصية ميت.

- لا تقل هذا، ستبقى بخير إن شاء الله.

- أنا من سوهاج، من «طهطا»، اسمي سامر..

يتكلم بصعوبة... لا يستطيع التنفس، قلت له: لا تتحدث الآن.

قال: لا أحتاج إلا أن أتحدث... أنا تخرجت في كلية العلوم بتقدير جيد رغم تفوقي السنوات السابقة، الكل كانت ينتظر لي مستقبلًا، توفي أبي بعد نجاحي في الثانوية العامة مباشرةً، كانت صدمة.. كنت متعلقًا أنا وأختي الصغيرة بوالدي،

بعـد أشـهر قليلـة ورغـم حـزن أمـي عـلى أبي فإنهـا تزوجـت مـن عمـي، أُصبـت باكتئـاب واسـتغراب للمـكان، بالـكاد كنـت أتابـع دراسـتي وأنجـح، حتـى تزوجـت أختـي الصغـرى ابـن عمـي، كانـت كارثـة بالنسـبة لي..

يتوقف عن الكلام ويسعل بصعوبة..

- اهدأ، لا تتحدث.

- بـل سـأتحدث. ثـم شـعرت أني غريـب في بيتـي، أمـي في طابـق وأختـي في طابـق وأنـا بمفـردي في الطابـق الأخـير، كنـت لا أطيـق الوضـع.. لا أطيـق، كان عمـي يعاملنـي برأفـة لكنـي كنـت أتبـع جهـل شـيطاني، أرى القليـل منـه كثـيرًا حتـى وصلـت لأن أكـره أمـي.. وأعاملهـا معاملـة سـيئة. أنـا أبكيـت أمـي أيامًـا وليـالي..

ثم استمر في بكاء كالطفل الصغير، بصوت مقطوع مكسور.

- اهدأ أرجوك، اهدأ، نكمل حديثنا غدًا.

- رجولتي لم تتقبل بقاء عمي معنا.

تحدث دون الانتباه لنصحي..

- شـعرت أني غريـب وسـط أعـدائي ففـررت بعدمـا تصلبـت وفجـرت ولقّفـت أمـي لطمـة مؤلمـة جعلتهـا تقـع مكسـورة الخاطـر مفطـورة القلـب، فـررت لا أعلـم إلى أيـن، لكنـي رغـم مـا لقيـت مـن سـوء العيـش، لم أفكـر في الرجـوع ورؤيـة وجـه أمـي ثانيـة، كانـت ملامحهـا الباكيـة هـي آخـر مـا أغمـض عينـي عليـه وأول مـا أشـاهده عنـد صباحـي، بقيـت هكـذا طيلـة خمـس سـنوات هـم عمـر فـراري، أنـا نـادم يـا سـيدتي، أنـا لسـت إرهابيًـا.. أنـا شـاب محطـم لم يجـد العـون مـن أحـد، أنـا لم أقتـل أحـدًا.. في

الساحة عرفت من أعدائي الحقيقيين، هربت من أهلي وتألهت بعدوي حتى إني غرست نهايتي قبل أن أبدأ.

ثم صرخ: أمي... أمي.

ثم مسك يدي وقال: اذهبي إلى أمي، قولي لها أني أقبل قدمها ولن يرتاح جسدي في التراب حتى ترضى، يا الله... هبي لي أمي الآن..

قلت له: اهدأ، سأحضرها لا تقلق.

- ماذا؟ حقًا سأرى أمي!

- نعم، غدًا.

قال: لا، الآن أرجوك الآن.

- لكن كيف؟! هي في سوهاج...

- أقسم عليك، أنقذيني، غضب أمي أصعب من الموت!

- اطمئن، ارتح قليلًا، أين بياناتك؟ أين العنوان؟

أشار متعبًا نحو الخارج. ربت على يديه، وتبسمت له محاولةً تهدئته وخرجت، وبالخارج تحرقني دموعي وتقلني الأحزان. في الاستقبال تحدثت إلى رشيدة مسئولة الدور، أريد أشياء سامر، قالت: «يا ريت ينفع!» قلت: «هينفع إن شاء الله».

وضعت في يدها ورقة نقدية فئة ١٠٠ جنيه: الأمر ضروري جدًا، سامر بين الحياه والموت.. ساعديني من فضلك.

قالت: «وانت مين يا هانم تبقي له إيه؟»

قلت: أسرعي أرجوك، أحتاج رقم أسرته، لم ير أمه من خمس سنوات مضت.

قالت: إنه موضوع تحت حراسة لكنها ليست مشددة.

صرخت فيها قائلة: يموت، هو يموت، يحتاج أمه!

صمتت قليلًا ثم ذهبت إلى دولاب جانبي من الحديد السميك وفتحت إحدى الدلف، وجاءت بالحقيبة، التقفتها سريعًا وعدت إلى المقاعد الجانبية.. بدأت أفتش وكلي يرتعد، توصلت إلى تليفونه، حاولت أن أفتحه لكنه ولسوء الحظ فاصل شحن، سريعًا قمت إلى الاستقبال للبحث عن جهاز لشحن الموبايل. سألت الموجودين، الكل يسأل عن نوعية الجهاز، إنه جهاز غريب، كل أنواع الشواحن الموجودة لا تفي بالغرض. آه... قلت آه عميقة، ماذا أفعل؟!

عدت إلى حقائبه أفتش في كل مكان بعد أنت طلبت كل أشيائه من رشيدة... حتى إني ألقيت ملابسه على الأرض، في قميص أسود لفت نظري صوت خربشات ورق، فتحت الزر فوجدت أوراقًا مكتوب عليها أرقام. قلت الحمد الله.. وقمت إلى تليفوني الخاص سريعًا، اتصلت بأول ثلاثة أرقام.. أعطوني نتيجة واحدة.. مغلق مغلق، يا رب! أقولها بقلق، لا أدري كيف هو؟ ربما توفاه الله أم مازال حيًا، ضربت الرقم الأخير، وجدت صوتًا أنثويًا ضعيفًا، يأتي واهنًا. قلت: أم سامر؟

قالت: نعم، من معي؟

قلت: أهلًا بك.. أرجوك افهميني جيدًا، اذهبي الآن إلى المطار، اركبي طائرة إلى العريش، وإن كان لا يصلح فأي طريق يوصلك أسرع اسلكيه.

قالت: سامر! ما به؟

قلت: لا شيء..

صرختْ بقوة: ابني..

قلت: تعالي لن تندمي، المستشفى العسكري في العريش..

أظنها رمت الهاتف، حتى إنها لم تحتفظ باسمي ولا رقمي... وبقيت أنتظر وأنظر إليه من النافذة الزجاجية، أراه هادئًا فأطمئن.. وأنا أتمعن فيه، لا أدري رأيت فوق جسده روح ياسين، نعم، أنا رأيته، كأنه جواره، أشم روحًا، نعم أظنها روحه.

طلبت من إحدى العاملات قهوة وذهبت أستلقي على سرير بحجرة فارغة، شيء يطبق على أنفاسي. أشعر أني على مقربة من فقد الوعي... النوم يراودني.. أخشى أن أنام، فأصحو على ضياعه. ما بالي أخشى كل شيء! بقائي جواره، أو بعدي عنه، لا أدري غير سيل من التساؤلات يقهر قلب النوم لكن لا يقوى عليه، في دوامة مسافرة في رحلة عبر كون لم تطأه قدماي قبل ذلك، سافرت، لا أدري سوى أني بقيت كثيرًا مع ياسين وسامر نتسامر.. ساعات طويلة مرت ربما وأنا على هذه الحالة، قمت فزعة حينما أدركت وجود ياسين مع سامر، جريت إلى العناية دون حذائي وغطاء رأسي.

- ماذا؟ ماذا؟! اهدئي يا مدام إنه بخير.

هكذا قالت رشيدة.

- الحمد لله.. كم الساعة؟

سألت وأنا لا أزال يطوحني النوم وتغالبني الغفلة، قالوا وكأنك لم تنامي منذ أعوام، قلت: إنه كذلك.. أأتت أم سامر؟ قالوا: لا.. وكيف حاله؟ قالوا حالته مستقرة. قالت إحداهن: «ابتسم لي لأول مرة، شاب جميل يا خسارة، يا رب يخف كدا ويحبني، طول عمري نفسي في شاب حلو كدا طول بعرض».

ضحك الجميع وضحكت، جلست على أحد المقاعد وطلبت من إحداهن أن تأتي لي بالحذاء والحجاب فقالت حالًا.. شممت رائحة طعام، تذكرت أني لم أتناول أي شيء منذ أمس.. رحبت الفتيات العاملات بالدور بي، ودعونني لتناول العشاء ولم أرفض، على الأرض فرشن ورق جرائد ثم وضعن طعامًا شهيًا من جبن بلدي وطماطم مملحة وباذنجان مخلل وطعمية ساخنة وبعض من الطحينة. كانت جائعة والفتيات مرحات يضحكن بشقاوة وبراءة، كنت أنظر لهن مبتسمة وأنا أضع قطعًا من الخبز في فمي وأتعجب كيف تسكن الحياة جوار الموت! بل كيف تحيا الحياة في نفس القالب مع الموت دون ضوابط تذكر... وكيف ينجرف الندى والدمع على مقلةٍ واحدة، وكيف يضحك القلب منفطرًا من الوجع ويتوجع ضاحكًا من الفرح!

الجو خانق والفتيات كل واحدة منهن ألقت نفسها على كرسي بعد تناول الطعام.. فقط نادية هي من اتفقن أن تبقى مستيقظة وعليها أن توقظ الجميع إذا جاء مرور مفاجئ... في الشرفة المواجهة لغرفة العاملين، تهب نسمات رياح تتحدث بشيء، لكن لا أفهم لغة الرياح، وقفت وكانت الشرفة تطل على حديقة كبيرة بها أشجار تشبه النخيل لكنها أطول، وورود ورائحة نعناع وريحان تستظل أسفل النافذة.. لماذا تأخرت، كان يجب أن تسابق الريح! انتصف الليل وقد

حدثتها في وقت مبكر، ترى لمَ كل هذه الساعات؟

فجأة تغير كل شيء، صوت سيارة الإسعاف أيقظ الذاهبون لاختلاس لحظات غفو، ماذا يجري، ماذا حدث، ألا أحد يجيب؟ ذهبت بالقرب من سامر، قالوا أنه بخير، نظرت من النافذة الزجاجية، وجدته هادئًا ومبتسمًا. الحمد لله.. قلتها وساقني فضولي لأعرف لمَ انقلبت المستشفى بهذا الشكل! أسأل المارين لا أحد يريح، هناك من يقول حادثة ماتت فيها امرأة، وهناك من يقول طفلة سقطت من أعلى البيت، لا أحد يريح ولا أنا أتوقف عن العبث والبحث... بعد أكثر من ساعة وأنا في حيرتي، ولا أحد يأتي بالخبر اليقين، شددت يدها وهي تصعد الطابق المؤدي لغرفة سامر، إنها رشيدة، قلت لها: احكي ما الأمر؟

قالت: ربما الأمر يكون شاقًا عليك.

قلت: ماذا؟!

وضعت يدها في جيبها وأخرجت مائة الجنيه كرمشتها ووضعتها في يدي..

- ماذا؟! (قلت متعجبة).

- توفيت والدة سامر عندما وصلت الاستقبال وتأكدت أن ابنها بين الحياة والموت...

لا أدري غير أني نظرت بعيدًا نحو غرفة العناية وقد بدأ الفجر يبدل ثياب نومه ويستعد للإقلاع، وصوت عصافير الجنة يشق قلب الأفق المعتم.. فيوقظ في الموتى الحياة، ويصطحب أرواحًا تلاشت في براح الكون وطفت تحقق مجدها في واقع جديد... وجدت نفسي أجري بلا هدى إلى حجرة سامر.. أتخطى الحد

الحياتي بين الحقيقة والإعجاز.. أجري فوق عمري فوق حزني فوق أوجاع الفقد وأشواك الرحيل. وفتحت الباب غير مبالية بالأصوات التي تمنعني.. وسمعت صوت الجهاز.. صفارة الموت أطلقت لحظة تلاقى فيها سامر وأمه خارج حدود الواقع، في ساحة كون جديد... عند أعتاب الجنة يتصالحان، أراها تقبله، تعانقه عناقًا في حيز الوضوح عند خط الإزاحة الأبدية عرس يتلألأ فيه شوق خمس سنوات.. حنين لصدر كان سريره وموضع ارتياحه.

سامر وأمه وموت في نفس اللحظة، وكأنه اتفاق مسبق منذ أن كان في أحشائها جنين حي يرزق.. اتفاق روحي خالص بلا أي وساطات أو جلسات عرفية للمصالحة، اتفاق خالٍ من الحيثيات والقرائن.. بارقة نور تتلألأ بين مجرات أو عوالم لا نفقه تركيبها، الشاهد هو الله والقرائن ملائكة، حفل أَشم عبقه في حجرة الشاب الجميل.. ينام كطفل وكيف لا يكون وهو في براح حضن أمه يتقلب! قربت منه والجميع يجذبني، طبعت قبلة وداع على خده الباسم، يد كانت تربت عليّ، إنها نعمة.

أخذتني من يدي محاولة إبعادي وهي ترى انهياري ومعاناتي، وأنا أهم بالخروج من الغرفة وجدت امرأة تشبهه دخلت مهرولة إلى جسده تبكيه بصعوبة وتقول أخي... جذبناها وقمنا بإخراجها... جوارها قلت اهدئي... لماذا تأخرتما، نظرت بدموعها قائلة: فعلنا كل شيء للوصول أسرع.. أمي كانت ترتجف وهي أصلًا مريضة منذ أن غادرنا ورحل، تعاني من الضغط المرتفع، لم تهنأ لحظة منذ رحيله.. أمي كانت تتقلى بسببه وأنا تعذبت لفراقه، كان كل شيء لنا، ألقانا ورحل.. أمي لم تتحمل.. فقدتها وأخي في نفس اللحظة...

تصرخ صراخًا عنيفًا يفسر الهم الذي تحمله.. اهدئي، هكذا قلت لها بعد أن جذبتها في حضني: سأخبرك بما قاله لي قبل موته بقليل.

فزعت قائلة: حقًا، ماذا قال؟ تحدثي.. تحدثي سريعًا.

قال أنه يحبكم، هو من أمرني بإحضار أمه، كان يبكي لما فعله بكما... مات معلقًا برضا أمه.

قالت: أمي لم تغضب عليه أصلًا ولا أنا، فقط افتقدناه...

قاطعنا زوجها حينما أتى، جلس جوارها، وضع ذراعه على ظهرها بحنان ثم تلقفها على صدره وبقي يبكي وهي تبكي، شعرت بيد تخنقني... قلت: من فضلكما هذه حقيبته، بها ملابسه وأشياؤه وخطابات كتبت لكم، لكن هذه الحقيبة الصغيرة للشيخ خالد بها أوراق تخصه، هذا ما أوصى به سامر...

نظرت إليّ نعمة وهي تسبح بمسبحة بيضاء.

- كيف حال الآخرين يا نعمة؟

- بخير، جميعهم بخير... «تحبي تروحي تزوريهم؟»

قلت لا لا. ما عدت أريد أن أرى أحدًا كفاني تمزق.. ما هذا العالم البشع؟!

قالت نعمة: هوني عليك يا ست ليلى، الحمد الله على كل حال، ماذا كنت تريدينها؟ هي ليست جنة، «دا بس عشان نعرف الفرق».

- صدقتِ جدًا، كيف حال سعد؟

- بخير، لم يهدأ منذ أن علم بما حدث لقدمه، يبكي منذ أمس لهذا أغفلت

عنـك.. سـكن الآن حينـما سـمع مـا حـدث لسـامر، كان صديقـه ويعـرف كـم كان يحتـاج أمـه قبـل موتـه.. هـو في حالـة غريبـة، أخـشى عليـه.

- الهمـوم تمنحنـا الثبـات، تجعـل قلوبنـا أكـثر سـمكًا وتغلظًـا. سـيبقى بخـير لا تقلقـي..

جمعتنـي وأخـت سـامر «سـمر» الغرفـة فأنـا لـن أبـرح إلا عندمـا يرحـل سـامر وأمـه إلى مثواهـما الأخـير. ميتـة تختبـئ خلـف سـلك شـائك مـن الجمـر، كلـما ألهبهـا احترقـت، نظـرت محرجـة مـن نفـسي، كيـف أحدثهـا عـن الأمـل؟ أي أمـل؟! كيـف سـأعدها عـلى الثبـات، بعـد أن هُدمـت فيهـا أعمـدة المقاومـة، كيـف أحدثهـا عـن التسـتر بالباقـي مـن السـعادة وهـي عاريـة إلا مـن الفقـد. قربـت منهـا قلـت لهـا: أنـت جميلـة، أكيـد أولادك مثلـك.

نظرت في عيني قائلة: لم أنجب.

قلت مرتجفة: سيكونون مثلك.. إن شاء الله. زوجك حنون وواضح أنه يحبك.

- نعـم يحبنـي، بعـت أخـي لأجـل حبـه، لم يعطنـي فرصـه لأحـكي لـه عـن مشـاعري، تصـور أني اتفقـت أنـا وأمـي عليـه، كان يعـاني مـن هـلاوس تصـور لـه أننـا أعـداؤه.

قالت وهي تصرخ وتضرب في وجهها..

أحـاول أن أهدئهـا.. لكنـي فقـدت قـواي.. قامـوا بإعطائهـا حقنـة منومـة وبقيـت عـلى سريـر جوارهـا، تسـمرت عينـاي عليهـا حتـى جـاء مـن يطـرق البـاب يقـول لهـا: اجهـزي، السـيارة جاهـزة للرحيـل.

سـاعدتها في ارتـداء ملابسـها، قبلتهـا وذهبـت مـع زوجهـا، مـن الشرفـة وجـدت

الإسعاف يحمل الجثتين، وخلفهم عربات تحمل أهلهم وذويهم.. وكأنه عرس.. لكنه مختلف.. زفاف أرواح إلى تلاقٍ أدوم.. شعرت تناغمًا في شهيق الموت وزفير القسوة التي جعلت كليهما يتعذب، لا تستحق... هي الدنيا لا تستحق... يمامات ترقص على جثث من نور الله، أكرم بكم لا أخشى عليكم! عدت أدراجي حيث سعد وإيمان ونعمة.. وقفت على باب الغرفة لكن لم أستطع الدخول.. ماذا أقول؟ لم أعد أستطيع أن أشد من عضد أحد... عدت إلى غرفة الممرضات أتحسس مكانًا أغفل فيه عن الدنيا... دق الهاتف، حالة من الدهشة تجتاحني عندما سمعت نبرته.

- من؟ (قلت مندهشة).

قال: نسيتني؟

قلت وخفقاتي لا تصدق: من؟

- هل أعوام قليلة تنسيك رفيق دربك؟

صمت...

- تحدث؛ (قلت بتوتر): أحتاج أن أُشبع مسامي من صوتك.. تحدث أحلم أنت أم حقيقة؟ أنت أين؟ أنت كيف؟

- وقعت من فوق مقصلة، كلما هموا بقتلي أنكرتني المقصلة وقذفتني على أعتاب عمر جديد.

- أخي... أخي! الحياة مزقتني وأنا دونك فتات أنا.

- عودي يا ليلى عودي، أنا هنا، عودي..

- لم يعد بوسعي، في رقبتي أرواح موصولة بي، مبارك عليك الحرية، أخي أنت لا تدري سعادتي..

- أين أنت؟

- أنا هنا في مستشفى العريش العسكري.

- لو كنت أستطيع لأتيتك حبوًا أنا اشتقتك جدًا.

- أعلم.

- خرجت الآن، فقط منذ لحظات، سأحدثك حين أستريح.

- نعم، سنتحدث فأنا في حاجة إليك.

- هذا رقمي، سجليه.

- سأفعل، قبِّل لي الأولاد.

وجه أمي، صوت أبي، ضحكات حمزة وحدة جمال، في قلبي يدق كل منهم على موطنه فيّ، إلا رفقة يحيى هي منبتي وغصني، تحرر يحيى في نفسي، الآن خرج من محبسه في صدري إلى رحابة الكون. كنت أخجل أن أذكره وسط انهياري، كنت أخجل أن أحصيه في خسائري، الحمد لله.. علّها بشرى أمل تفتق فانبلج منه عبق الأمن المفتقد. ارتديت ملابسي ولا أعلم وجهتي، من جيب جانبي سري في حقيبتي أخرجت الورقة.. قرأت الاسم جيدًا، قلت ربما هذا، حاولت حفظ العنوان، اللواء «إبراهيم السفطي».

دق جرس الباب.. فتح شاب عشريني، قلت له: أريد سيادة اللواء.

- قال من أنتِ؟

أعطيته الكارت الخاص بي، قال: انتظري.

ثم عاد قائلًا: تفضلي.

في حجرة مكتب واسعة بها مكتبة شيقة تحوي آلاف الكتب القديمة، بنظرة سريعة متطفلة اتضح أن معظمها سياسي، جلست أرمق كل جزء فيها بتعجب واندهاش، غرفة واسعة بشكل غريب، بها أنتريه جانبي يأخذ حيزًا لا بأس به، المكتبة تلتف بسعة الحجرة تجعلك تتوتر وأنت تنظر، أقاصيص من النبات الأخضر الجميل معظمه أنواع مختلفة من الصبار، ثم باب يؤدي إلى برجولا واسعة بها جلسة مميزة تطل على حديقة المنزل الكبيرة، حجرة رائعة، بقيت أتجول فيها كأنها أثر فرعوني عتيق، عبق القديم يأتي من الزاوية المنمقة، مرصوص على أرففها تماثيل فرعونية أكاد أجزم كلما أقترب أنها تماثيل أصلية، أقترب أكثر، أضع يدي أتلمس المسلة التي كتب عليها حروف هيروغليفية ورسومات ملكية، أمر بإصبعي على الحروف المنحوتة داخل المسلة فأبهر أكثر، ترى إلى أي حقبة زمنية تعود هذه المسلة، أتراها حقيقية؟!

لكني لم أقرأ قطّ عن مسلة بهذا الحجم، أظنها تصغير لمسلة من العهد الفرعوني، لكن من هو الرائع الذي أخرجها بهذا الشكل وهذه الجودة! وأنا في شغفي سمعت صوتًا من الخلف يقول: إلى هذا الحد أخذتك فتنة الفراعنة؟

نظرت لمصدر الصوت بتوتر، لقيته رجلًا ذا هيبة وصلابة، شكله قد تجاوز

الستين أو أقل بقليل، لست أدري غير أنه ذو هيبة، ارتجفت قائلة: عفوًا.

وابتعدت عن المسلة ويدي ترتعد، قال: لا تجزعي.

وقرب مني قائلًا: اهدئي، أنا ما تعمدت إحراجك.

- أعتذر للمرة الثانية لكني لم أستطع أن ألغي شغفي وفضولي، روعة المكان فوق طاقة احتمالي.

- إلى هذا الحد أعجبتِ بالمكان! (قال بتعالٍ).

- نعم، جدًّا، تحية لذوقك الراقي. (قلت وأنا أبتسم). لكن شدني أكثر الركن الفرعوني، المسلة، التماثيل، صورة مصغرة من تماثيل حقيقية، من استطاع إخراجها بهذا الشكل؟

ضحك قائلًا: سريعًا تريدين معرفة كل شيء!

قلت: لا أقصد، فقط فضول، أحب المسلات، أيًا كان منشأها.

قال: وهل للمسلات منشأ آخر غير الحضارة الفرعونية؟

قلت: نعم، أقدم مسلة في التاريخ كانت في العراق، مسلة حمورابي، سميت شريعة حمورابي عليها قانون حمورابي، العالم اليوم يرث ٧٨ مسلة متبقية من حضارة الفراعنة بالإضافة إلى مسلة غير مكتملة البناء ما زالت موجودة إلى الآن، وهي ضخمة جدًّا، ويمكن زيارتها في المحجر الفرعوني في أسوان. ويبلغ طولها ٤١ مترًا ووزنها ١١٧٠ طنًا. لا يزال هناك ٢٨ مسلة مصرية قائمة في العالم منها ثمانية فقط موجودة في مصر. المسلات الأخرى منتشرة في عدة دول منها باريس بفرنسا

وروما بإيطاليا ولندن ببريطانيا وتركيا والولايات المتحدة. أكبر مسلة مصرية في العالم توجد في الفاتيكان ارتفاعها ٣٢ مترًا. قال متعجبًا: هو عشق وشغف إذن! جميل أن يسعى الإنسان خلف ما يحب.

قلت: عودت نفسي أن أسعى خلف شغفي، إن لم يمس كبريائي.. كل ما ليس فيه روح لا يؤذي، شغفك خلف الأرواح يصيبك بالعجز فأنت في كل الأحوال مُلام، إن ضحيت فمطالب بالزيادة، إن أعطيت باستفاضة فأنت كريم تملك التفرد والقدرة على الاستغناء، إن قصرت فكل اللوم على تقصيرك، متحمل للذنب على أية حال، إن هجرت وإن اقتربت، وإن ترفعت، فالسخط الإنساني يلاحقك أينما تولي وجهك.. لكني لقيت في السعي خلف الأشياء شغفي، لقيته تعويضًا قد يكون غير كافٍ، لكنه معقول.

بقي ينظر لي حتى خجلت ونظرت صوب الأرض، ثم رفعت عيني قائلة: أريد قهوة.

نظر للمكان وكأنه أفاق من غفوة قائلًا: عفوًا، في أي الأماكن تحبين تناول القهوة؟

نظرت وعيني تلف المكان، قلت: هناك.

وأشرت إلى البرجولا، ضحك قائلًا: أهلًا بك، تفضلي.

كنت أريد التدقيق في البرجولا أكثر ولهذا قررت تناول القهوة هناك، كان يعاملني بلطف جم وكأنه رجل من زمن الذوق الجميل، شد لي المقعد وكأني في عالم آخر، أنظر لتصميم المكان المميز جدًّا واللوحة الزيتية الكبيرة على الجدار

وكأني أمام عبقرية فان جوخ أو عمق دافنشي.. جلس صوبي ينظر لي بابتسامة وبقيت أنظر له وأتعجب، قررت قطع خط الصمت فقلت: أنا...

قال: ليلى السعدي، أم ياسين.

أصابني الجزع والقلق: كيف عرفتني؟ (قلت مرتبكة).

- أعرفك منذ أكثر من ثلاثين عامًا، ربما أكثر، منذ مظاهرات دير ياسين ووقفات الجامعة، والصالونات الأدبية والسياسية. ثم تعرفت عليك أكثر بعد حادث استشهاد ياسين. أنا أعرف كل المشاغبين في كل ركن من هذا الوطن، وأعرف أيضًا أصحاب الأوجاع وذوات الفقد.

- مشاغبون أم صادقون؟ (قلت وأنا أراوغ النظر في عينيه ويراوغني).. وما حقيقة معرفتنا أكنا خونة كما صنفتمونا؟

سكت قليلًا ثم قال: بل كنتم الجانب الخير في الحياة وكنا الجانب الذي يعي أكثر أن الخير ليس حلًا في كل الأحوال. أنتم تتصورون الوطن جنة، ونحن نعي تمامًا أنه أرض، طين وتراب ورمال وحدود، حين تؤذن الحرب نلبي، وحين يغلبنا المنطق نغلب لكننا لا نهزم..

- وماذا نفعل في الثورة التي تتفتق من أرض تشقق طينها من فرط الجدب؟ (قلت بحدة).

- ليست الثورة في كل الأحوال حلًا. (قال اللواء ثم أكمل): أتدرين ما هي مشكلتكم؟ أنكم لا تعلمون! تتصورون السياسة هي بعض الشعارات التي ترفعونها بعد أن تحفظوها دون فهم.

ليلى ممتعضة: مطلقًا، لم نكن بهذا القدر من السذاجة، كنا أحرارًا بما يكفي، إما الحياة بعز وشرف دون تخبط أو تنازل، أو الموت.. الحياة تتنافى مع القهر سيادة اللواء، الحياة حرية، والحرية حق، جبن من تنازل عن حقه، خرج عن الدين من أخل بركائزه. إنسانيتي قراري، بقائي في قالب أرتضيه، حين تخلقون لنا قوالب معدة سلفًا، قوالب لا تناسبنا، ضيقة، رائحتها كريهة، ترابها الذل وأعمدتها الخنوع والانهزام، ما قيمة الحياة وهي سجن كبير! وحتى في السجن غير مسموح لنا التنقل، فقط الالتزام بمعايير السجان، وهل أعطى الله للسجان رخصة؟ من أعطى الحق لسجاني بتقييدي وجلدي واستباحة عمري؟ من أعطى، أجبني؟ من وضع قواعد السجن؟ من قال أنه أهل لذلك؟ من أقر له الصلاحية ومن أقر لي بالتابعية؟ خلقنا أحرارًا، لكن الأقوى يفرض قوته بمنطق الإجبار، والتحايل على الضعفاء حتى يجمع منهم ركائز يرتكز عليها في محاربة الأحق، منطق التعالي والتجبر شغف في نفوس المرضى سيدي الفاضل، غالبًا المجنون في واقع البشر يدعي أنه إله، أو أنه صاحب إلهام، ليس من الطبيعي أن يستعبد أحد غيره خاصةً لو أن له نفس الطبيعة والحقوق، نحن نسوق البهائم لأنها خلقت لنا.

نظر عميقًا لي ثم وقف قائلًا: ألم تشاهدي حديقتي! حديقتي فيها أندر النباتات والأشجار في العالم، تعالي شاهدي.

قمت متعجبة من تغييره الموضوع بهذه البساطة، ذهبت وقفت جواره، إنه أطول مني، قصيرة أنا إلى جواره وصغيرة، نظرت لقيتها جنة خضراء مقسمة بشكل بديع، وكأنها مصممة على يد أحسن خبراء العالم، أشار لي وأنا أنظر بانبهار، قال: في الجزء الأيمن من الحديقة نوعية النباتات المزروعة استرعت النمل، لم

يكـن ثمـة عـلاج يصلـح وكان الغـرس غاليًـا جـدًّا عنـدي، بـذور نـادرة جـدًّا، فلـم أجـرؤ عـلى حـرق الـزرع رغـم أن المهنـدس الزراعـي المسـئول نصحنـي بذلـك، بعـد أن تفـشى النمـل وانتـشر بشـكل مقلـق وخطـر عـلى كل نباتـات الحديقـة.. لم أسـتطع، وبالفعـل بـدأ النمـل يسـتشري في كل الأجـزاء.. الأغـرب أني ومـن عشـقي لهـذا الجـزء لم أقـو عـلى قـرار فيـه... حتـى فوجئـت بتفحـش الأمـر، وانتقـال مـن تَربـص النمـل لحـشرات أسـوأ؛ فقـررت أن أحـرق النباتـات حتـى لا أفقـد الـكل.. فقمـت مضطـرًا بذلـك، حتـى إنـك لـو دققـتِ النظـر سـتجدين آثـار الحريـق، ثـم قمـت بتغيـير نوعيـة النباتـات آسـفًا لكنـي حافظـت عـلى الـكل.. وحميـت مـا أملـك مـن اسـتخفاف الحـشرات.. لـو نزلـتِ الحديقـة سـتفاجئين بـشيء أسـعدني جـدًّا.

- قلت: ماذا؟

قـال: لقـد نبـت الـزرع النـادر الـذي حرقتـه، وقـرأت أنـه في حـال إنباتـه مـرة أخـرى لـن يصيبـه النمـل ولا مشـكلات النباتات.

نظـرت لـه فنظـر لي قائـلًا: التضحيـة حتـى يبقـى الوطـن، بقـاء الأرض أهـم.. سـتنبت مـرة أخـرى، المهـم ألا نفـرط في الأرض.

صمـت بعـد أن شـعرت أن الفـارق بيننـا كبـير، وأن كلًا منـا قـد يكـون عـلى حـق. وفي النهايـة الـكل يملـك مـبررات أمـام اللـه حـين يُسـأل عـن الظلـم يـوم القيامـة، ولا نـدري أي الأسـباب سـيرفضها اللـه وأي الأسـباب يقبلهـا.. نظـر وقـال: سـأطلب لـك قهـوة مضبوطـة.

أشرت بوجهـي بالموافقـة.. فغـادر وبقيـت أنظـر عـلى الجـزء المحـروق مـن الحديقـة

وأسأل نفسي: هل تستطيع السنون إخفاء آثار الحريق؟ تذكرت أني جئت لأجل خالد، كيف أخذني طول الوقت ونسيت «خالد». وضعت سيدة مسنة القهوة ونظرت لي قائلة: أهلًا بك. قلت: أهلًا بك.

ثم خرجت وهي تتحرك ببطء، وعاد اللواء، قال: تفضلي، اجسي لتناول القهوة.

جلست ثم قلت: أعتذر، سرقت وقت حضرتك دون أن أدري، نسيت تمامًا الأمر الذي جئت لأجله.

قال: نعود لخالد، خالد موقفه قوي، فقط هي مجموعة إجراءات، أنا معي له تسجيلات صوتية وأوراق تؤكد أنه كان طول الوقت يعمل لصالح الوطن، لا تخشي شيئًا، خالد صديق قديم لي.

نظرت وقد ظهرت عليّ علامات الاندهاش والتعجب، قال ضاحكًا: لا تتعجبي، يومًا ما يتحول العدو إلى صديق، شوفي يا ليلى، لو أمعنا النظر بين رجال الدولة والمعارضين سنجد أنهم على الخط ذاته يقفون على نفس المسافة من مصلحة الدولة، لكن تختلف الزوايا التي يرون بها الحقائق، اختلاف الزوايا هو من يصنع الخلاف..

قلت: أثق بذلك، أعلم أن قطع الطريق على التواصل الفكري بين مؤسسات الدولة والأفراد هو من يوسع دائرة الخلاف.

قال: نعم، صدقتِ جدًّا، هذه نقطة هامة.

قلت: عفوًا، أحب أن أرى «خالد»، هل يمكن أن تساعدني؟

قال ضاحكًا: رغم أنه سيكون حرًا بعد أيام، فإنني لا أحب أن أرفض لك طلبًا.

ابتسمت، قلت: شكرًا.

بقي ينظر لي بشكل أقلقني، لكني شعرت في عمق عينه برباط روحي يجمعنا، شعور غريب أن تجد أحدًا يشبهك، يحب ما تحب، يحمل شغفًا يضاهي شغفك، يروقه ما يروقك، رغم أنك حين لمحته من بعيد ظننته مخالفًا لك، حين تحمل الملامح القوية وداعة وسحرًا، ويخفي وراء الصرامة طيبة وإحسان، رجل من الزمن الجميل، كل ما في بيته يوحي بتفرده. قال: غدًا في التاسعة، في الأمن الوطني سأنتظرك.

عندما تهيأت للرحيل، قام معي، لم يتركني إلا عند باب الحديقة الخارجي، ثم أعطى أوامرًا للسائق بتوصيلي إلى الفندق بعدما علم مني أني مقيمة هناك. رحلت وصورته الغريبة لا تفارقني، كلاسيكية الأثاث، نوعية التحف، رقة الرسومات على الحائط المنمق، حتى النباتات في حديقته، غوْر عينيه وهيبته، لم أفق من هذياني إلا أمام الفندق، حين أيقظني السائق من كبوتي قائلًا: وصلنا يا مدام.

كنت أحتاج حجرة خاصة وسريرًا، كنت متعبة إلى أقصى حد، لكني قررت أن أتصل بيحيى أولًا حتى لا أتوه من نفسي في زخم الأحداث، رد سريعًا متلهفًا، كنت أحتضن الهاتف، أهدهد شوقًا بداخلي، حكيت له عن لقائي باللواء إبراهيم السفطي وأخبرته أني سأقابل «خالد» غدًا، أكد على أنه بحاجة لسماع صوته، وعدته أني سأتصل به فور وصولي لخالد، قمت بإجراء اتصال آخر، بالست نعمة أسألها عن سعد، قالت أنه بخير وهي أيضًا لكنها بحاجة لي جوارها، طمأنتني

عـن الشـباب وقالـت إن أحدهـم خـرج للتـو مـع أهلـه، وأنـه سُـمح لـه بذلـك ولم يتلـق أي أوامـر بـأن يعـاود الأمـن الوطنـي، وأن هـذا مبـشر بخـروج طـارق عـما قريـب، طمأنتهـا أكـثر، ورحـت أسـتكين حتـى الصبـاح، غـدًا سـأكمل المشـوار.

حـين اسـتيقظت صباحًـا، شـممت رائحـة البحـر قريبـة منـي، تذكـرت ياسـين حـين كنـا نقـضي معظـم الصيـف، نتنقـل مـن مـكان لآخـر، تذكـرت أن ياسـين كان طريقًـا يحفظنـي مـن أن أرتـد أو أيـأس، ياسـين كان بـشرًا، كثـيرون يعيشـون معـي، كان كل مـا أحتـاج، لهيـب فقـده يشـعل فيّ الحنـين إلى الرحيـل جـواره، مـاذا لـو كان معـي، لـو كان معـي الآن، لقمـت بعمـل السندوتشـات وأعـددت الشـاي ونزلنـا جـوار البحـر، نسـتظل بانعـكاس موجـه عـلى أرواحنـا.

تنهـدت، رحمـك اللـه يـا ولـدي، تناولـت الشـاي في الشرفـة المطلـة عـلى البحـر، حدثتنـي نفـسي مـاذا لـو أني لم أدُر في تلـك الدوامـة التـي قربـت عـلى سـتة أشـهر، كيـف سـيكون حـالي، لقـد كنـت عـلى حافـة الجنـون عندمـا فقـدت ياسـين، إنهـا حقًـا الحيـاة، يقبـع الهـم في نفوسـنا لا يفارقهـا، لكـن الحيـاة وأحداثهـا الجسـام قـد تأخذنـا في طريـق التغافـل والتجـاوز، ربمـا حمـل أثقـال مـن الوجـع تجعـل وطـأة وجـع آخـر أخـف، لكنـي في كل الحـالات أحمـل أثقـالًا فـوق الحلـم تميتـه، وأثقـالًا في القلـب لا تلـين. لم أعـد أدري إلا أنهـا رحلـة، قـد قربنـا جـدًا مـن محطـات الوصـول، علينـا أن نسـتعد للنـزول سريعًـا.

في مكتـب فخـم كان وصـولي الأخـير، لقـد تلقـاني الجميـع بالترحـاب والاهتـمام منـذ وصـولي المـكان، وكان الأغـرب هـو انبهـاري بحجـرة المكتـب، والأغـرب مـن الانبهـار تلـك الرائحـة التـي أعرفهـا جيـدًا.. قابلنـي مبتسـمًا، ملهوفًـا، عينـاه تحدثاننـي بـشيء

لا أفهمه، يعاملني معاملة الملوك للأميرات.. طلب لي قهوتي، ثم سألني عن حالي وعن قصة سامر ووالدته؛ فحكيت له وقد بدا توتري، فاعتذر أنه جدد الحزن عندي، وحكى كم هي مأساة، وأن الجميع متألم، وجدني أنظر في ساعتي؛ فاعتذر قائلًا: «ثواني وخالد هيكون موجود».

ثم همّ بالخروج.. وبالفعل بعد أقل من دقيقة دخل خالد، وقفت لاستقباله، بدا شاحبًا، قابلني صامتًا لكن كل قسماته تتحدث لقلبي، قرأت اشتياقه حين مد يده ليسلم عليّ، تلاحقني أنفاسي ويهزمني ارتجافي، ما بيننا غريب لا تفسير له ولا معنى ملائم، تهجى في عيني الحيرة، وللمت من نظرته الحسرة، لحظات والكلام صامت في فمي، والمعنى يتلعثم في ارتجافي، لا ندري أمر الوقت بنا أم أننا طوفنا بالزمان وعدنا.. رجعت قليلًا للوراء وأنا أقهر سخفي وضعفي: كيف أنت؟

قال وهو يخفى لوعة: لست بخير..

- ماذا بك؟ (أجبت منزعجة).

قال: تعودت قربك، ومن يتعود قربك كيف يبقى دونك؟

قلت: خشيت أن أحدًا قد يؤذيك هنا.

قال: لا، اطمئني. قريبًا سأخرج من هنا، فقط تحقيقات في القديم والجديد.. الذي يعقد الأمر هو إصراري أن يخرج الشباب قبلي..

- وماذا عنهم؟

- يتم الاستعلام عنهم بدقة متناهية، من تتأكد براءته، سيخرج معي، والباقي سيُعرض على المحكمة، أنا الآن أحاول أن أتمسك بهم جميعًا. وأحاول أن تتم

لهم مراجعات فكرية وعقائدية، الأمر ليس سهلًا. رغم أنه قد تمت المراجعات الفكرية قبل ذلك للجماعة الإسلامية وتم إخراجهم من السجون.

قال: تعالي، لماذا نتحدث ونحن هكذا؟ هيا اجلسي.

فاجأته بصوت يحيى عبر الهاتف ففرح وتحدث إليه بصوت عالٍ، كل مشاعر خالد بدت في دموع حاول إخفاءها لكنه في النهاية وعده أن يلقاه قريبًا. أخذت منه الهاتف ولم يهدأ روعه قطّ، كل مشاعر السعادة لخبر براءة يحيى جعلته في حالة من الغرابة والتوتر، حين سألته قال: ليته هنا الآن.

قمت بإخراج الحقيبة السوداء التي قال لي سامر إنها تخص «خالد»، أعطيته الأمانة وحدثته بحديث سامر قبل وفاته، قلت له: بها خطاب وأوراق لك كما قال لي. وقد أعطاني خطابين أحدهما لأمه والآخر لأخته فقمت بتسليمهما لأخته قبل أن ترحل.

جذبنا الحديث يمينًا ويسارًا عن سعد وطارق وإيمان، وعني، كان اللواء إبراهيم كريمًا معنا إلى أقصى حد، تركنا ساعة كاملة نتحدث، ثم جاء يحاول طمأنتي قبل أن أغادر أنها أيام وسينتهي كل شيء.. غادرت وأنا أشعر بالرضا والسكينة، أرى دوائر مغلقة تتفتح أمامي، لست الخاسرة الوحيدة في جنبات هذا الوطن، في المستشفى كانت الست نعمة تطعم «سعد».. وإيمان ذات وجه بشوش لأول مرة، جلسنا نتناول الغداء معًا.

بقيت أنظر خلسة لوجه إيمان الجميل، هي لا تعلم كيف كانت قبل ذلك، تدريجيًا قد تتخلص من عبء زهران النفسي، دخل سالم، قمت بدعوته للطعام

وأصرت الست نعمة، سالم هو الشاب الثالث، دخل يتعكز على عكاز من المعدن، شاب خلوق، أسمر، لهجته جنوبية، صغير في السن ربما في العشرين. أفسحت له مكانًا، قلت له: تعال جواري.

ضحك لي، ركن عكازه وساعدته أنا وإيمان في الجلوس، بدأت أعطي له الطعام، وأسأله عن حاله، قال: بخير.

بعد أن انتهى قلت له: أتريد شيئًا؟

قال: نعم، «تطلبي شاي تجيل لو تسمحي يا هانم». (باللهجة الصعيدية).. «من حين ما دخلت المستشفى لا حدا راضي يجيب لي شاي».

قلت له: حاضر، «نعمل شاي تجيل».

وضحك كثيرًا وكأنه يألف جو الصحبة والأهل، حين قام لغرفته طلبت من إيمان أن تساعده، بالفعل قامت معه، وسألت الست نعمة عن ظروفه، قالت: صعيدي هارب من الثأر، هارب من الموت إلى موت أبشع.

- ياه! (قلت وأنا متألمة).

أكملتْ: «في محاولة هروبه من الجنوب للشمال يا دوب وصل للمكان دا حس انه الأمن، كان بيقول كدا دايمًا حتى لما اتأكد ان الجماعة دي مشبوهة قال معنديش حل تاني».

قلت لها: ما عدت أود أن أسمع، أتعبتني ظروف البشر تلك التي تلقيهم في فوهة الوجع وتقول: الشاطر من يلحق بالحظ.. كيف ينجو هؤلاء! إذا كان الأهل قتلة، والأرض نافرة من أرواحهم، والمكائد مدبرة سلفًا.. رغم أني ما عدت أرغب

في التوغـل في مزيـد مـن المـآسي فإننـي أود أن أرى الشـاب الرابـع المصـاب.

قالت: عيسى؟

قلت لها: اسمه عيسى؟

ضحكت قائلة: نعم.

- ولماذا تضحكين هكذا؟

قالت: «لأن حالة عيسى من أغرب الحالات اللي ممكن تشوفيها»...

- كيف؟ (سألت بتعجب).

قالت: عيسى مسيحي.

- نعم! ماذا تقولين؟ (سألت بتعجب).

قالت: «آه والله زي ما بقولك كدا».

- مسـيحي! ومـا الـذي جعلـه ينضـم لهـؤلاء؟ معظـم مـن انضمـوا خدعـوا باسـم الديـن، لكـن كيـف خـدع عيـسى؟

نعمة: لا أعرف، هو يقول كلامًا أكبر من عقلي.

- أحتاج الذهاب إليه. (قلت وكلي فضول).

نعمة: «ما بلاش احسن كفاياك تعب».

- لا لا، الفضول يقتلني، كم رقم غرفته؟

- ثالث غرفة على الشمال.

- ما هي إصابته؟

- رصاصة في ذراعه اليمنى، لكنه الآن بخير.

قمت سريعًا قبل أن أفكر في الأمر وأتردد، طرقت باب الغرفة، لا أحد يرد، استعنت بالممرضة المختصة، طرقت الباب ثم فتحته، قالت له: «عيسى، زيارة عشانك، مدام ليلى تسأل عنك».

دخلت، قلت: كيف حالك؟

قال: وعليك السلام!

قلت: أحرجتني، علمت أنك لست مسلمًا.

قال: وما ضير السلام في ذلك؟

قلت: السلام عليك.

فضحك قائلًا: تفضلي.

جلست جواره في مقعد جانبي، قلت: كيف حالك؟

قال: أنا بخير، أنتظر الشيخ خالد لأرحل معه.

قلت: قريبًا إن شاء الله. عذرًا، أنا كنت معكم هناك، أتعرفني؟

- سمعت عنك، علمت أنك سيدة خلوقة، علمت أنك آخر من كان مع سامر قبل موته، كنت أتمنى أن أقابلك لتحكي لي عن آخر لحظات سامر في الحياة.

- يؤلمني التذكر، كان الأمر فوق احتمالي، لا يقل فجاجة وقسوة عن موت

ياسـين.

- من ياسين؟

- ابني توفي في حادث إرهابي.

- البقاء لله، كلنا معك.

- الحمـد للـه... (قلـت وأنـا أخفـي دمعـي، الـذي يسـيل حينـما أذكـر اسـم ياسـين). عفـوًا، جئـت متعجبـة حينـما علمـت ديانتـك.

- ما ديانتي؟ أنا الآن ما عدت أدرى إلى أي دين أنتمي!

- ماذا؟ لا أفهم!

- أنـا أومـن باللـه.. للكـون إلـه لكنـي في وسـط الديانـات حائـر، لا أجـد قناعتـي بـين أيٍّ مـن الأديـان.

- كيف، حدثني عن أفكارك أكثر؟

- حـاضر، ولـدت مسـيحيًا أرثوذوكسـيًا، لم أعِ الفـرق بـين الأرثوذوكـس ولا الكاثوليـك ولا البروتسـتانت إلا عندمـا قمـت بدراسـة الأديـان، بعـد أن التحقـت بكليـة الاقتصـاد والعلـوم السياسـية، ثـم شـدني الأمـر فبـدأت أبحـث عـن كتـب، في تلـك الأثنـاء كانـت تحـدث بـين الحـين والآخـر مشـكلات بـين الكنيسـة الأرثوذوكسـية والإنجيليـة تصـل لحـد التكفـير، شـدني الموضـوع، بـدأت أتابـع مـن كثـب، لقيـت الأمـر شـتاتًا، فـارق كبـير بـين كل طائفـة والأخـرى، حـاول أهـلي في بدايـة الأمـر أن يبعـدوني عـن التنقيـب خلـف الخلافـات وأسـبابها القديمـة وفلسـفة وعقيـدة كل طائفـة، كان كل مـا يخيفهـم أن أتـرك

طائفتي المتشددة، وأصير بروتستانتيًا أو كاثوليكيًا.

بدأوا يحاربونني، أحرقوا كتب مارتن لوثر التي اقتنيتها وكان هو أول من دعا إلى التقرب من اليهود، وكنت أكرهه جدًّا، فمصطلح الصهيونية المسيحية بدأ على يده، حينما حاول أن يستدعي اليهود إلى المسيحية، لكنه جر المسيحيين إلى التهويد دون قصد. فدعا في آخر حياته لطرد اليهود من ألمانيا وألف كتابًا اسمه: «عن أكاذيب اليهود». حتى إنهم رفضوا سفري لأمريكا، رغم الفرصة الكبيرة التي أتتني، فرصة عملية كبيرة في استكمال مستقبلي، كل ما كان يخيفهم أن أغير طائفتي، وقد تعلمين أن المذهب البروتستانتي منتشر في أمريكا ودول الغرب، حينها بدأت ثورتي، بقيت أطلب من أهلي أن يعطوني مساحة للمطالعة والتعرف على ديني أكثر، قابلوني بالقهر، قاموا بتزويجي غصبًا من امرأة لا أطيقها ولم أقربها، وفررت أبحث عن نفسي بعيدًا عنهم، تركت الإسكندرية ومررت ببلدان عدة، استأجرت مكانًا في كل بلد أقمت فيها، وكلما علمت أنهم على مقربة مني هربت منهم لبلدة أخرى.

كنت أعمل وأشتري الكتب، وكلما قرأت في عقيدة الطوائف ازددت حيرة، تقربت من المسلمين وارتحت إليهم ودخلت مساجدهم، وقمت بقراءة كتب في التفسير، شعرت أني لقيت نفسي، كنت ساعتها في العريش وعندما علمت أن أهلي على مقربة مني فررت مع صديق إلى المكان الذي تعلمين، كنت سعيدًا في بداية الأمر وأعلنت إسلامي لكني سريعًا حدث لي التشتت الحادث من ذي قبل حينما رأيت التفاوت الفكري بين شيخ وآخر، الشيخ خالد ورجاحته.. وزهران وعنفه، الدروس التي كانت تدعو إلى القتل والعنف والتدمير والعداء.

أصابني الإحباط.. حتى حدثت ربي أني أومن به لكني في حاجة إلى دين يريحني، طريق يُصلح للإنسانية، وكان اضطرابي منطقيًا ورأيت بعيني ما حدث.

***

بقيت أنظر له صامتة فترة.. حتى تعجب وسألني ما بي!

قلت: انتقم الله ممن أساءوا للدين، انتقم الله من كل من وضع بذور الفتنة، انتقم الله من المتآمرين والخونة وعملائهم..

استكملت: ما رأيتَ ليس إسلامًا.. إنه حرب على الإسلام، حتى يُشوه. الإسلام سلام روحي قبل أن يكون عقيدة، الإسلام دين الاتفاق مع الفطرة والمبادئ الإنسانية.. مع الطبيعة، مع أصوله.. لا خلاف في الإسلام ولا اختلاف ولا طوائف.. بيت الله مسجد تعلو فيه كلمته، الكتاب هو الحق المبين، لا تنافر فيه ولا تحريف، نحن أصحاب المبدأ الوحيد والعقيدة الوحيدة.. أتدري ماذا كان يحدث هناك؟ في المكان الذي كنت فيه، إنها الحرب، الحرب على الحق، على النور، إسدال ستار العتمة حتى تظلم الإنسانية، ويسود الضلال.. أنا أعرف أني لن أستطيع إقناعك بكلامي هذا، لكني سأهديك القرآن وكتبًا في السنة، اقرأ كما تحب، لن تحجب عنك الحقيقة بل بالعكس سأهبك كتبًا عليها خلاف وفض أنت الاشتباك مع ذاتك.

صمتٌ وصمتَ، ثم قلت: أتدري؟ أنت كنت في عراك سياسي ليس دينيًا، كنت تجلس في ساحة هتك وهدر للصواب، كنت تقبع فوق قنبلة موقوتة والله أكرمك بالسلامة... هي حرب ليست معلنة، حرب باردة، حرب ترتدي ثوب السلام تصب

كلها في حقل مارتن لوثر حين استجاب لرؤيته وصنع المسيحية الصهيونية.. أو الصهيونية المسيحية ليس من فارق كبير بين الاثنتين، لكن من يعلم أن مارتن لوثر أخطأ في حق البشرية خطأً كبيرًا وأعلن ذلك في كتابه «عن اليهود وأكاذيبهم» عام ١٥٤٣، اليهود أصحاب عقيدة، ونحن أصحاب عقيدة، لكن أصحاب سماحة تنقصنا الحنكة ومعرفة تاريخهم المؤرخ في كتابنا الكريم، نحن نتغاضى عن حقيقتهم التي أخبرنا عنها الكتاب.. هما يعدون لحلم قديم، لا يعتبرون السنين، ولا يتوقفون عن الحلم، وكان مارتن لوثر هو السبب وراء وقوف العالم الغربي المسيحي في تعداد حارسي الحلم اليهودي.. لكنه ندم وأهانهم في كتابه ونعتهم بأقذر الصفات، حتى إنه محا عنهم كونهم بشرًا، ما رأيته ليس الإسلام لكنه جزء من المؤامرة عليه.

قال: أتمنى مواصلة الحياة بشكل أفضل، شكل يرضيني، أتمنى أن أجد في كنف البقاء يقينًا.

قلت: ستجده، لن نتركك، ابق معنا، سنخرج معًا.

ابتسم واستأذنت منه وغادرت مؤرقة.. نحن لا ندفع الدماء ولا الأرواح فقط ثمن الغدر، نحن ندفع العقيدة، نخسر آخر معاقلنا، لا لشيء، فقط نحن السُذج الغافلون... حين لقتني نعمة أحدث نفسي، طلبت أن أبقى معها، قلت: سأحدثك لاحقًا.

شعرت أني بحاجة للوحدة أو أن الوحدة في حاجة لصمتي، فذهبت إلى الفندق، لزمت غرفتي.. قضيت أيامًا بين البحر والفندق وأحيانًا المستشفى، سمة تلك الأيام كانت الاسترجاع، صمت وذكريات بين أحضان موج العريش الهادئ المميز، أوجاع لا تخلف لي سوى الدموع، وذاكرة تحمل لحظات في ثناياها عمر بعيد،

حين كنا صغارًا تعبث في كفوفنا الأماني، وتمرح على وجوهنا الضحكات، حين كنا نلعب في الساحة خلف الدار، أو حين نقعد تحت تكعيبة العنب أمام الدار، وحمزة حين كان يعارك طيور أمي فتلقفه بما في يدها، كان يحيى يقول لها دائمًا: الطيور عندك أغلى منا يا أمي.

أمي رحمها الله، كانت تمرض حين يمرض الدجاج، وألحظها وهي تدعو له حين تنهي صلاتها: «يا رب متخسرنيش في تعبي أبدًا». كانت تصحو قبل الجميع لتطعم الطيور، وتنظف لهم المكان، يومًا ما جلسنا حولها أنا وجمال ويحيى وحولنا الطيور، فسألها جمال: أمي، لماذا كل هذه الدقة وأنتِ تطعمين الطيور؟

وهو يتحدث ساخرًا ويحيى جواره يتقلب من الضحك، وبقي يلح ويسألها: لمَ طعامنا لا يستغرق لحظات وطعام الطيور ساعات؟

وأنا حينها كدت أجن من الحوار، ومن كمية اللكمات التي أخذها من أمي، هذا غير كمية التجاوز اللفظي مثل: «امشي يا واد دا انت بتاكل الفرخة لوحدك».

وقد كان جمال يحب الأكل كثيرًا، حتى إنه كان أبدننا.. تتقلب ذاكرتي حين قال لها أبي: لماذا لم ينضج الأرز؟

قالت له: ماذا أفعل؟ كنت أعد طعام الطيور، معدتنا تهضم لكن الطيور لا.

كانت حينما تغضب منا تجلس جوار بيوت الدجاج والبط بالساعات، وكأنها تحكي لهم أوجاعها، وكانت حينما تدخل البيت تكون قد تناست جل همومها وعادت بوجه جديد.. بعد أن تشبعت من الضحك، حين تذكرت حياتي القديمة لقيتني أبكي بل أغرق في طوفان من الدموع، الغريب أني لم ألحظ الناس حولي،

وقد بدا على البعض علامات الدهشة؛ فكيف امرأة تضحك وتحدث نفسها بصوت عالٍ، وكيف تبكي وهي على قيد الضحك. وهل هناك متسع للضحك؟ ولمَ لا؟

من الشرفة الصغيرة ترى البراح الكبير، ولمَ خُلق البراح إن لم نطف في رحابه، وعلام يحتلنا اليأس ونحن نملك متسعًا، ربما نُضيق نحن على أنفسنا! علّ إدراكنا للواقع هو إدراك منقوص، وتصورنا للحياة هو تصور عارٍ من الحقيقة، وما هي الحقيقة؟ الحقيقة أنها دنيا ليست جنة، هي اختبار، والاختبار شرطه جهد مبذول حتى يكون منطقيًا على الأرجح، والجهد عطاء، همة وصلابة وتفانٍ ومواجهة لمستجدات مباغتة، صدمات في تجاوزها بقاء، والارتطام بها نكسة قد تميت وقد تسبب يأسًا..

نعم، إنه ما حدث لنا، ارتطمنا فوقعنا، وهبنا للوجع فرصة القيادة وللهزائم ادّعاء النصر.. نحتاج إعادة نظر، ورؤية أوسع لمفهوم الدنيا، حتى نتقن التعامل معها، كل صعب يهون لو أدركنا معناه الحقيقي.. فقط علينا أن نصوب قلوبنا تجاه المصير، تجاه الوصول، عند أعتاب الغاية سنتحرر من الصغائر التي اتسعت في إدراكنا المنقوص.. فأعطينا لها فوق ما تستحق، لماذا تشغلنا الخطوات وهي مجرد وسيلة؟ ولماذا نصعب الأحداث وهي قدرية وإن كان أقساها الفراق، ولمَ أقساها إن كان المفارق سبقنا إلى المستقر! علينا أن نصفق له فقد اجتاز على خير وفاز بالهدوء قبلنا..

وماذا لو أنه فارق اختيارًا، وهل نملك في التعلق إجبارًا؟! أي قرب نبت من شفقة فالمسافات أولى به، ليس في العشق مسئولية وعقود مبرمة واتفاقات مسبقة،

لكـن في الوصـل حيـاة وفي الجفـاء مـوت ولا أحـد يختـار موتـه، هـي حقائـق موجـودة لكنـا نفقـد إدراكهـا أو نتغافـل، حتـى نسـتعذب الحـسرة ونعلـن دومًـا أننـا قيـد الهزائـم والظلـم لا نملـك إلا الخضـوع.

الفصل السادس عشر

دق الهاتـف، جريـت بـكل قـوة، منـذ أسـابيع وأنـا أنتظـر رنـة الهاتـف: خالـد! أهـلًا خالـد طمئني...

بكامل لهفة تحدثت إليه، قال: أنا بخير، ترددت في الاتصال بك.

- كيف تتردد في التواصل معي؟! قلقت عليك.

- أنا بخير، قمت بفتح الحقيبة السوداء.

- أية حقيبة؟

- حقيبة سامر.

- وماذا وجدت؟

- أوراقًا تؤكد ما توصلنا إليه، لكن بين الأوراق رحمة ونكبة

- ماذا؟ كيف رحمة ونكبة؟

- النكبة خبر لست أدري إن كان مسموحًا لي أن أقوله لك أم لا؟

- أخبرني.

- تخيلي المزرعة الكبيرة التي كنا بها ملك مَن؟

- لا أدري، وكيف لي أن أعرف؟

- وجدت أوراقًا تخص صاحبها في حقيبة سامر.

- أوراق ملكية؟

- لا، هـذه المناطـق لا تُملّـك، فقـط أوراق تثبـت أنهـا تخـص شـخصًا نعرفـه، قـام بوضـع يـده عليهـا منـذ أكـثر مـن عشريـن سـنة، وقـام بزراعتهـا كـما شـاهدتِ.

- أكيد، إنه شخص يفهم في النباتات جيدًا، المكان مذهل!

- نعم، هو متخصص!

- مَن هو؟

- والد زوجة أخيك.

- من؟ زوجة من تقصد؟ المستشار سعيد العلمي؟

- لا، زوجة يحيى..

- ماذا تقول؟ لا أصدق، إنه شخص خير جدًّا.

- لا أحـد يعلـم حقيقـة الأمـر، الأمـر قيـد التحقيـق وأعتقـد أنـه تـم اسـتدعاؤه، ربـما هـي ملكـه وتـم تأجيرهـا لآخريـن، ربـما مـدان، لا أحـد يعلـم!

- كيـف لم ألاحـظ؟ هـو أسـتاذ في كليـة الزراعـة ومهتـم جـدًّا بالنباتـات. ومـا الأمـر الثـاني؟

- لك خطاب من ياسين.

- خالد، ماذا بك؟ آه، نسيت أنك في السجن!

- حقيقي ما أقوله لك.

- ماذا؟ (قلت بتوتر)..

- تعالي يا ليلى، حدثي سيادة اللواء إبراهيم السفطي وتعالي غدًا.

- تحدث يا خالد، كيف خطاب؟ ابني مازال حيًا؟

صمت خالد.

- أسرع يا خالد، تحدث.

- هو يحيا في السماء يرزق، لكنه خطاب خطه لك قبل وفاته بلحظات، وقد كان أعطاه لسامر.. في الحقيبة وجدت ورقة فيها معلومات عن موت ياسين، سنقتص يا ليلى.

- نقتص ممَّن؟

- من زهران وزبانيته.

- وهل هؤلاء من قتلوا الملايين في الوطن العربي باسم الدين؟

- سنبدأ بهؤلاء، قد نصل.

- وقد نضل!

- ربما نضل، لكن من المؤكد سيصل آخرون.. للأمر نهاية.

- متى، بعد أن ندفع الثمن؟

- ومَن في الحياة لم يدفع ثمنًا يا ليلى! ربما نستطيع كشف المؤامرة عن قريب.

- المؤامرة يسهل الكشف عنها لو كانت ممّن ضدنا، لكنها من ذوينا.. تآمرنا

عـلى بعضنـا يـا خالـد.

- ستأتي غدًا؟

- نعم.

- سأنتظرك.

حقيبـة سـوداء وسـامر وشـبكة لا يُعـرف أولهـا مـن آخرهـا، ما بـين الأمـوات والأحياء تختفـي الحقائـق وتظهـر، القضيـة أكـبر منـا عـلى أيـة حـال، علينـا أن نعـترف. تـرى ماذا كتـب لي ياسـين، أتصـوره يحدثنـي عـن طفولتـه، يذكـرني بـه حـين كان يغضـب منـي، فيـترك حجـرتي ويهـددني بـأن أبقـى بمفـردي، فـلا يسـتطيع، وأجـده جـواري صباحًـا، أم تـراه يتحـدث عـن سـلمى، حـين كنـت ألمحـه وهـو يحـدق فيهـا مـن النافـذة هائمًـا دون أن يـدري بي، فـكان يخجـل ويثـور ثـورة صبـي يخـشى أن يفتضـح أمـره. أم يحدثنـي عـن والـده، ذاك الرجـل الـذي حرقنـي في النـار مـرات وفي كل مـرة أخـرج منهـا يلقينـي فيهـا مـرة أخـرى، لم أكـن أسـعى سـوى للخـلاص منـه، لكنـه ربطنـي بطفـلي، وقـد كان أجمـل مـا وهبتنـي الحيـاة.

ثـم دمـره معـي، كأنـه ينتقـم منـا حـين كنـا نضحـك، حـين كنـا نخـرج مـن تحـت قبضـة حزنـه، إنهـا غلطتـي، كان عـليّ أن أفـر بابنـي وأهـرب مـن سـطوه، أهـرب مـن رجـل مريـض معـاق نفسـيًا، كيـف لم ألحـظ مرضـه، لم يكـن طبيعيًـا معـي ولا مـع ابنـه قـطّ، مـا رأيتـه سـعيدًا بـه قـطّ، فقـط حـين مـات وقبـل أن يمـوت هـو أسـقط الدمعـات القليـلات في حياتـه، ولا أدري أهـي دمـوع وجـع، أم دمـوع نـدم... لـو أني بقيـت أفكـر فيـما مـضى سـأقتل نفـسي، فأنـا مشـاركة بجبنـي وانسـحابي في قتـل ياسـين. أنـا مـن

أذيت نفسي حين ضاقت الدنيا عليّ بعد رحيل خالد؛ فبدلًا من أُوجه ضربة قاضية لخالد بزواجي، وجهت خيبة ملأت سنين عمري ألمًا..

سريعًا مسكت الهاتف، تحدثت إلى اللواء إبراهيم، الذي لم يخذلني مطلقًا. وافق على الفور بأن أزور «خالد» غدًا. وأكد لي أنها أيام وينتهي كل شيء ونعود مع خالد إلى بيوتنا سالمين. قمت وذهبت للمستشفى. تماثل الشباب جميعهم للشفاء، أيام قليلة وسيحتاجون قرارًا مصيريًا يغير حياتهم، عليّ أن أتذكر غدًا أن أتحدث لخالد في هذا الأمر، لربما نحتاج مكانًا هنا يجمعنا لحين نفرغ من قضايا الشباب المعلقة، في حجرة سعد سرني أني لقيتهم جميعًا، سالم وعيسى وسعد وإيمان، سمعت ضحكاتهم وأنا على السلم، دخلت مبتسمة، قالت نعمة: «تعالي تعالي، اسمعي سالم بيقول إيه»..

- أهلًا يا جماعة. (قلت وأنا فرحة بحالهم، وتغيرهم للأحسن).. ماذا كنت تقول يا سالم؟

قال: «كنت أحكي عن عاداتنا وتجاليدنا في الصعيد».

قلت: «خلاص يا سالم أنتم بقيتوا متحررين اكتر مننا!»

قال: «لا يا أبلة انت فاهمة غلط، مناطج مناطج».

- «تقصد مناطق مناطق، بلاش صعيدي يا سالم عشان أفهم، لكن ازاي؟»

قال: «فيه عائلات متمدنة متفتحة وعائلات لسة زي زمان، يعني مثلًا أخويا اتجوز واحدة مشفهاش إلا يوم الفرح».

- معقولة؟

- «آه والله زي ما بجولك يا أبلة، بت من عيلة كبيرة واتجدمنا ورفضوا أنه يشوفها، أبويا أصر يكمل الجوازة».

- «وطلعت ازاي؟»

- «حجيجي معرفش، بس اخويا من يومها لا عاد بيضحك ولا بيتكلم، طول الوقت ماشي وخلاص».

ارتفعت ضحكات الموجودين، وأنا منهم، سالم شاب عشريني ضحوك، كل ما فيه يشع بالمرح، حاولت أن أتوقف عن الضحك وأسأله:

- «احكي لي ليه هربت وجيت هنا يا سالم؟»

توقف عن الضحك فجأة، ثم قال:

- «أنا كدا كدا ميت، أنا هارب بعدما ودعت أهلي، أنا اكتر حد بر بأهله، أهلي هما اللي مشوني، قالوا: ابعد على قد ما تقدر، رُحت أودع أمي بعدما لميت خلجاتي لجيتها في سريرها بتبكي. قالت: اسندني، جعدتها على السرير، جالت ابعد كل ما تبعد جلبي يرضى عليك، وفضلت ابكي وهي تبكي، كان نفسي أعيش في حضنها، وجنب اخويا، اخويا مهدد بردو، بس انا العين عليا، اخوالي ادوني فلوس ومشوني من البلد، هربت من الناس اللي كانت بتحرسني ورُحت جبر أبويا بكيت كتير».

قلت وأنا في أشد حالات الألم: أمات والدك بنفس الطريقة؟

قال: «مات بعدما جتل تلاتة من بيت واحد، جتلوه».

قلت: «فين القعدات العرفية، فين الناس عندكم؟»

قال: «من ساعة من اتولدت واحنا في الدوامة دي لا عيلة أبويا بتلين ولا العيلة التانية بتهدي، من يوم ميلادي وأنا ماشي بحرس، وفي أضيج الحدود، مكنتش زي أي طفل بيروح المدرسة كنت بتعلم في البيت، أنا مكملتش الجامعة أنا في سنة تانية كلية تجارة، كانوا عايزين من عندنا تلات أرواح زي اللي خدهم أبويا خدوا روح لسه اتنين، أنا واخويا.. بعد جلسات عرفية كتيرة دفعنا نصف ثروتنا عشان يتنازلوا، بعد وفاة أبويا كل اللي قدرنا عليه اننا ندفع تمن روح اخويا اللي عنده أولاد، عشان كدا هو هناك وأنا هنا.. لكن قالوا لو مظهرتش هيجتلوا أخويا، أنا مش زعلان أني هنا، ولا زعلان أني معرض للسجن، كل دا أهون من دوامة الموت اللي عشتها من يوم ميلادي.. أنا مش شايف ان دا عذاب، على الأجل انا لو مت هنا أو في المزرعة هموت شهيد، أنا مليش ذنب في حاجة، لكن لو مت هناك بالتار، هيموت بسببي آلاف، إلى يوم الدين.. أنا عايز ادنى بعيد.. نفسي بس اكلم أمي وأطمن عليها هي وأخويا».

لم أتكلم، أحوال الناس في الدنيا قهر في قهر.. نظرت له بعد لحظات صمت قائلة: ربما تجد نفسك بيننا يا سالم، لا تخش شيئًا.

نظرت لإيمان قائلة: قد تكون سعادتك أمامك ويكون في كل ما حدث الخير لك.

طأطأت إيمان رأسها، وكنت قد لاحظت شغفًا جمعها بسالم. قالت نعمة: متى سنرحل من هنا؟

قلت لها: أيام قليلة إن شاء الله.

قال عيسى: أنا لا أريد أن أكون عبئًا على أحد.

قلت: نحن سنكون عبئًا عليك.

قال: كيف؟

- ستعرف، فقط الآن اقرأ في هذه الكتب..

أعطيته القرآن وتفسير الطبري، استكملت: حينما نعود عندي مكتبة زاخرة عامرة بكتب التفاسير والسنة سأتركها لك، لكن بشرط..

قال: ماذا؟

قلت: تخرج لي بدراسة عن السلم في الإسلام، وهذه هي البداية.

قال: وماذا بعد البداية؟

قلت: دراسة أخرى عن الإرهاب وبدايته وكيفية مواجهته، وأعدك ألا أتركك إلا بعد وصولك لما تريد.

ابتسم، وكأن أضلعه اتسعت، قالت نعمة: وطارق، هل سيأتي معي؟

قلت: سأعمل ما في وسعي، لا تخافي نعمة...

تركتهم وهم أحياء، كلٌّ يحلم بالغد الذي وعدته به، وأنا أيضًا عرفت معنى الراحة حتى لو كانت مؤقتة، راحة الإنسان تكمن في العطاء، في المحاولة، في بناء شخص تهدم، وزرع أمل جديد داخله، وجوههم الألقة تشع حياة، أمني نفسي بعمر جديد أكون فيه أقوى، حتى إنني بعده لن أهزم أبدًا... رن الهاتف،

شاهدت عبر الشاشة الاسم، مصطفى، مسكت الهاتف وتوقفت عن سيري، ماذا أقول لمصطفى حين يسألني عن عزيز، توقف الجرس، ثم رن مرة أخرى..

- مصطفى، أهلًا. (قلت بقلق).

قال: أهلًا بك ست ليلى، كيف حالك؟

- أنا بخير مصطفى.

- سمعت خبر ما حصل في المزرعة، أمي قلقة على عزيز، قلت لها هو مع الست ليلى لا تخافي.

- عزيز وكل مَن كان في المزرعة متحفظ عليه.

- ماذا؟ أخي لا ذنب له.

- لا تقلق، هو أمانة معي لن أتركه.. لن أرحل من هنا إلا وهو معي.

- ماذا عليّ فعله، وماذا أقول لأمي؟

- لا تقل شيئًا ولا تفعل شيئًا، أعطني أسبوعًا فقط وسينتهي كل شيء، لا تقلق، رجاءً مصطفى طمئن والدتك، قل لها كل شيء على ما يرام.

- أمرك ست ليلى، سأتصل بك لاحقًا.

- مع السلامة.

أغلقت الهاتف وكلي حيرة وتوتر، ماذا أفعل؟ الأمر أكبر مني، سريعًا تذكرته، اللواء إبراهيم السفطي، اتصلت عليه.

- أهلًا بك ليلى، كيف حالك؟

- أنا بخير، أحتاج التحدث معك في أمر هام.

- مرحبًا بك في أي وقت.

- أستطيع أن آخذ من وقتك دقائق؟

- ساعات لو تحبين.

- ربما أعطلك عن شيء.

- أبدًا، في انتظارك.

ركبت تاكسي وذهبت إلى فيلا اللواء، استقبلني الحارس لكنه لم يدخل بي هذه المرة إلى حجرة المكتب، أخذني إلى الناحية الشرقية من الحديقة التي اكتشفت أنها على مساحة كبيرة جدًّا، مرورًا بحمام سباحة على الطراز القديم، ثم برجولات خشبية، وفي نهاية الحديقة ملحق خشبي كبيت صغير به مجموعات من مقاعد، وكل ما فيها أرابيسك ملون بلون الخشب الفاتح والغامق، كل الجوانب فيها أشكال متنوعة من النباتات المتسلقة، منها الذي يطرح زهرًا ومنها الذي لا يطرح، مكان جميل يوحي بالشاعرية، على مقعد وثير دعاني للجلوس، أمامه منضدة بها أنواع من المكسرات والشكولاتة في علب بديعة المنظر. قلت: عندما آتي إلى هنا أشعر براحة غريبة، أنسى كل أرقي.

- ولمَ أنتِ مؤرقة؟

- أثقال أتحملها بصعوبة.

- ماذا؟ أنا هنا لأخفف أثقالك.

- أولًا، الشباب أغلبهم بل ربما جميعهم تعرض لضغوط ساقته إلى المزرعة، الشباب يحتاجون الرحمة.

- من قال لك أننا سنزج بهم في السجون، نحن نحقق في الأمر بعض الوقت، هذا هو ما نحتاجه.

- وعزيز؟

- من عزيز؟

- هذا طفل عمره خمسة عشر عامًا، توفي والده في حادث إرهابي، الطفل كان يمر بظروف نفسية صعبة، حتى كاد يتخيل نفسه يقاتل الإرهابيين، حدث له اضطرابات سلوكية.. عندما عرض عليّ مصطفى أمره، اقترحت أن يأتي إلى المزرعة للعمل ولتغيير واقعه والبعد عن المكان الذي عاش فيه هو ووالده، حتى يستعيد نفسه، الولد تحت مسئوليتي، أنا نسيته في غمرة ارتباكي ولا أدري كيف!

- ممكن أسألك سؤال؟

- تفضل.

- مَن مصطفى، وكيف تعرفتِ عليه وعلى أخيه؟

- تعرفت عليه في إحدى رحلاتنا إلى العريش قبل ثلاثة أعوام أو أكثر، موقف إنساني جمعني بمصطفى، وعندما أتيت إلى هنا مررت بالكافتيريا، وأخذت رقمه، وكنت على اتصال دائم به، صدقني أنا كنت أقوم بعمل إنساني.

- أعتقد أني تعرفت على والد هذا الشاب، طيب.. سأقوم بما يجب عليّ عمله.

- أنا أحتاج وعدًا، يؤسفني أن أخبرك أني لن أستطيع الرحيل دونه.

- ألهذا الحد؟!

- نعم، أشعر بوخزة في قلبي، أشفق على والدته وعليه.

- أعدك، ربما ترتاحين أكثر لو وعدتك؟

- نعم، أتدري لماذا؟ لأني أثق بك جدًّا.

- لم تقولي ماذا تريدين أن تتناولي؟

- قهوة.

- فكري، ربما تحتاجين شيئًا آخر.

- لا.. في هذا الجو لا أحتاج سوى القهوة. يضايقك أن أصنع فنجانين من القهوة؟

- أبدًا.

قمت إلى منضدة مرتفعة بها كل ما يلزم لعمل القهوة، لكنها كانت مميزة، فكل شيء أثري، حتى «الكنكة» والملعقة، وشكل الفناجين، كل شيء متقن ومناسب للمكان.

- ممكن أسألك سؤال شخصي يا ليلى؟

- تفضل.. نعم أسمعك.

- ما الذي تنوين القيام به بعد رحليك من هنا؟

- كثير، تخيل لأول مرة في حياتي يكون لي أهداف كثيرة.. وكلي شغف ولهفة وحماس للقيام بها، تخيل، أشعر أني أبدأ العمر من جديد، ما أشعره الآن لم أشعره حتى وأنا في بدايات الطريق، عندي مهام ومسئوليات، لن أعود وأغلق بابي عليّ من جديد، سأترك الباب مفتوحًا للعابرين، تخيل رغم ما حدث لي، رغم وجعي وأنا أحصي خسائري، ورغم أن العمر والشباب ولّيا بلا رجعة فإنني وفي قلب هذا الصقيع أشعر بقيمة الدفء لأول مرة، الدفء الذي أقصده ليس ركودًا، ولا أغطية وثيرة ومشروبات ساخنة، لا أبدًا، أقصد به تلك اليد التي تسلم عليك بحرارة وذاك القلب الذي يحمل بين أروقته حبًا لك، وشغفًا بك. الدفء شعرته حين دخلت على سامر وهو ينازع الموت وكنت القشة التي علق عمره عليها، الدفء حين رأيت عيسى يرتعد من البرد فأهديته القرآن فسكن قلبه، الدفء في قلوب البشر.

توقفت عن الحديث لحظات، ثم قدمت له القهوة وأنا أقول له: أتعبتك.

قال: لم تقولي إلى الآن كيف تكون شكل حياتك حين ترحلين؟

ابتسمت ثم قلت: سأعيد تشكيل حياة البشر، أشعر بمسئولية تجاه من استشهدوا ومن قتلوا، الظالم والمظلوم لهما علينا حق، حق الرعاية العقلية، حق الحوار... كلنا مدانون، كلنا على قيد الجريمة.

صمتُّ وأنا أنظر بحسرة لفنجان القهوة الذي فار من يدي ثم نظرت له، قال: لا عليك، اصنعي آخر غيره.

قلت: لا، سأشربه كما هو.

تذوقت القهوة، لقد ضاع ألذ ما فيها، لكنها ما زالت جميلة، قلت وأنا أتلذذ بما تبقى من فنجاني: هي كما حياتي تمامًا، لم يعد منها إلا بعض قطرات في قعر الفنجان، إلا أنني لو انتبهت سأتذوق ما تبقى وكأنه أجمل ما فيها، ربما البركة في البقية الباقية من العمر حتى لو يوم، أتدرك؟

قال: ماذا؟

- أحس شعورًا لم أعشه من قبل...

قال: أي شعور؟

قلت: السكينة، منذ ولدت إلى وقت قريب جدًّا لم أعرف السكينة، قبضة في صدري لازمتني، وأنا طفلة معلقة بأبي وأمي وحين كبرت، واخترقني العشق بقيت القبضة ما بقيت خشية فراق ولوعة... وبعد الفراق طغت القبضة وتجبرت حتى احتوتني كُلي حين تزوجت، بدأت القبضة تمارس دورًا سلطويًا عليّ، حتى كادت تُميتني خنقًا. عندما جاء ياسين ورغم فرحتي بقيت قبضتي رهنًا لحياته وخوفًا عليه، حين مات ولدت قبضتي رجفات وأنينًا حتى عندما جئت منذ شهور لآخذ الثأر ممن هتك ستر روحي... كنت موقوفة رهن انقباضات جديدة، الآن فقط لم أعد أشعر بسدود تمنع الهواء عني، زالت قبضتي حينما هانت الدنيا ورخصت في نظري.. لم يعد لشيء قيمة، زال حرصي، هدأ حالي عندما رأيت من مصائب الخلق ما رأيت، لست وحدي أفتقر للسعادة، الجميع افتقر لهذا، أنا لست على قارعة الوجع وحدي، هنالك من بات عمره في قلب الوجع، إنها الدنيا.

علامَ عنيت ولِمَ حرصت وماذا كنت أظنها تدخر لي؟! وهي في النهاية دار فناء، أنا الآن أعلم الحقيقة.

الحقيقة في صنع حيوات لآخرين افتقدوا المعايير الأولى للتعايش والاستمرار، زالت القبضة، حينما استغنيت، وتساوت كل الأقدار أمامي، أوَ تدري أن الدنيا أكثر تحررًا حين لا تبقى على قيد تعلق، ولا على مقربة من شعف، ولا رهنًا لاحتياج! أنا ما عدت أتمسك بشيء لنفسي، ولا أتسلق وصولًا لذاتي، ولا أعاني سخفًا حتى ترضى نفسي؛ لذا أتنفس شيئًا جديدًا، لا حاجز يمنع عني الهواء، ولا قبضة تجعلني أرتجف. السعادة تكون حين تَهب الحياة لميت، والحكمة لضال، والموعظة لتائه، والمحبة لفقير، وزاد روحك لجائع، أن تكون سفينة يحط عليها التائهون شغافهم، تسير معهم وبهم إلى المستقر، وما أجمل ضحكاتهم حين ينتهي طول الطريق بجنة، وضيق الأمد بمتسع وخلود!

نظرت إليه كثيرًا: لماذا تسألني عن شكل حياتي الآتية؟ (سألته حائرة).

صمت قليلًا ثم قال: لأني عرفت شكل حياتي بعد أن ترحلي، بقيت العمر أنتظر شيئًا، فاجأني وأنا على المفترق ألوح للحياة مودعًا.. وأشير للموت مستقبلًا، لا أملك لما بقيت العمر أبحث عنه سبيلًا. الغريب أننا نلقى الضالة حين لم يعد في الحياة متسعًا، تخيلي يا ليلى، الحقيقة قريبة منا جدًّا نكاد نلمسها، لكن حاجزًا غريبًا أمام أعيننا يعمينا عنها، أراه حاجز قدري، ماذا تظنينه يا ليلى؟

- كما تراه تمامًا سيدي، إنه القدر، بالكد نذوق السعادة، حتى نلهث خلف سحرها، نظل نلهث لنعي في نهاية الطريق أنها في الجنة، ليتنا ما لهثنا خلف سراب.

- تخيلي يا ليلى، كل هذا الصراع لا لشيء إلا لأجل الإنهاك ليس أكثر، لو لنا كرّة فنعود، نعود صغارًا بعقولنا الكبيرة، نعود ونحن نحمل سكينة الوصول لتغير في حياتنا الكثير، ربما غدت جنة حقيقية، أتدرين جنة الرجل في ماذا؟

نظرت محدقة متوغلة في عينيه أكثر قائلة: ماذا؟

- في أنثى تشاركه الشرود! أنثى تعانق معه الخيال، تلقي نفسها بين مخالب رؤيته بجرأة ومجازفة، ترتفع معه حين يرتفع وتحط رحالها على قلبه حين يتساقط، فينغرس في إلهامها راضخًا، فيثمر ألف مثله على غصن قاحل، ويخصب ألف فكرة كادت تنقرض من فرط العقم، لينتصب ألف مبدأ تقهقر إلى القاع زيفًا، ويذوب في ألف عشق كان محالًا.

بقيت أنظر له وأتعجب، كيف هذا الرجل يحمل في طيات روحه سيف المحارب، ونبض العاشق، كيف يحيا في ساحة الحرب وخندق العراك بين أحداقه اللينة وجبروته المرصع بالكبرياء، كيف هذا يتنفس والأضداد تصرخ بداخله وتكابر، من هذا الرجل الغريب؟! كيف هو صلد وكيف هو هش، وكيف أجزم أني أقرأ الحقيقة في عينه، وأضل حين أتهجى نبضه! شعرت بارتجافة وألم يخفيه، وشعر بارتباكي؛ فبادر بتغيير الموضوع..

قال: تأكدي يا ليلى أن الله لا يظلم أحدًا، المسيء سيعاقب، والآن تحدث مشاورات بشأن المنضمين أخيرًا، ويتم بحث لحالتهم.. أؤكد لك أن «عزيز» سيخرج قريبًا مع خالد، لا أريدك أن تحكمي على البقية الباقية بشعورك ربما فيهم المذنب والذي يستحق الموت، بعضهم يا ليلى تلقى تدريبات غاية في الخطورة وبعضهم نبتت بداخله بذور الإرهاب والعنف، لا يصح أن أتركه في الخارج يثمر،

الأمـر غايـة في الخطـورة والارتبـاك، مـن خـلال الدراسـة الأوليـة وجدنـا أن الأحـكام سـتتفاوت، ليسـوا جميعهـم عـلى نفـس الدرجـة مـن العنـف. حتـى بعضهـم ممـن هـو مجهـول لنـا، لا بـد أن يبقـى تحـت أعيننـا فـترة.

قلـت لـه: أنـا لا أحدثـك عـن إرهابيـين، أحدثـك عـن المظلومـين في الأرض الذيـن اضطرتهـم الظـروف لأن يلقـوا أنفسـهم في براثـن الغـي قهـرًا.. أحدثـك عـن البعـض الـذي عمـل تحـت سـلطة خالـد، ورفـض العيـش تحـت قانـون زهـران، قانـون العنـف والإذعـان، أول مـا حدثهـم خالـد عـن خطتـه انضمـوا إليـه، عرضـوا حياتهـم للخطـر لـو تكَشـف الأمـر، قـرروا السـير في اتجـاه الهـروب مـن المـوت للحيـاة.

رد قائـلًا: الأمـر ليـس بالسـهولة التـي تعتقدينهـا، ليـس الوصـول لمقـر هـؤلاء الأوغـاد سـهلًا، العاقـل يختـار المـوت أفضـل لـه مـن العبـث مـع هـؤلاء، أتدريـن يـا ليـلى، المجموعـة التابعـة لزهـران أغلبهـم جنسـيات مختلفـة، مـن مختلـف دول العـالم وبعضهـم لم نصـل لجنسـيته الحقيقيـة، هـؤلاء تلقـوا تدريباتهـم في أماكـن غـير مأهولـة، تدربـوا عـلى الاغتصـاب والقتـل، تتفتـح شـهيتهم للقتـل كلـما رأوا إنسـانًا يخالفهـم، قـادرون عـلى ممارسـة الاغتصـاب مـرات خـلال اليـوم الواحـد دون رحمـة تذكـر أو حتى تأنيـب ضمـير، يعتقـدون نسـاء الأمـة جاريـات لهـم، مكافأتهـم عـلى أنهـم يحملـون الرايـة كـما يتصـورون، يسـتحقون الإعـدام لأفكارهـم فقـط، مـا بالـك مـن مواقفهـم.

قلـت: أعلـم طبعًـا ولا أتمنـى لهـؤلاء عفـوًا أبـدًا، بـل أود لـو يقتلـون في ميـدان عـام، لكنـي فقـط أتمنـى لـو نصـل إلى مَـن وراءهـم، مَـن يمولهـم؟ مـا هـي غايتهـم؟ أي المنظـمات أو الـدول تقـف وراءهـم؟

قـال: أعتقـد أن هـذا معـروف، لكنـه غـير موثـق، أي ليـس عليـه دليـل إلى الآن،

ليس لدينا ما يثبت تورط جهات بعينها، لكن كل ما علينا أن نحمي حدود هذا الوطن من هذه الجماعات المدعومة للنيل من تراب هذا الوطن.

- جميعنا معكم طبعًا، أنا لست أتدخل أبدًا لأن ينال غادر عفوًا أو تسامحًا، لا، أبدًا، فقط صادفت شبابًا اضطرتهم ظروفهم للاختباء في هذا المكان، كانوا يعملون بالمزرعة أو الحراسة أي أعمال لا تتعلق بقتل أو عنف، أيضًا هم لم يتجاوزوا عامًا في هذا المكان، حتى الشخص الذي كان على دراية بأعمال هؤلاء لكنه لم يشارك فيها، كان رافضًا وكل ما قدمه هو خدمات لكم مثل سامر رحمه الله، أتدري؟ سمعت بعضهم يتحدث عن سامر أنه إرهابي، رغم أنك حين تسمع قصته تعلم أنه قطُّ لم يعِش في هذا السياق المجحف. ألسنا في حاجة لتبرئة من هم مثل سامر، وتبرئة سامر نفسه من هذا الجرم؟

قال: كلٌّ سيأخذ حقه.

قلت: فقط لا تنس أنه لولا هؤلاء لما تمكنتم من الوصول إلى هذا التنظيم أبدًا.

- كل هذا في الحسبان يا ليلى، وسترضيك النتائج، ثقي فيّ فقط.

ثم قال: نسيت.. مبروك ليحيى، أرى أن حياتكم على شفا الاستقرار بعد كل ما عانيتم.

قلت: الحمد لله، خبر براءة أخي جعلني أنظر للحياة بشكل آخر.

استكملت: لقد شغلت وقتك، أعلم.

قال: بالعكس، أسعد بك أكثر مما تتخيلين.

وقفت وأنا أنوي المغادرة بعدما أخذت وعدًا بزيارة خالد غدًا، أوصلني كما كل مرة إلى الخارج وبعث معي السائق بعد أن أوصاه بي.

الفصل السابع عشر

حين تغيب ملامح بعضك في الوجود غير المرئي، وتنقطع بينكما كل وسائل الاتصال، ويبقى يسكن روحك مجرد خيال غير قادر على رؤيته ولا عناقه، يبقى كل مبتغاك رسالة روحية، أو رجع الصدى لنبرة منسية في ركن منزوٍ بفضاء مظلم، ما لها رسائل الأموات تبعث بدفقة حنين جامحة في قلوب أتعبها الفقد وأنهكها الحرمان، ما لها رسائل الموتى تشق صدورنا وتثير شغفًا بلقاء عبر أروقة قبور مظلمة! في طريقي إلى خالد كنت أرتعد، ترى ماذا كتب لي ياسين قبل أن يموت؟ ترى ماذا قال لسامر؟ ليتني سألته عن ياسين وأنا معه، لم أكن أعلم أن ياسين تعرف على سامر، وما هذا القدر الغريب! لقد شممت رائحة ياسين وأنا أودع «سامر»، وكأنه كان هناك يصطحبه إلى الجنة، وما القدر الذي جمعهما وجمعني بسامر! وكأني أتهيأ للقياه، هو يضحك في قلبي وينتظرني..

لقيت «خالد» بشغف ولهفة، نظر في عيني، لمح انقباضي وتوتري، ودمعة لاهفة ترفض الرضوخ فمنّ عليّ بورقة... هي ورقة، جذبتها وجريت إلى مقعد جانبي، لمّا أرَ حروفها، فقط بقيت أعانقها وألثمها بنهم وحسرة حتى قرب مني خالد، وقال تماسكي. فتح لي الورقة وأمسكني إياها حتى أقرأ:

«ليلى يا ليلى، أتسمعيني، عارف انك مش ممكن تزعلي مني عشان كدا بدلع عليك، ليلى أنا عادي اكسر قلب أي حد في الدنيا إلا قلبك، وأنت عارفة، أنا كنت في حالة صعبة جدًّا بسبب والدي مكنتش عارف استرد قوتي رغم انك

جنبي طول الوقت، ووجودك بيكفيني بس تعبت من الإحباط، كمان أنا مقتنع جدًّا بسفري لسوريا مش معقول طول الوقت هفضل جنبك يا ليلى ومش هشوف الدنيا، ليلى انت زعلانة؟ بتعيطي؟ طب كفاية، يعز عليا أني اكون سبب دمعك وانت سبب حياتي لحد دلوقتي، عايزك تجهزي الغدا انا راجع، أكل حلو كدا من إيدك الحلوة، استنيني قريب جدًّا. ملحوظة: أنا شُفت خالد يا ماما، لأ يستاهل أنه يبقى «فقد العمر». خالد شكلك يا ماما.. شكلك جدًّا، الجواب دا هيوصلك مع سامر، صديق ليا، قدرت أقنعه أنه يرجع لأمه، زي ما انا خلاص راجع عشانك، حبيبتي مع السلامة. ياسين».

أنهيت خطاب ياسين، ثم رفعت عيني وهي ملأى بالدموع، وجدت دموع خالد تسبقني، ربت على يدي وقال: سيأتي، تصوري أنه سيأتي، اطهي له ما أراد واضحكي كما قال لك.

بقيت دموعي على غيها لحظات، حتى بشرني أنه قبل نهاية الأسبوع سيكون حرًا هو وبعض الشباب الذين ثبتت براءتهم نهائيًا، قال: لا بد أن نرتب للرحيل.

قلت: نعم سأفعل، سأتحدث مع جمال ومع يحيى بشأن بيت أبي، أعتقد أن القرية هي أنسب مكان، لقد استقررت في القرية بعد موت ياسين جوار قبره في بيتي الكبير الذي تتوسطه حديقة جميلة، أعلم أنه سيعجبك، قمت على بنائه أنا وياسين وسط مساحة كبيرة من الأراضي الزراعية التي تخص ياسين ووالده.

قال: نعم، أعتقد أننا نملك مساحة كافية، بيت والدك ممكن تسكن فيه نعمة وأولادها، طارق وسعد وإيمان، تطلبي من يحيى يكمل بيت حمزة، يعده للشباب سعد وسالم وعزيز وسيخرج معي ستة آخرين.

قلت: والباقي؟

قال: لن أتركهم، تحدثت معهم وسأجلب لهم أفضل من يملك الدفاع عنهم، تحدثت إليهم بالأمس واتفقنا أن أي شيء حتى لو كان السجن هو أفضل من الوضع السيئ الذي عاشوا فيه. الشباب محترمون جدًّا وفعلًا كل منهم يملك قصة وكلٌّ كان يستنكر هذا الوضع، بعضهم كان يخطط للهروب والدليل أول ما عرضت عليهم مساعدتي فروا إليّ جميعًا...

- يصعب عليّ حالهم. (قلت بحسرة).

قال: لا، هم في قمة السعادة والرضا، يشعرون بنعم الله عليهم، قالوا أنهم كانوا ينتظرون الموت، كان حواري معهم أمس حتى الفجر، شباب قوي راضٍ يتحمل الشدائد والمصائب، فقط كانوا يجهلون الطريق، لحظة ضلال هي من أودت بمصائرهم حتى أنجاهم الله، لا تقلقي يا ليلى حتى لو تم الحكم على بعضهم لن أتركهم.

- أنا سعيدة رغم كل شيء، أشعر براحة وبتصور أفضل لنا ولهم.

- أنا أيضًا أتلمس رحمة الله لنا بعد كل العناء.

- نعم، هي رحمة الله. لا تقلق، سأنتظرك وأعد كل شيء.

خرجت من عند خالد وأنا كُلي حماس، أفكر في الغد من منطق أمن، حاولت الاتصال بيحيى لكني تذكرت والد مروة وتورطه في القضية فقررت الاتصال بجمال، لأتعرف منه على الظروف أكثر. بعد كثير من العتاب والحدة كعادته، ولماذا ذهبتِ عندك ماذا تتصورين نفسك، وغيرها من الانتقادات مثل: «احنا

رجالـة عـلى فكـرة وكنـا نعـرف نجيـب حـق ياسـين».

قاطعتـه بعدمـا تحملـت مـا لا طاقـة لي بـه قائلـة: جـمال، نتحـدث في هـذا حـين أعـود، الآن أنـا عائـدة أنـا وخالـد وبعـض الشـباب.

قـال متسرعًـا: مـاذا؟ بعـض الشـباب، سـيناء لم تسـع الإرهابيـين فجئـت بهـم في قلـب البلـد؟

صرخـت: جـمال، كـف عـن هـذا مـن فضلـك، كيـف فكـرت أن أتناقـش معـك، آسـفة يـا جـمال أعتـذر، سـأراك قريبًـا.

وأغلقـت الهاتـف وأنـا في قمـة انفعـالي، لم أنـدم عـلى شيء مثلـما ندمـت عـلى هـذا الاتصـال، كيـف فعلـت هـذا، أنـا مـا زلـت غبيـة، لـن يفهـم جـمال موقفـي، قمـت بالاتصـال بيحيـى، قـال: أهـلًا ليـلى، كيـف أنـت؟

- بخير يا يحيى، كنت أود الاتصال بك في البداية لكني قمت بالاتصال بجمال.

- لماذا يا ليلى، هل بك شيء؟

- أبدًا، سمعت بتورط والد زوجتك في الأحداث.

- نعم، هي في كرب كبير.

- اللـه معهـم، كنـت عنـد خالـد يـا يحيـى ونحـن سـنأتي قبـل نهايـة الأسـبوع ونحتـاج عـدة تجهيـزات.

- اطلبي ما تشائين يا ليلى.

- تجهيز بيتي وبيت أبي، ولو ممكن إكمال بيت حمزة رحمه الله.

- لماذا كل هذا؟

- هناك عدد من الشباب الصغير سيأتي معنا، دورنا يا يحيى أن نهيئ لهم مكانًا وظروفًا أفضل.

- طبعًا طبعًا يا ليلى..

- خالد يقول لك أنت مسئول عن كل شيء، حمِّل النفقات كلها على خالد.

- ماذا يا ليلى! سنتكلم في هذا لاحقًا، لكن هناك مشكلة صغيرة.

- ماذا؟

- بيت حمزة سيستغرق وقتًا، أسبوع لن يكفي.

- جهز البيتين مؤقتًا، حديقة منزلي واسعة وبها ملحق يبقون فيه إلى أن تنهي البيت.

- سأفعل ما تريدين.

- بلغ سلامي لنجوى، ربنا معهم.

- إن شاء الله.

موقف جمال أتعبني جدًّا، لكن بساطة يحيى هدأت من روعي قليلًا، هاتفت نعمة وأخبرتها أن تعد كل شيء للرحيل قبل نهاية الأسبوع، سألتني بشغف وخوف عن طارق، قلت لها مرارًا أنه سيأتي معنا، لكنها زغردت في الهاتف حين أقسمت. وكأنها كانت تحتاج ليقين حتى تفرح، وأنا أيضًا أحتاج يقينًا لأتمالك نفسي، لا أتصور أن الأمر سينتهي أخيرًا عند هذا الحد، لقد كانت كل ظنوني دموية

وعنيفة، لم يخيل لي أن أعود، أعود بنفسي المقسومة، والباقي المفقود مني، لا أتصور أني ثأرت، خرجت عن طوق النساء وفعلت فعل الرجال، فقط هي أيام ويعدم زهران وحاشيته وتردم الأنفاق التي تصلنا بهذا الكيان السمج، الجزء المعطوب من الأمة، وبذلك أكون قد ثأرت لياسين وكل شهيد سقط دمه الطازج الشريف على الأرض الجميلة، حتى تخرج من نطاق الأرض الجامدة إلى حدود البشرية، تحمل بين رمالها أرواحًا تصلي وقلوبًا تدعو.

سأعود، مع خالد حلمي المستحيل، فاقد ومفقود يلتقيان بعد طول شجن، ما تصورت أني سأعود بالمكاسب، كنت أرتب خسائري وأحصيها كل يوم، كنت صادقة في هدفي لا تعنيني النتيجة قدرما يعنيني الفعل، وقبل يوم من رحيلي، كان عليّ القيام بزيارة سريعة كانت لصاحب الفضل في وصولي لغاياتي، ذاك القلب الكبير، اللواء إبراهيم، ذهبت إليه دون اتصال، دون اتفاق، قبيل المغرب بعدما أعددت حقائبي، واستعد الجميع للرحيل في الصباح، في الخارج كان الحارس، عندما رآني ابتسم، أشار إلى الجزء الخلفي في الحديقة، فرددت بابتسامة وذهبت؛ فأنا أصبحت أعرف المكان جيدًا، وكان هناك على نفس المقعد، وكأنه كان يعلم بمجيئي، ابتسم حين شاهدني. قام واقفًا كعادته يرحب بي ويثني على طلتي، نظرت على المنضدة لقيته أعد لتوه فنجانين من القهوة، ضحكت قائلة: وكأنك كنت تعلم أني آتية.

قال: نعم... أعلم.

- وكأنك صنعت لي قهوة حالًا.

قال: نعم.. هي لك.

- لكنك علمت وتوقعت أني سآتي، لكن.. من أين عرفت بموعدي؟

- لا أدري؟

- وكأنها روحك بدأت تحدثك عني!

- أعتقد... إنها روحي.. ربما كل المعاناة أن الأمر وصل لروحي!

- أشفق عليك من وجع الروح، ما تعمدت جرح روحك.

- لا أريد شفقتك، لست أنا من يشفق عليه حين يُبتر!

- أشعر بالذنب، ما لك وما لهمي! ألقيتك دون قصد في أتون صراع أنت في غنى عنه.

- بل جعلتِ للفراغ معنى، وخلقتِ للخواء عمقًا. لكِ كل الفضل يا ليلى لو تركني الوهم، لكِ كل الفضل أن جعلتني أدرك شيئًا في الحياة له عبق، لكِ كل الفضل، حين أيقظتِ في قلبي الميت حياة لم تخطر ببالي قط، لم أكن أعرفها دونك.

قلت هاربة من نظرته: القهوة!

جلست جواره، قال: سأبقى أتذكر عذوبة القهوة معك حتى في قبري.

- وأنا لن أنساك، أثرت في نفسي، على الأرض لم أجد أحدًا يشبهني مثلك، لن أنسى هذه الأوقات التي جعلتني أنسلخ عن همي ساعات، وكأني كنت في رحلة كونية مثيرة. شكرًا لك بل كل الشكر لك.

- ليلى، لو احتجتِ أي شيء في أي وقت تعالي، سأكون أسعد إنسان في الكون لو رأيتك أو سمعت صوتك.

- سأفعل.. صدقني سأفعل.

- ربما أفعل أنا.. لو ساء حالي لن أمنع نفسي أن أراك أو أسمع صوتك.

- وأنا يسعدني هذا.

صمتَ كثيرًا وصمتُّ كثيرًا، أعطاني صندوقًا صغيرًا قال إن به بذورًا لنباتات نادرة الوجود، فرحت وخرجت من حالتي أسأله بشغف عن أسماء النباتات، قلت: هدية رائعة، شكرًا لك.

قال: ليست هذه فقط.

قلت: ماذا هناك أجمل من هذا؟

أعطاني صندوقًا متوسط الحجم، سألته: ما هذا؟

قال: تصوري أنت.

قلت: لا أدري.

قال: لن أقول، إنها مفاجأة، لا تقومي بفتحها إلا عند وصولك.

قلت: كما تحب.

ودعني على باب الحديقة الخارجي، ألقى بوجهه ألف علامة استفهام قبل أن يرحل. ورحل ورحلت أنا، سرت لا أعرف سببًا لانزعاجي، أهو الفراق، أم هو الانقسام عن أرواح تشبه أرواحنا؟ هي اليد التي مدت لي وأنا في أشد لحظات ضعفي أودعتني ثقة في ذاتي، جعلتني أتحرر من خوفي وأنهض من كبوتي، لا أستطيع أن أنكر أني تأثرت به، أليس غريبًا على رجل بقوته أن يكون لطيفًا إلى

هـذا الحـد مـع التاريـخ، والجغرافيـا وعلـم الأرض، أو ليـس غريبًـا أن يتعلـق مثلـه بنبتـة، إنـه مـن أغـرب مـن عرفـت..

دخلـت الفنـدق وقـد شـعرت بحاجـة لـشرب مـشروب سـاخن؛ فجلسـت في البهـو الكبـير، اخـترت مقعـدًا مريحًـا في صالـون جانبـي وطلبـت قهـوة، وجلسـت أنظـر في وجـوه العابريـن، قمـت بفتـح الصنـدوق، وجـدت المسـلة الفرعونيـة التـي أبهرتنـي، ضحكـت وتعجبـت، لقـد قـال لي إنهـا مـن أغـلى مـا يمتلـك، جـاء النـادل بالقهـوة وعـلى حـين غفلـة سـمعت صوتـه حـرًا.

- خليهم اتنين قهوة طيب.

- خالد، أهلًا خالد...

كنـت أتهيـأ للوقـوف لاسـتقباله لكنـه لم يسـمح لي؛ فأخـذ يـديّ بـين يديـه ثـم جلـس جـواري، ينظـر في عينـي وأحـدق بوجهـه.

- خالد، كنت أحسبك ستأتي غدًا كما قلت لي.

- لكني صنعت المستحيل حتى أبقى معك هنا ليلة قبل الرحيل.

- إنه أفضل ما فعلت في عمرك كله.

- هيا.. هيا نخرج حالًا.

- نخرج.. لكنك متعب وبحاجة للراحة!

- قومي يا ليلى، لا وقت للراحة أبدًا.

لا أدري كيـف سـمعت كلامـه وتحـررت مـن الهدايـا التـي كانـت في يـدي، وغـادرت

معـه لا أدري إلى أيـن، لا أدري غـير أني وضعـت يـدي في يـده كعشـاق صغـار، وبقينـا نجـوب الطرقـات ونتسـكع عـلى الأرصفـة ونتوقـف عنـد المحـلات والمطاعـم، تسـوقنا معًـا، لم أكـن أتصـور أني سأتسـوق معـه يومًـا مـا، جلسـنا على المقاهـي أكلنا في الشـوارع، سـخرنا حتـى مـن القطـط الضالـة ومـن شـكلنا الغريـب، كنـت أضحـك كطفلـة صغـيرة، لا تخـشى شـيئًا، تتسـلق بصعوبـة أرصفـة الحيـاة لأول مـرة، تحـب لأول مـرة، تلملـم ضفائـر الليـل، لتفـك قيدهـا المزعـوم، وتنـثره في الفجـر ليتعتـق بضـوء النهـار، في العلـن كل شيء محقـق، العتمـة لا تليـق بنـا.. هكـذا قـال لي.

قلت له: أحب أن أهديك شيئًا تعال معي.

وعنـد أحـد المحـلات الكبـيرة اخـترت لـه خاتـم زواج عريـض وثقيـل، ابتاعـه هـو، لم يقبـل أن أدفـع ثمنـه، وعـلى غـرار مـا فعلـت اصطحبنـي لمحـل فخـم للذهـب واشـترى لي خاتـم زواج، لم أكـن أصـدق كل هـذا التـوق واللهفـة التـي اصطحبناهـما معنـا في طريـق الجنـون المؤجـل، لكنـي كنـت كلـما أسـير خطـوة، اجـترت ذاكـرتي أحداثًـا بعيـدة، كيـف اسـتطعنا هـزم التوافـق بيننـا، كيـف تحمـل كل هـذا الانهـزام أعوامًـا وأعوامًـا وكأننـا خلقنـا لنكـون معًـا، لم نخلـق لننقسـم، عشـنا في السـاعات القليلـة رحلـة عمـر حرمنـا منهـا.

كنـا قـد أنهكنـا التعـب فعدنـا صاغريـن إلى الفنـدق، اتفقنـا أن نرتـاح قليـلًا حتـى الصبـاح، موعدنـا الثامنـة صباحًـا موعـد الإقـلاع مـن هنـا، داخـل الأتوبيـس الكبـير، جلـس الشـباب في المقدمـة ثـم إيمـان ونعمـة، وجلسـت وخالـد في آخـر المقاعـد، لأول مـرة أرى «عيـسى» و«سـعد» و«سـالم» خـارج المشـفى، جميعهـم بخـير مـا عـدا «سـعد» يمـشي عـلى عكازيـن، مـزق قلبـي حـين رأيتـه ولكـن رؤيتـي لعزيـز بخـير أسرتنـي جـدًّا،

شعرت أني تخلصت من الذنب، لقد كان تحت مسئوليتي ورعايتي.. عندما رآني قبل أن أصعد ارتمى بين ذراعي على حين غفلة مني، قبلته وربت على كتفه قائلة: ألف حمد لله على السلامة.

واتصلت بمصطفى أخبرته أن ينتظرني بالكافتيريا على الطريق ومعه والدته.. سمعته بخير، والدته سمعتها تزغرد عبر الهاتف وتدعو لي، قال عزيز لي: سأطمئنهم عليّ وأطمئن عليهم وآتي معك.

قلت له: ابق معهم وفي أي وقت تقرر المجيئ سأرسل من يساعدك للحضور.

هدأت نفسي عندما سار الأتوبيس يشق قلب الصحراء، ذكرني باليوم الذي جئت فيه وكيف كانت حالتي حين كنت على شفا الموت والهلاك، كنت أفتقد أبسط مقومات الحياة، كنت أشعر أن الله مد بعمري لأنتقم وأعود، لكن الله مد في أجلي لأخلص هؤلاء وأتخلص معهم من وحدتي ومن جرحي، لم أساعدهم قدرما هم ساعدوني، بعد أن قطع الأتوبيس مسافة بسيطة، جاء خالد جلس بجانبي، ابتسم في وجهي حين لقاني مشدودة للطريق الطويل، أتفحص البيوت العتيقة والمباني البسيطة، حتى الحظائر والخيم البسيطة، قال: لماذا تتمعنين في كل شيء هكذا؟

قلت: لا أدري، تنزعني الرمال من مرقدي الهادئ، تثير فيّ شجنًا غريبًا.

ناديته بصوت خافت رغم أنه جواري يحدق بوجهي : خالد، ترى ما السر الذي يربطنا بترابها وظلالها وسمائها وحدودها بهذا الشكل؟

قال: العشق يا ليلى، إنه العشق! أنسيتِ أننا جزء من ترابها، أنسيتِ أنّا

خلقنا منها، لو حللوا أجسادنا يا ليلى سيجدوننا والتراب سواء بسواء.. كيف لا تعشقين بعضك، هل نحن متمردون حتى ننفر من بقايانا؟ إنها أنت يا ليلى، بل إني أعتبر حب الوطن أنانية لأنك حين تحبين أرضك فأنتِ تبالغين في حب ذاتك، أتدرين أنه شيء فطري وطبيعي، أتدرين أنّا مطالبون بأن نعشق كل البقاع وكل الأطياف؟ بل مطالبون بالأكثر، أن نقترب بود ممن يخالفوننا في المبدأ. ديننا ضد العنصرية بكل أشكالها ليلى، رسولنا كان يتفقد يهوديًا على قدر ما علم من سوئه، مطالبون أن نعامل أعداءنا من منطلق إيماني خالص، فما بالك بمن ينزلقون من أبنائنا؟ أليسوا أولى بالرحمة؟

انتبهنا لمرح أتى من المقاعد الأمامية، ثار الشباب مرة واحدة، قال أحدهم: نتصور القائد أخذته سنة من النوم، «يلا يا شباب قولوا ورايا» وإذ فجأةً يهبون جميعًا بالغناء والتصفيق والتطبيل، وأنا أضحك وأتعجب من أمرهم، من يراهم لا يظن أبدًا أن هؤلاء نجوا من الموت، أو أنهم مكثوا شهورًا في وكر ضبابي، حتى سعد اندمج معهم، نسي ما سببته الثغرة من بتر وذبول، وكأنه عايش ما هو أبشع من التخلي عن جزء منه، عايش الذل، وتدثر بالمهانة، وصاحب الموت على أيدٍ غير شريفة، أجساد ترتدي زي الخسة والوضاعة، كم هو قبيح ما عايشه!

الآن بدأتُ أعي تمامًا أن العائدين من الثغرة -وقد أفلحت حين سميتها ثغرة- هؤلاء العائدون لن يخونوا أوطانهم مهما قست عليهم، أو حتى زفرتهم بعيدًا حين يصيبها تيه وإن أصابها تيه، سيبقى هؤلاء الأقرب، سيبقى هؤلاء الأحوط، الأحرص على مد خط التواصل مع الأرض.. لن يخونوا مهما خان الجميع.. هؤلاء من قست عليهم الحياة بالتجربة، وزرعت أعمارهم وسط أعداء ماكرين، لن

ينخدعوا بالحرمان مرة أخرى حين تكون قاب قوسين أو أدنى من الموت، فأنت تقدس أطراف الحياة وتقدر قيمة أنفاسك جيدًا..

كنت ابتسم لحلاوة أصواتهم، وجباههم المشرقة، ما زالوا يغنون ويلعبون، وخالد ينظر لهم ويتوعدهم بمرح وسعادة.. مرت الساعات، توقفنا عند كافتيريا النور، أخذت يدي بيد عزيز ونزلت أسلمه لأهله، قابلني مصطفى بالترحاب، وقابلت أم مصطفى «عزيز» بالبكاء والأحضان النازفة شوقًا، وبعد لحظات من العناق لطفلها، احتضنتني باكية، كادت تُقبل يدي، لكني منعتها.. قلت لها: حفظه الله لك.

أصر مصطفى أن نستريح عنده قليلًا ونشرب بشرى رجوع أخيه سالمًا، وجلسنا أكثر من ساعة نتحدث، ودعتهم جميعًا وأخذت «عزيز» جانبًا، قلت له: حين تضيق لك الدنيا تعال عندي.

وأعطيته عنواني، واتفقت مع والدته على هذا، ورحلت والثقل بداخلي يقل أكثر، حتى كاد يتلاشى. ركبت الأتوبيس، وجاء خالد يجلس جواري، قلت له: انتبه سريعًا.

كانت إيمان تتحدث إلى سالم بخجل وابتسامة تنم عن غرام جديد يلوح في أفق العشاق، ويلوح للسعادة بشغف. وكان سالم يضاحكها وينظر بوَلَه لوجهها، صعد إلى الأتوبيس ثم أخذ يدها، حينما انتبه لنا احمرّ وجهه الأسمر وجلس وقال لها بلهجة صعيدية ذكورية: ارجعي أنت.

فرجعت طائعة متوردة الخدين ينطق الحب بمقلها، جلست جوار نعمة في

حالـة أعلمهـا جيـدًا، حالـة ارتجـاف وصحـوة لـكل الخلايـا الميتـة في الجسـد المنهـك، أشـارت لي نعمـة وكأنهـا تلقـي لي التحيـة، أشرت لهـا ورميـت لهـا ضحكـة تعطيهـا الأمـان الـذي تحتاجـه. المسـبحة في يديهـا لا تتوقـف عـن الذكـر، أراهـا تتابـع «طـارق» وتشـكر اللـه عـلى رجوعـه سـالمًا. قلـت لخالـد: أتـرى؟ غريبـة هـي نعمـة، تشـكر اللـه وهـي راضيـة تشـكره بـكل حـب وامتنـان، رغـم مـا حـدث لابنهـا، بـترت سـاقه وهـو في فـورة شـبابه، وعذبـت ابنتهـا الوحيـدة مـن رجـل أرعـن، انتهـك آدميتهـا وأنوثتهـا. غريـب أمـر المكلومـين البسـطاء عـلى هـذه الأرض!

قـال: كادت أن تفقـد الـكل وتفقـد نفسـها، هـي تـدرك أكـثر منـا النعمـة التـي أنعـم اللـه عليهـا بها.

- خالد.

- نعم يا ليلى؟

- ما هي خطتك للقادم؟

- لا خطط لي، غير أني سأبقى جوارك.

- خالد، أنا أتكلم بجدية، احترم جديتي!

- ليلى، وهل أمازحك؟

- خالد، ماذا ستفعل حين نعود؟ وأين ستبقى؟

قال: ألم تدبري لي مكان؟

- نسيتك! دبرت للجميع إلا أنت.

- حقيقي، بل قولي أنك تريدين توريطي حتى أرضخ وأضطر للبقاء معك.

- نعم! ماذا تقول؟ طبعا لا، فقط كلهم غرباء وأنت الوحيد القريب، قلبي بيتك على أية حال.

- سأفعل كل ما ترتبين له، لا تخافي، لن أتركك كما فعلت من قبل.

- انتظر هنا.. ماذا فعلت مع المدعوة كريمة؟

- طلقتها طبعًا.

- والآن على ذمتك كم امرأة بعد تطليق هذه؟

- اثنتين فقط.

- فقط.. أنا لن أتزوج رجلًا متزوجًا.

- أو هكذا أنت يا ليلى؟ أترضين أن أفعل هذا!

- كما سمعت، حقي بعد كل هذا العمر.

- لكني أحتاج للسفر حتى أنهي إجراءات الطلاق.

- لا، لن تسافر، أنا لا أسمح بهذا.

- إذن نتزوج لحين سفري، أقصد، أنظر الأمر عندما أسافر..

- لن تسافر.. لن أتركك تسافر.

- ماذا أفعل الآن حتى أرضيك.. حتى أجد مكانًا أرتاح فيه.

- لا تخف، مكانك محفوظ منذ خمسة وعشرين عامًا، حجرتك أعددتها لك،

وكنـت أنتظـرك في سري دون جهـر أو إعـلان، فراشـك لم يطـأه أحـد، حتـى إني صممتهـا بشـكل أعتقـد أنـه يرضيـك. اخـترت سـتائرها ورديـة وأثاثهـا لامعًـا وقويًـا، أقـوى مـن نفوسـنا المهترئـة، وأنـا هنـاك سـأنتظرك بـكل ملابـسي التـي لم أرتدِهـا لغـيرك، أتعلـم؟ أنـا تحدثـت مـع صاحبـة محـل التجميـل الخـاص بي، عـلى قَصـة شـعر تليـق بوجهـي، قالـت إنهـا سـتجعل منـي موناليـزا أخـرى، وبقيـتْ خمسـة وعشريـن عامًـا تتصـل وتقـول: متـى سـتأتين حتـى أقـص لـك شـعرك؟

كنـت أؤجـل أؤجـل، حتـى ماتـت دون أن أفي بمـا اتفقـت معهـا عليـه. الغرفـة لـن تسـتغربك، كنـت أهـرب إليهـا كلـما ضاقـت بي الدنيـا، أحـكي عنـك بـين جدرانهـا، وكانـت مخلصـة طـوال الوقـت، مطلقًـا لم تُخـرج سري لأحـد.

أخـذ يـدي قبّلهـا وهـو مسـتاء مـما سـمع، ثـم قـال: مهـما أفعـل لـن أسـتطيع تعويضـك.

قلـت: لا، بـل تسـتطيع، أن تتركنـي أمـوت بـين ذراعيـك.. هـذا يكفينـي ويزيـد. خالـد أنـت أخذتنـا في طريـق بعيـد عـن مقصـدي، مـاذا سـتفعل حـين نعـود؟

- شوفي يا ليلى.. انظري للساحة العالمية، وارجعي للوراء قليلًا، تذكري بوش.

- ماذا به بوش؟

- لمـاذا جمـع الـدول، العـالم أجمـع، عـلى طاولـة حـرب الإرهـاب؟ ولمـاذا لم يجمـع الـدول في نقـاش حـول حـل الأزمـة؟ أتبـدأ الحـرب أولًا، أم محـاولات التوفيـق والتقـارب ودراسـة وجهـات النظـر؟

ثم أكمل:

- بـدأ موضـوع الحـرب عـلى الإرهـاب هـذا بعـد أحـداث الحـادي عـشر مـن سـبتمبر.

- أتذكر، لقد كان بلاءً عظيمًا.

- هل تابعتِ التحقيقات؟ هل عُرف مَن المتورط؟

- قالوا تنظيم القاعدة.

- نعـم، وعوقـب «بـن لادن» والتنظيـم طبعًـا، وظهـرت أدلـة تثبـت تـورط اليهـود، وأغلـق الملـف دون تحقيـق، وظهـرت أدلـة لتـورط أطـراف كـثر، صحيـح مـا أقـول ليـلى؟

- نعم.

- حـرب عـلى الإرهـاب، معنـى مثـير للجـدل، الحـرب تكـون بـين جبهتـين متصارعتين في منطقـة محـدودة لكـن كلمـة الحـرب عـلى الإرهـاب كلمـة فضفاضـة، أعتقـد أنهـا كانـت تناسـب الانتهـاكات والأغـراض والأهـداف التـي أنشـئ مـن أجلهـا هـذا المعنـى، أيضًـا كلمـة الإرهـاب.. مـاذا تعنـي؟ تعنـي أكـثر مـن معنـى مقصـود وغـير مقصـود، الإرهـاب العـدو الـذي يهـدد الأمـن، وممكـن أن تسـتخدم بمعنـى المعـارض.. المخالـف.. الثائـر.. لقـد كتـب بـوش في كتابـه الأخـير حـول الحـرب في العـراق وقـال إنهـا خطـأ كبـير.. لكنـه بقـي يـبرر.. حتـى تخطـى المنطـق وأعلـن عـن سـبب الحـرب، وهـو الاسـتيلاء عـلى حقـول البـترول العراقـي، والقضـاء عـلى صـدام حسـين، هـذه الحـرب منـذ ٢٠٠٣إلى الآن، هـل انتهـت الحـرب؟ هـل انتهـى الإرهـاب؟ بالعكـس تمامًـا، الإرهاب تشـعب وأصبحـت لـه أشـكال أخـرى، وكأن هـذا المسـمى «الحـرب عـلى الإرهـاب» كان ذريعـة لإطـلاق يـد المتآمريـن في الـشرق الأوسـط.. بـل وكأن الحـرب عـلى الإرهـاب كان

بمثابة إعلان لإطلاق العنان لأطماع الغرب، والآن الإرهاب متمركز في منطقة الشرق الأوسط.

- أعلم كل هذا يا خالد، لكن ما الذي يمكننا فعله في هذه الظروف؟

- سنقوم بعقد مؤتمر كبير سنعد له من الآن، مؤتمر بمشاركة دول، هذه هي فكرتي، ليس لها شكل محدد بعد، لكني أتركها تتخمر في عقلي، المؤتمر سيتحدث عن مفهوم الإرهاب قديمًا وحديثًا ومعنى الحرب على الإرهاب، وهل كانت حربًا عادلة؟ أيضًا البحث في الوسائل والطرق التي تقطع دابر العنف بكافة أشكاله. أيضًا بحث في كيفية نشأة الجماعات التي اتصفت بالإرهاب وتحديد المعالم الأساسية، وعلاقة الديانات بالإرهاب، ولماذا لم يصنف بامتداد العقائد، وعلاقته بالدين والخديعة الكبرى، وهل الإرهاب خدعة؟ ولماذا انتشر الإرهاب أكثر بعد الإعلان عنه؟ هل الإرهاب موجه؟ هل هو مدعوم؟ وهل للأمر علاقة بالشرق الأوسط الجديد؟ أفكار كثيرة ودراسات، تحتاج مجموعة مخلصة وأدلة عن تورط بعض الدول بتمويل هذه الجماعات وأهدافها من وراء ما تفعل.

- كيف ستعد لأمر كهذا يا خالد، إنه أمر خطير وكبير، وتأكد أننا الآن مراقبون أكثر من السابق، بل أخشى أن نكون تحت أنظار الدواعش ويعدون لقتلنا.

- لا تخافي، الله معنا، وأعلم أن الموضوع كبير لكن كل خيوطه في يدي، وقد تحدثت بشأن هذا الأمر مع قادة وزعماء وعسكريين، وقد لاقى استحسان كثيرين، لكني أطمع في مشاركة دولية، والأمر هين بالنسبة لي فكل ما يحتاج في البداية هو حشد إعلامي ضخم.

- ترانا نستطيع تحقيق شيء يا خالد؟

- ما رأيك أنت؟

- سنستطيع، سينتهي الأمر، سنقوى عليه، أتخيل ومن خلال برنامج مميز وجمع حكيم، وقلوب مؤمنة، نستطيع فضح السياسات الاستعمارية الغربية، وتثبيت دعائم الصدق في جنبات هذا الوطن. أتدري يا خالد؟ هؤلاء الشباب هم ثروة هذا الوطن، انظر إلى طاقتهم وروحهم التي تستنكر الباطل، بهؤلاء نستطيع، نعم نستطيع، فقط هي البداية، الطريق ممهد ينقصه البداية. هؤلاء لو اقتنعوا، لو آمنوا بما نوقن، سنحرر بهم الكون وسيرضخ الحكام للحق ولميثاق العدل المفقود، فقط نرسخ نحن قيمًا مستحقة.

خالد: لن أفعل إلا وأنت معي؛ فأنا حاولت وضللت، لكنك كنتِ دائمًا بوصلة الحق المفقود، لم أكن لأرسو لولا دعائمك الروحية التي افتقدت.

نظرت له مبتسمة وبادلني النظرة، ولا أدري غير أني غافلني النوم فسلمت له أمري، في الحلم رأيت نعمة تجلس أمام فرن أمي في منزل عائلتنا القديم، شممت رائحة خبز بلدي طازج ساخن، ألقت عليّ برغيف قسمته بيني وبين خالد، جذب مني يحيى لقمة كانت في يدي، فبت ألقمه لكمات كما كنا صغارًا، أشار لي ضاحكًا: انظري جمال هناك «عامل قائد على الشباب في الأرض».. واستطرد قائلًا: «طرح البرتقال هذا العام رائع جدًّا، حتى طعمه مختلف».

قلت: أين عيسى؟

أشار خالد: ذهب لتقديم بحثه الأخير «عن العقيدة والسلام».

قلت: سمعته أمس يؤم الناس في الصلاة، كان صوته في التلاوة رائعًا.

رد خالد: فطرته نقية تسير خلف الصواب أينما كان.

قطع المشهد صوت انفجار عنيف، لحظات مرت في الحلم دون صورة واضحة.. موجة عارمة من الارتطام، وكأنها الساعة، صوت صراخ شديد ثم هدوء وسكينة وجمال... وراحة، إنها الراحة، إنها الأمل، وها قد تحقق، علامَ كنا نتعجل! للراحة موعد.. فالراحة رزق... ثم تحولت فجأةً لمكان أرحب، الكل فيه يضحك، يحتضن الآخر في ود قائلًا: حمدًا لله على السلامة. الشباب يستكملون الغناء والضحك، وجوههم من نور. ونعمة أمام قصر فخيم جميل، تعطيني خبزًا أتذوقه فأتقاسمه مع خالد؛ فتنبعث فينا روح أخرى وينبثق النور من وجهنا، ألقى على عتبة القصر طفلة تلهو، أسير إليها في شغف ألاعبها وأسأل نعمة: بنت من هذه؟

فتقول: بنت سالم وإيمان هناك.. انظري.

وتشير إلى لؤلؤة تسبح في الفضاء، فأنظر بانبهار أجد إيمان في ثوب فرح لم أره في حياتي من قبل، ترتدي حلى ولآلئ، جوارها سالم في هالة من نور، والشباب ما زال يضحك ويغني وينثر وردًا على اللؤلؤة بعد أن استقرت جوارنا، جاءني سعد يعطيني فضية مقوسة أخذتها منه فإذا بها حَلوى لم أتذوق طعمها في حياتي. بدأت آكل أنا وخالد وحين نظرت إلى الأسفل لقيته كاملًا بقدمين..

نظرت لخالد وتوقفت عن التهام الحلوى الرائعة، وتعجبت، أسأل نفسي ما هذا الذي يحدث، أولم تبتر قدم سعد؟ أكان الحلم؟ أم ما أنا فيه حلم أكبر؟! أنظر حولي أجد النسيم ذا رائحة جميلة، وأعود لنفسي أسألها، مَن نثر هذا العبق

في كل هذا المكان الرحيب؟! وخالد يضحك ولا أحد يرد على تساؤلاتي، حيرتي تزداد لكني أسير بعيدًا عن الجمع الجميل، والأنوار الراقصة فوقنا دون أسلاك كهربائية أو أعمدة إنارة، أتعجب فأسير فإذا بها فوقي وحولي أينما أذهب، كلما تقدمت أبهرتني الزروع والأشجار الباسقات التي تنبت وتكبر وتطرح أمامي أينما أحل.

حتى الزهور التي أحب، الورد البلدي والياسمين والجاردينيا لكنها بشكل آخر وبرائحة أخرى، أتقدم لأقطف فتسبقني وتقفز في يدي باقة كما أحب وأجمل، ترى على أي أرض نبتت تلك الزهور الغريبة التي تحدق فيّ وتضحك، أتقدم أكثر فأنتبه قلقة، لهذا النهر الساري أسفل قدمي فأخاف وأحاول أن أقفز، لكنه يمتد أمامي كلما تقدمت فأنزل أتحسس الماء فأضع يدي؛ فيتسع الحائل الزجاجي فيصعد لفمي الماء فأرتوي، وكأني لم أرتوِ قط، وأتعجب أكثر أين أنا.. فأنظر للسماء صارخةً أين أنا؟

لا سماء.. فوقي لا سماء، أرى فقط فضاءً لا نهاية له ولؤلؤًا يتبارى وطيورًا تتضاحك، أشتهيها فأجدها أمامي، تقترب مني إحدى اليمامات البيضاء، قربت أكثر بعد أن ارتوت من النهر قائلة: أكملي السير أمامك هدية.

ارتجفت، أي مكان هذا الذي تتحدث فيه اليمامات!

استأنفتْ قائلة: هي لك، تقدمي هيا.. هدية طالما بحثتِ عنها، تقدمي.

فوقفت، ثم اتبعتها وأنا لا أدري أي قوة تجذبني وتجعلني أسير خلف يمامة.. أشارت لغرفة زجاجية في بناية غريبة، ذات تصميم مذهل، لا أرى خلف الزجاج شيئًا. وانفتحت نافذة وأُلقي لي منها ثوب طفل صغير، أخذته أدقق النظر فيه،

قربتـه مـن أنفـي فشـممت ريـح روحـي.. ريـح غائبـي، ريـح ياسـين.

صرخـت: ياسـين... أيـن أنـت في هـذا العـالم الغريـب؟ ياسـين.. أتسـمعني؟ ياسـين رد إليّ روحـي...

صمـتٌ غريـب، تجمعـت الطيـور عـلى الأغصـان حـولي، حدقـت الأزهـار بوجهـي بعـد أن أثنـت عودهـا تجاهـي.. لآلـئ في الفضـاء تجمعـت حـولي، خالـد واقـف عـلى قـوس مـن ذهـب يضحـك، يومـئ برأسـه لأطمـئن، مشـيرًا إلى البيـت الزجاجـي أمامـي، والتفـتُّ فـإذا البيـت ينفتـح ويخـرج منـه طيـف، أدقـق النظـر، الطيـف يضحـك لي، صـوت ياسـين يـأتي مـن كل الفضـاء حـولي: ليـلى. أمـي...

اختلط عليّ الأمر، هل هذا ياسين؟ أحدث نفسي وأرد سريعًا:

- وهل أنسى صوت ابني؟

- لكنه كان يقول لي ليلى.

عاد الصوت هاتفًا والطيف مقتربًا: ليل.. ى... ى... ى

- ياسين ن... ن.. ن

الطيـف ينفـث في وجهـي فتتسـع حدقتـي أكـثر، فـأراه بعـين جديـدة، ليسـت تلـك التـي أعماهـا البـكاء، أراه وأدقـق النظـر بوجهـه وهـو يضحـك لي قائـلًا: اشـتقتك يـا ليـلى، افتقدتـك الجنـة واشـتاقتك روحـي.

وأنـا أنظـر ضاحكـة، أرى في وجهـه ذاك النـور القديـم، تلمسـت وجهـه ثـم قبلتـه في جبينـه، قلـت: غبـت سـاعات لكنـي اشـتقت.

ثـم مـددت يـدي فصنعـت لـه كأسًـا مـن عصـير الفراولـة الـذي كان قـد طلبـه منـي قبـل رحيلـه، ولم يسـعفني الوقـت لعملـه، أعطيتـه الـكأس وقلـت: مـرة أخـرى حـين تطلـب منـي شـيئًا لا تذهـب وتتركـه، هـذا يُضايقنـي..

شددته من أذنه وقلت: فهمت يا ياسين؟

قال: أنت تُكبِّرين الأمر يا ليلى، إنها لحظات!

اخترقنـي صـوت خالـد وصورتـه، قَبَـل ياسـين كـما فعلـت ثـم قـال لي: أعلمـتِ أيـن أنـت يـا ليـلى؟

قلت: كنت أعلم أن الأرض لن تجمعني بكما معًا أبدًا.

وضعـت يـدي عـلى قلبـي وأنـا أردد: " اللهـم لـك الحمـد حتـى تـرضى، وإذا رضيـت، وبعـد الرضا».

تمت.. بحمد الله

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع

نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017